علوم القرآن

دروس منهجية

تأليف

السيد رياض الحكيم

دار الهلال

علوم القرآن

دروس منهجية

الحكيم، رياض، ١٩٥٨م-
علوم القرآن دروس منهجية / تأليف : السيد رياض الحكيم.
قم، دار الهلال، ١٤٣٥هـ.ق= ١٣٩٣هـ . ش= ٢٠١٤م
الطبعة الخامسة، ٢٧٩ ص.
شابك : ٥-٢٣-٦٩٩٢-٦٠٠-٩٧٨ :ISBN
الفهرسة طبق نظام فيپا.
ملاحظات الكتاب: ص . [٢٧٥]-٢٩٧ المصادر بالهامش.
الموضوع: القرآن- علوم القرآن.
١٣٩٣ ٨ع٨ح/ ٥/ ٦٩ BP ١٥/ ٢٩٧
رقم الايداع في المكتبة الوطنية: ٣٩٦٥٢٣٦

علوم القرآن

دروس منهجية

تأليف

السيد رياض الحكيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

اسم الكتاب: ..... علوم القرآن دروس منهجية

المؤلف: ..... السيد رياض الحكيم

المطبعة: ..... الوفاء

العدد: ..... ٥,٠٠٠ نسخة

الناشر: ..... دار الهلال

ISBN: ٩٧٨-٦٠٠-٦٩٩٢-٢٣-٥

المحتويات

المحتويات ٥

مقدمة الطبعة الأولى ١٣

مقدمة الطبعة الخامسة ١٧

«الدرس ١» ١٨

تمهيد ١٨

١ ـ تعريف: «علوم القرآن» ١٨

٢ ـ تاريخ «علوم القرآن» ٢٠

«الدرس ٢» ٢٣

٣ ـ عوامل نشوء هذا العلم ٢٣

الخلاصة ٢٥

أقسام بحوث
«علوم القرآن»
القسم الأول: أسماء القرآن وتجزئته

١ ـ القرآن ٣٣

٢ ـ الكتاب ٣٣

٣ ـ الفرقان ٣٣

٤ ـ المُصحَف ٣٤

الخلاصة ٣٦

القسم الثاني: النص القرآني ومضمونه

«الدرس ١٢» ٣٩
المبحث الأول: شمولية القرآن ٣٩
المبحث الثاني: خلود القرآن ٤٠
الأسئلة ٤٣
«الدرس ٤» ٤٤
المبحث الثالث: الجري والتطبيق ٤٤
المبحث الرابع: عالمية القرآن ٤٦
أُممية الإسلام ٤٦
الأولى: في توجيه أممية الأديان ٤٦
«الدرس ٥» ٤٧
الثانية: هل الإسلام دين أممي؟ ٤٧
«الدرس ٦» ٥٠
الخلاصة ٥٤
«الدرس ٧» ٥٥
المبحث الخامس: إعجاز القرآن ٥٥
«الدرس ٨» ٥٨
«الدرس ٩» ٦١
«الدرس ١٠» ٦٤
الخلاصة ٦٧
«الدرس ١١» ٦٨
المبحث السادس: سلامة القرآن من التحريف ٦٨

«الدرس ١٢» ٧١
الشبهة الأولى ٧١
«الدرس ١٣» ٧٥
الشبهة الثانية ٧٥
«الدرس ١٤» ٧٨
«الدرس ١٥» ٨١
«الدرس ١٦» ٨٥
«الدرس ١٧» ٨٨
موقف المسلمين من فكرة التحريف ٨٨
١ ـ موقف علماء العامّة ٨٨
٢ ـ موقف علماء الشيعة ٨٨
«الدرس ١٨» ٩٢
«الدرس ١٩» ٩٦
«الدرس ٢٠» ١٠١
محاولات يائسة لتحريف القرآن ١٠١
الخلاصة ١٠٣
الأسئلة ١٠٤
المبحث السابع: حجية الدلالة القرآنية ١٠٥
«الدرس ٢١» ١٠٨
«الدرس ٢٢» ١١١
الخلاصة ١١٣
الأسئلة ١١٤
المبحث الثامن: المحكم والمتشابه ١١٥

«الدرس ٢٣» ١١٧
«الدرس ٢٤» ١٢٠
الخلاصة ١٢٣
«الدرس ٢٥» ١٢٤
المبحث التاسع: الناسخ والمنسوخ ١٢٤
الأول: نسخ الحكم والتلاوة ١٢٥
«الدرس ٢٦» ١٢٦
الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم ١٢٦
«الدرس ٢٧» ١٢٩
الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة ١٢٩
شبهات حول النسخ ١٣١
الخلاصة ١٣٢
الأسئلة ١٣٢

القسم الثالث : وحـي القرآن ونزوله

«الدرس ٢٨» ١٣٥
أولاً: وحي القرآن ١٣٥
١ ـ الوحي في اللغة والقرآن ١٣٥
أ ـ الوحي في اللغة ١٣٥
ب ـ الوحي في القرآن ١٣٦
«الدرس ٢٩» ١٣٩
٢ ـ حاجة الإنسان للوحي ١٣٩
النقطة الأولى: الإنسان اجتماعي بطبيعته ١٣٩
النقطة الثانية: تنوّع الآراء والحاجة إلى القانون ١٤٠

«الدرس ٣٠» **١٤٣**
٣ ـ كيفية وحي القرآن: ١٤٣
٤ ـ تحديد المنزّل بالوحي: ١٤٤
٥ ـ شبهات حول الوحي والوحي القرآني ١٤٥
أ ـ شبهات حول الوحي ١٤٥
«الدرس ٣١» **١٤٦**
ملاحظة هامة ١٥٠
«الدرس ٣٢» **١٥٠**
ب ـ شبهات حول وحي القرآن ١٥٠
«الدرس ٣٣» **١٥٣**
«الدرس ٣٤» **١٥٦**
الخلاصة **١٦٠**
الأسئلة ١٦١
«الدرس ٣٥» **١٦٢**
ثانياً: نزول القرآن الكريم ١٦٢
«الدرس ٣٦» **١٦٥**
«الدرس ٣٧» **١٦٩**
تدرج نزول القرآن ١٦٩
الخلاصة ١٧٢

القسم الرابع: جمع القرآن وترتيبه وقراءته

١ ـ جمع القرآن: ١٧٥
معاني الجمع الخمسة: ١٧٥
الأول: الجمع بمعنى الحفظ (في الذاكرة) ١٧٥

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته ١٧٦
«الدرس ٣٨» ١٧٦
الثالث: الجمع بمعنى حفظه (مكتوباً) من الضياع ١٧٦
الرابع: الجمع ضمن مصحف واحد ١٧٨
الخامس: جمع القرآن بمعنى توحيد المصاحف ١٧٩
«الدرس ٣٩» ١٨١
٢ ـ ترتيب القرآن ١٨١
الأمر الأول: الترتيب بين الآيات القرآنية ضمن السورة الواحدة ١٨١
الأمر الثاني: الترتيب بين السور ١٨٢
«الدرس ٤٠» ١٨٣
٣ ـ القراءات والقرّاء ١٨٣
أ ـ القراءات وتعددها ١٨٣
ب ـ تدوين القراءات المشهورة ١٨٥
«الدرس ٤١» ١٨٦
ج ـ أهم عوامل تعدّد القراءات ١٨٦
«الدرس ٤٢» ١٩٠
د ـ القراءات السبع والأحرف السبعة ١٩٠
«الدرس ٤٣» ١٩٣
هـ ـ القرّاء السبعة ١٩٤
«الدرس ٤٤» ١٩٧
الخلاصة ١٩٩
الأسئلة ٢٠٠

القسم الخامس: المكي والمدني

معنى المكي والمدني ٢٠٣

«الدرس ٤٥» **٢٠٥**

١ ـ خصائص القسم المكي ٢٠٥

٢ ـ خصائص القسم المدني ٢٠٦

«الدرس ٤٦» **٢٠٧**

٣ ـ شبهات المستشرقين حول المكي والمدني ٢٠٧

الشبهة الأولى ٢٠٩

«الدرس ٤٧» **٢١١**

الشبهة الثانية ٢١١

الشبهة الثالثة ٢١٤

«الدرس ٤٨» **٢١٥**

الشبهة الرابعة ٢١٥

الخلاصة ٢١٧

الأسئلة ٢١٨

القسم السادس: القرآن والعلم

١ ـ موقف القرآن من العلم ٢٢١

«الدرس ٤٩» **٢٢٢**

٢ ـ العلوم التي كان القرآن سبباً في نشأتها أو تطورها ٢٢٣

٣ ـ العلوم الخاصة بالقرآن والباحثة عنه ٢٢٣

٤ ـ العلوم الضرورية لفهم القرآن الكريم ٢٢٤

الخلاصة ٢٢٦
«الدرس ٥٠» ٢٢٩

القسم السابع: التفسير والمفسّرون

الفصل الأول: التفسير ٢٢٩
١ ـ التفسير في اللغة والاصطلاح ٢٢٩
«الدرس ٥١» ٢٣٢
٢ ـ الاتجاهات العامة في التفسير ٢٣٢
البحث الأول: أقسام التفسير بحسب المصدر المعتمد فيه ٢٣٢
القسم الأول: تفسير القرآن بالقرآن ٢٣٣
القسم الثاني: التفسير بالمأثور ٢٣٤
أ) التفسير بالمأثور لدى العامة والملاحظات فيه ٢٣٤
١ ـ اعتمادهم على قول الصحابة والتابعين ٢٣٤
«الدرس ٥٢» ٢٣٥
٢ ـ انتشار الوضع ٢٣٥
٣ ـ تغلغل الإسرائيليات ٢٣٧
مبدأ ظهور الإسرائيليات ٢٣٧
«الدرس ٥٣» ٢٣٩
٤ ـ حذف الإسناد أو ضعفه ٢٤٠
«الدرس ٥٤» ٢٤٢
ب) التفسير بالمأثور لدى الشيعة والملاحظات فيه ٢٤٢
من أشهر التفاسير بالمأثور ٢٤٣
القسم الثالث: التفسير الإشاري ٢٤٤

«الدرس ٥٥» **٢٤٧**
القسم الرابع: التفسير بالرأي **٢٤٧**
القسم الخامس: التفسير بالتدبر الجامع **٢٤٨**
الخلاصة ٢٥٠
«الدرس ٥٦» **٢٥١**
البحث الثاني: مناهج التفسير **٢٥١**
الفصل الثاني: المفسّرون **٢٥٤**
١ ـ طبقات المفسّرين ٢٥٤
«الدرس ٥٧» **٢٥٥**
أ ـ طبقات المفسّرين لدى العامة ٢٥٨
الطبقة الأولى من المفسرين: الصحابة ٢٥٨
«الدرس ٥٨» **٢٥٩**
الطبقة الثانية من المفسّرين: التابعون ٢٥٩
١ ـ طبقة أهل مكة ٢٥٩
٢ ـ طبقة أهل المدينة ٢٥٩
٣ ـ طبقة أهل العراق ٢٦٠
الطبقة الثالثة من المفسرين ٢٦٠
الطبقة الرابعة من المفسرين ٢٦١
الطبقة الخامسة من المفسرين ٢٦٢
«الدرس ٥٩» **٢٦٣**
الطبقة السادسة من المفسّرين ومن بعدهم ٢٦٣
ب ـ طبقات المفسّرين لدى الشيعة ٢٦٤
الطبقة الأولى ٢٦٤

الطبقة الثانية ٢٦٥
القرن الأول ٢٦٥
القرن الثاني ٢٦٦
القرن الثالث ٢٦٦
القرن الرابع ٢٦٧
القرن الخامس ٢٦٧
القرن السادس ٢٦٨
«الدرس ٦٠» ٢٦٩
استعراض خاطف لبعض التفاسير المعاصرة ٢٦٩
١ ـ التفسير الكاشف ٢٦٩
٢ ـ الميزان في تفسير القرآن ٢٧٠
٣ ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٢٧٢
الأسئلة ٢٧٣
فهرست المصادر ٢٧٥

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين

وبعد..

فقد شغل القرآن الكريم مساحة واسعة من اهتمامات وجهود الباحثين المسلمين وغيرهم، ولم يقتصر هذا الاهتمام على البحوث التفسيرية والتمعّن في مداليل آياته، بل شمل البحث في شؤونه المختلفة وخصوصياته مثل إعجازه وتنزيله وجمعه وترتيبه وقراءاته وغيرها.. وقد كوّنت مجموع هذه البحوث - فيما بعد - العلم المعروف بـ«علوم القرآن» والذي أصبح ضمن مواد المنهج الدراسي للحواضر العلمية التي يقصدها ويتخرج منها طلبة العلوم الاسلامية.

وعندما دعيت لتدريس مادة «علوم القرآن» للطلبة الأجانب فى المركز العالمي للدراسات الاسلامية في الحوزة العلمية بمدينة قم المشرّفة ، لاحظت افتقاد المنهج الدراسي لهذه المادّة المنسجم مع مستوى الطالب وطبيعة الدراسة في الحوزة العلمية ـ رغم وجود بعض الكتب القيّمة ـ فجاءت فكرة ترتيب هذا الكتاب على شكل دروس منهجية، مع إضافة الأسئلة الخاصة بكل فصل ليسهل على الطالب تحديد أهم النقاط والمواضيع المبحوثة فيه.

وقد حرصت على أن يكون اسلوب الكتاب منسجماً مع طبيعة المناهج الدراسية التي يفترض ابتعادها عن الاطالة والاسهاب مع المحافظة على

الايضـــاح المطلوب وخلّـــو التعبير من التعقيد والغمـــوض ، آملاً أن أكون قد وفّقت فيما قصدت، ورعاية لحجم الحصة الدرســـية كان لابدّ من توزيع بعض المواضيع أحياناً على عدة دروس.

وسوف يلاحظ القارئ حضوراً واضحاً للنصوص الواردة عن أئمة آل البيت عليهم السلام وعرض مواقفهم وآراء شيعتهم في البحوث والمواضيع التي تبحث في هذا العلم، والتي هي مغيّبة فى كثير من المصادر.

ختامـــاً أدعو الله تعالى أن ينفع به طلبة العلوم الاســـلامية وكل المهتمين بالشؤون القرآنية ، وأن يجعله ذخراً لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، إنه سميع مجيب .

رياض الحكيم

مقدمة الطبعة الخامسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

نظراً للإقبال الكبير على اقتناء هذا الكتاب وانتشار تدريسه في بعض الحوزات العلمية والجامعات والمعاهد الإسلامية ارتأيت مراجعته ـ ولو سريعاً ـ، وإجراء بعض التغييرات والإضافات فيه، وأهمها..

١ ـ إضافة هيكلية جامعة لبحوث هذا العلم، لمعالجة الاشكاليات الفنية على الكتب المتداولة في علوم القرآن، المتمثلة بانعدام تصنيف هذه البحوث وتشتتها.

٢ ـ وضع خلاصة لكلّ بحث تتضمن الإشارة الى أهم النقاط المبحوثة فيه.

٣ ـ الاستفادة من الرسوم البيانية في بعض البحوث.

آملاً أن يكتمل الانتفاع بالكتاب وأن تتضاعف ثماره للدارسين والباحثين في علوم القرآن. والله تعالى هو الموفق والمعين.

المؤلف

«الدرس ١»

تمهيد

يتضمن الإشـــارة إلى تعريف العلم، وتاريخ وعوامل نشـــوء هذا العلم وتطوره.

١ ـ تعريف: «علوم القرآن»

منذ أن بزغ فجر الإسلام مقترناً بنزول الوحي الإلهي، وتوالت آيات الله لتشكل فيما بعد كتاب الله الذي يحمل في طياته معالم الدين الجديد بمختلف أبعاده العقائدية والتربويـــة والعبادية وغيرها، أدرك المســـلمون أهمية الكتاب العزيز ـ القرآن الكريم ـ وعظمته، ولم يقتصر اهتمامهم على استيعاب معانيه والتمعن في آياته وتفسيرها، بل اهتموا بجوانب أخرى ترتبط به مثل تاريخ نزوله، وترتيبه، واختلاف القراءات، والإعجاز، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك...

وقد عُرفت هذه البحوث ـ فيما بعد ـ باســـتثناء تفسير معانيه الذي صار علماً بنفسه، بـ«علوم القرآن».

فـ«علـــوم القرآن» العلم الـــذي يبحث فيه عمّا يرتبط بالقرآن ـ ســـوى التفسير ـ مثل تأريخ نزوله، وترتيبه، واختلاف القراءات، والناسخ والمنسوخ، ووجه الإعجاز فيه، وغير ذلك.

وقد اتضح أن العلوم التي تعـــرّض لها القرآن الكريم مثل الفقه والتربية والعقائد وغيرها لا ترتبط بهذا العلم.

٢ ـ تاريخ «علوم القرآن»

لاشك أنّ بدايات العديد من بحوث هذا العلم تمتد إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله مثل الناسخ والمنسوخ، واختلاف القراءات والوحي وغير ذلك، وقد تزايد اهتمام المسلمين بهذه البحوث بعد انقطاع الوحي عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله حيث أصبح القرآن الكريم أحد الثقلين اللذين خلّفها صلى الله عليه وآله للأمة. ولكن المؤسف انّا لا نملك أثراً عن طبيعة تلك البحوث في ذلك العصر; لأنّها كانت عبارة عن نقل الحديث عن الرسول صلى الله عليه وآله فمن الطبيعي أن تتأثر بقرار المنع الصادر من الشيخين على رواية حديث الرسول صلى الله عليه وآله وكتابته، بل وإحراق الموجود منه[1]، وقد تأخر السماح بتدوين السُنّة إلى نهاية القرن الأول الهجري، قيل: في زمن عمر بن عبدالعزيز (ت: ٩٩ ـ ١٠١ هـ) فقد كتب إلى عامله في المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم «انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»[2].

وقد مرَّ التدوين لبحوث هذا العلم بمرحلتين..

المرحلة الأولى: تدوين بعض بحوثه، حيث كان يطلق على كلّ بحث عنوان العلم، فيقال: «علم القراءات»، و«علم المحكم والمتشابه» و«علم الناسخ والمنسوخ»، وغير ذلك. ولذلك سمي هذا العلم لاحقاً ـ بعد جمع هذه البحوث فيه ـ و«علوم القرآن».

المرحلة الثانية: تدوينها في إطار علم ومؤلَّف واحد.

أما المرحلة الأولى فقد بدأت منذ القرن الأول الهجري، ومن أبرز المؤلفين في هذه المرحلة..

أ) الإمام علي عليه السلام فقد أثبت له الشريف المرتضى كتاب «المحكم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ١٤٠.

(٢) الجامع الصحيح: ١ / ٥٢ باب الحرص على الحديث.

والمتشابه في القرآن»[١]، كما نسب له سعد بن عبدالله الأشعري كتاب «ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه»[٢]، بل ذكر الحافظ ابن عقدة الكوفي انّ للإمام ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن[٣]. وبهذا يكون الإمام علي عليه السلام هو أول من ألف في هذا العلم.

ب) يحيى بن يعمر (ت: ٨٩هـ) ـ أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي ـ ألف كتاب «القراءة» في قرية واسط، وضم الاختلاف الذي لوحظ في نُسَخ القرآن المشهورة[٤].

ج) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري (ت: ١١٥هـ) ألف كتاباً في «عدد آي القرآن».

د) عبدالله بن عامر اليحصبي (ت: ١١٨هـ) له كتاب في اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق و«المقطوع والموصول».

هـ) شيبة بن نصاح المدني (ت: ١٣٥هـ) له كتاب «الوقوف»،

و) أبان بن تغلب (ت: ١٤١هـ) ـ تلميذ الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ـ صنّف كتاباً في القراءات، وله كتاب «معاني القرآن».

ز) محمد بن السائب الكلبي (ت: ١٤٦هـ) أوّل من صنّف في «أحكام القرآن».

ح) مقاتل بن سليمان المفسّر (ت: ١٥٠هـ) له كتاب «الآيات المتشابهات».

ط) أبو عمرو بن العلاء زبان بن عمّار التميمي (ت: ١٥٤هـ) ألّف كتاب «الوقف والابتداء»، وله كتاب «القراءات».

ي) حمزة بن حبيب الزيّات (ت: ١٥٦هـ) ـ صاحب الإمام الصادق عليه السلام ـ له كتاب في القراءة، وتوالى تأليف كتب اخرى في فترات لاحقة.

---

(١) الذريعة: ٢٠/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) انظر: المصدر: ٤/ ٢٧٦، ٢٤/ ١٠٨. بحار الأنوار: ١/ ١٥.

(٣) أعيان الشيعة: ١/ ٣٢١. بحار الأنوار: ٣٩/ ٣.

(٤) انظر تاريخ التراث العربي لفؤاد سركين.

وأمـــا المرحلة الثانية حيث أُلّفت كتب جامعة لعلـــوم القرآن، ومن أبرز المؤلفين فيها..

أ) الإمـــام علي عليه السلام حيث تقـــدم آنفاً عن الحافظ ابـــن عقدة الكوفي أن للإمام عليه السلام ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن.

ب) بـــدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ)، مؤلف كتاب «البرهان في علوم القرآن»، ذكر فيه (٤٧) عنواناً لعلوم القرآن.

ج) جلال الدين الســـيوطي (ت: ٩١١هـ)، صاحب كتاب «الإتقان في علوم القرآن» ، ذكر فيه (٨٠) عنواناً لبحوث هذا العلم.

د) الشهيد الســـعيد محمد باقر الحكيم (استشـــهد في عام ١٤٢٤هـ) له كتاب «علوم القرآن».

هـ) الشيخ محمد هادي معرفة (ت: ١٤٢٧هـ) صاحب كتاب «التمهيد في علوم القرآن»، ويقع في أربعة أجزاء.

وأما اصطلاح «علوم القرآن» فربما يرجع إلى القرن السادس حيث ألّف ابـــن الجوزي (ت: ٥٩٧هـــ) كتابين أحدهما بعنوان: «فنـــون الأفنان في علوم القرآن» والثاني بعنوان: «المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن».

لكن حكى محمد بن عبدالعظيم الزرقاني انّه ظفر في دار الكتاب المصريّة بكتاب لعلي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي (ت: ٣٣٠هـ) اسمه «البرهان في علوم القرآن» يقع في ثلاثين مجلّداً الموجود منه خمسة عشر مجلّداً، إلاّ أنّ الزرقاني تحدث عن هذا الكتاب بقوله: «... كأنّ هذا التأليف تفسير من التفاسير عرض فيه صاحبه لأنواع من علوم القرآن عند المناسبات...»[1].

---

(١) مناهل العرفان: ١ / ٣٦.

«الدرس ٢»

٢ ـ عوامل نشوء هذا العلم

نستطيع أن نلخّص العوامل التي أوجبت نشوء هذا العلم وتطوُّر البحث في ذلك بما يلي:

١ ـ فضل القرآن وقدسيته في نفوس المسلمين، فهو الثقل الأكبر والكتاب الذي أوصى به النبي المصطفى ﷺ أمّته، فضلاً عن النصوص الكثيرة الواردة في ضرورة تقديسه وتنزيهه عن كل ما لا يليق بشأنه، وكذلك الحث الأكيد على قراءته وفهمه والتدبّر فيه وحفظه.

٢ ـ عمق القرآن الكريم وتنوع أبحاثه، ممّا أوجب اهتمام العلماء ـ من المسلمين وغيرهم ـ بدراسته دراسة معمّقة ومفصّلة سواء ما يرتبط بألفاظه وأسلوبه أم ما يرتبط بمدلولاته ومضمونه «ظاهره أنيق وباطنه عميق» ـ كما جاء في الحديث ـ[1].

٣ ـ كونه معجزة الإسلام الخالدة ممّا أوجب اعتزاز المسلمين به وانشدادهم نحوه، وبالمقابل صار هدفاً لشبهات أعداء الإسلام الذين يرومون الطعن بالإسلام، هذا الصراع حوله أوجب أن يكون محطّ أنظار العلماء والباحثين وتوجّههم إليه مما ساهم في توسّع البحوث المرتبطة به كالتفسير وعلوم القرآن.

٤ ـ تضمّنه لأهم معالم الدين الإسلامي وأُسسه وتشريعاته، فهو يتحدث عن اصول العقيدة التي نادى بها الإسلام، كما يتضمّن معالم الأطروحة الإسلامية لرقي الإنسان وتهذيب نفسه وإصلاح مجتمعه، بالإضافة إلى جملة وافية من

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٨.

التشريعات الإسلامية المتنوعة.. إلى غير ذلك من المواضيع الهامة التي تهم المسلم.

فهو كتاب حيوي مقدس لدى المسلمين، ولذلك ورد الحث على قراءته والتدبر فيه، بل اعتبره الرسول صلى الله عليه وآله الثقل الأكبر الذي خلّفه ويطالب به أمّته ـ كما جاء في حديث الثقلين ـ.

٥ ـ عدم اشتماله على أسماء أو مواقف محدّدة صريحة، ولذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «هذا القرآن إنّما هو خط مستور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان، وإنّما ينطق عنه الرجال»[١]. وفي وصيته لابن عباس لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه، تقول ويقولون»[٢].

هذه الميزة في القرآن جعلته في مأمن من كيد السلطات الجائرة المتعاقبة، فلم يقفوا أمام اندفاع المسلمين نحوه واهتمام الباحثين به، ولم يواجهوه بما واجهوا به أهل البيت عليهم السلام ـ الثقل الآخر ـ من العنف والقسوة.

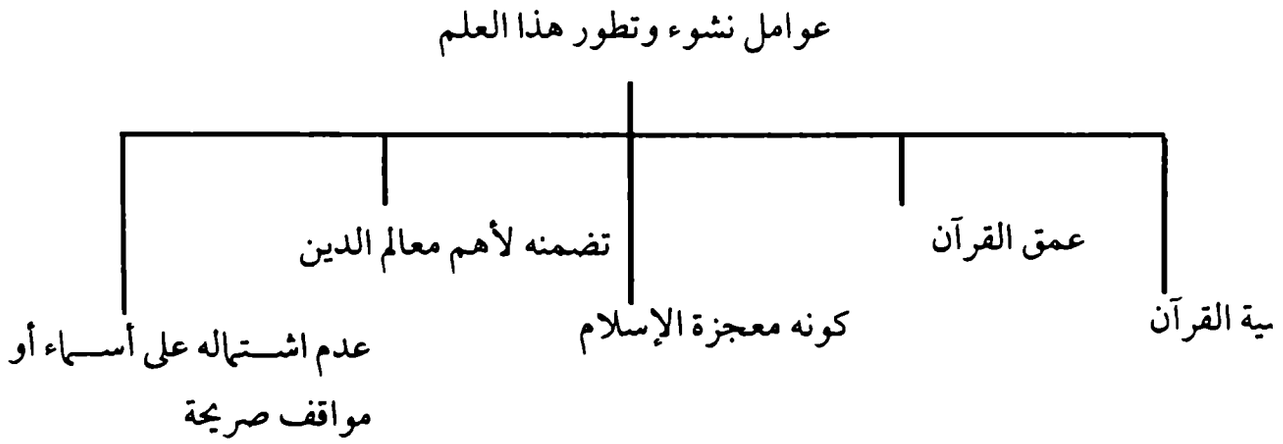

(١) نهج البلاغة، الخطبة: ١٢٥.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة: ٣١٦.

الخلاصة

١ ـ تعريف «علوم القــرآن»: العلم الذي يُبحث فيه عمّا يرتبط بالقرآن ـ غير التفسير ـ .

٢ ـ تاريــخ هذا العلم يمتد الى عصر الرســول ﷺ ، وأول من دوّن فيه الإمام علي عليه السلام، ومن أبرز الكتب الجامعة فيه: «البرهان في علوم القرآن»، لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ).

٣ ـ عوامل نشوء هذا العلم وانتشاره خمسة:

أ) فضل القرآن الكريم.

ب) عمقه.

ج) كونه معجزة الإسلام الخالدة.

د) تضمنه لأهم معالم الدين الإسلامي وتعاليمه وتشريعاته.

هـ) عدم اشتماله على أسماء أو مواقف محدّدة صريحة.

أقسام بحوث
«علوم القرآن»

أقسام بحوث

«علوم القرآن»

إن من الإشكاليات الفنية المسجلة على الكتب المتداولة في «علوم القرآن» انعدام التصنيف لبحوث هذا العلم، ولذلك ارتأيت ـ تيسيراً للباحث ـ وضع هيكيلة تندرج على أساسها كل مجموعة من البحوث في صنع جامع لها، وطبقاً لذلك تنقسم بحوث هذا العلم بحسب موضوع كلّ بحث الى سبعة أقسام..

١ ـ أسماء القرآن وتجزئته.

٢ ـ النص القرآني ومضمونه.

٣ ـ وحي القرآن ونزوله.

٤ ـ جمع القرآن وترتيبه وقراءته.

٥ ـ المكي والمدني.

٦ ـ القرآن والعلم.

٧ ـ التفسير والمفسّرون.

القسم الأول

«أسماء القرآن وتجزئته»

القسم الأول: أسماء القرآن وتجزئته

وفيه بحثان: الأول أسماء القرآن، والثاني: تجزئته.

أما الأول: فقد ذكرت للقرآن أسماء كثيرة أهمها أربعة..

١ ـ القرآن:

وهو الاسم المعروف على مرّ العصور، وهو مأخوذ إما من القراءة لأنه نزل مقروءاً ومنطوقاً وليس مكتوباً كالتوراة، أو من «القرن» وهو الجمع، لأنه نزل متفرّقاً وجُمع.

والأول أقرب، لأن هذه التسمية موجودة في بعض آيات السور المكية، قبل جمع القرآن في كتاب، مثل قوله تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾[1].

٢ ـ الكتاب:

وكأنه باعتباره جامعاً لأسباب الهداية، لأن الكتاب لغةً هو الجمع.

٣ ـ الفرقان:

كما قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾[2]. باعتباره الميزان الخالد الذي يفرق بين الحق والباطل، ولذلك جُعل وصفاً لما أُنزل على موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾[3].

---

(١) سورة النساء: ٨٢.

(٢) سورة الفرقان: ١.

(٣) سورة البقرة: ٥٣.

٤ ـ المُصحَف:

وهو« الجامع للصحف المكتوبة بين الدفّتين» [١].

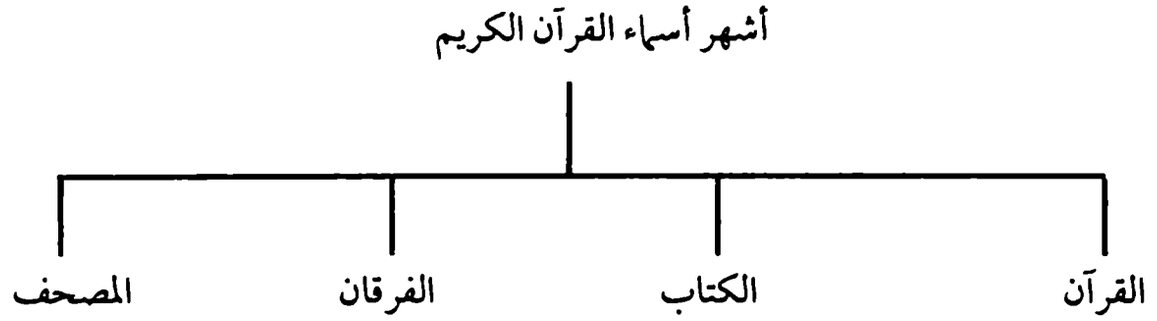

وهو مؤلف من (١١٤) سـورة على المشـهور، والسـورة هي الوحدة الجامعة بين الآيات، والآيات أجزاء السورة، مثل البيت الذي هو جزء القصيدة الشعرية.

وباعتبار الكمية قسّـم القرآن إلى ثلاثين جزءاً، وكل نصف جزء يسمّى حزباً.

ولكل مجموعة من السور القرآنية اسم خاص بها، وهي..

١ ـ **السبع الطوال**: وهي سـورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال. وجعل بعضهم بدلها سورة «يونس»[٢].

٢ ـ **المئون**: وهي السـور التي بعد السـبع الطوال، وعدّها الشهرستاني إحدى عشرة سـورة من «براءة» إلى «الصافات» وكل سورة منها تناهز المائة أو تزيد عليها.

٣ ـ **المثاني**: وهي التي تلي المئين، قيل: سميت بالمثاني لأنها كانت بعد المئين

---

(١) لسان العرب: ٧/ ٢٩١.

(٢) انظر: دراسة حول القرآن الكريم: ٣٦.

فهي لها ثوانٍ[١]. وعدّها الصيدلاني عشرين سورة[٢].

٤ ـ المفصَّل: وهي باقي السور، وسميت بالمفصَّل لكونها المصداق البارز لقوله تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣] لكثرة الفواصل فيها، بسبب قصر السور المذكورة[٤].

وروي عن النبي ﷺ قوله: «أُعطيتُ الطّوال مكان التوارة، وأُعطيتُ المئين مكان الإنجيل، والمثاني مكان الزبور، وفُضّلتُ بالمفصَّل سبع وستين سورة»[٥].

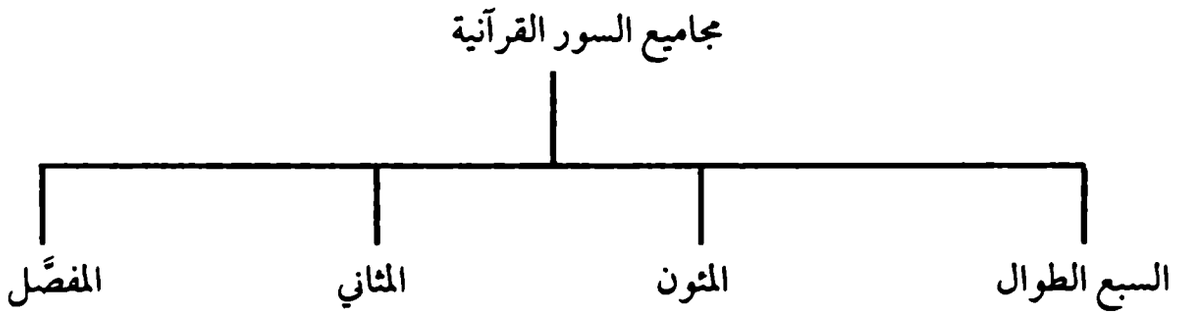

(١) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ١/ ١٢٧.
(٢) انظر: دراسة حول القرآن الكريم: ٣٧.
(٣) سورة هود: ١.
(٤) انظر: المصدر: ٣٨.
(٥) انظر: بحار الأنوار: ٩٢/ ٢٧، ومفاتيح الأسرار: ١/ ١٢.

الخلاصة

١ ـ تنقسم بحوث هذا العلم الى سبعة أقسام.

٢ ـ أسماء القرآن المعروفة أربعة:

أ) القرآن.

ب) الكتاب.

ج) الفرقان.

د) المصحف.

٣ ـ يجزّأ القرآن الى ثلاثين جزءاً، وستين حزباً.

٤ ـ تقسم سور القرآن الى أربع مجاميع، وهي:

أ) السبع الطوال.

ب) المئون.

ج) المثاني.

د) المفصَّل.

القسم الثاني

«النص القرآن ومضمونه»

«الدرس ٣»

القسم الثاني: النص القرآني ومضمونه

وفيه تسعة مباحث..

المبحث الأول: شمولية القرآن

عندما نتحدث عن شمولية القرآن لا نعني انّه فهرسة للعلوم المختلفة، وإلاّ لأوجب ذلك إماتة روح الإبداع في الإنسان في هذه الحياة الدنيا التي ابتنت على الكدح وبذل الجهد والإبداع.

بل نقصد أنّه يتناول مختلف جوانب الحياة التي تحيط بالفرد والمجتمع، ولا يقتصر دوره على جانب معيَّن منها فهو كتاب شامل في تعاليمه ومحتواه أو فلنقل ليعزز جهود الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في أدائه لهذا الدور، بتوجيه الأمّة وارشادهم إلى ما يضمن لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

ولذلك فمن الطبيعي أن يشتمل على مختلف الأمور التي تكون فاعلة في إصلاح الأفراد والمجتمع، ولم يقتصر على جانب واحد منها. ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1] فالقرآن قد احتوى على كل ما يهم المسلَم بإطاره العام وهو:

١ ـ أصول العقيدة من التوحيد والنبوة والمعاد والإمامة، وغيرها من المسائل الاعتقادية الأخرى، كالقضاء والقدر والعرش وغير ذلك...

٢ ـ الجانب التربوي وما يرتبط به من سمو الاخلاق وتهذيب النفوس.

٣ ـ مجموعة من الأحكام الشرعية والقوانين التي تنظم سلوك المسلم وعلاقاته كفرد، والمسلمين كمجتمع، كما أشار إلى اتّباع الرسول صلى الله عليه وآله وولاة

(١) سورة الإسراء: ٩.

الأمر الذين يحدّدون باقي التفاصيل.

وهذا هو مانعنيه من شمولية القرآن.

إضافـةً لذلك نرى أنّ القرآن قد تصدّى لمهمة أخرى وهي جذب الناس وترغيبهم فيما يصلحهـم وتحذيرهم مما يضرّ بهـم ، ولم يقتصر دوره على سرد مقوّمات الإصلاح ضمن مواد قانونية جافـة ومحدودة التأثير بل تضمن أرقى الأساليب البلاغية وأكثرها تأثيراً في النفس، ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِـعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْـيَةِ اللَّهِ**﴾ (١). وسوف يأتي توضيح ذلك في مبحث إعجاز القرآن.

المبحث الثاني: خلود القرآن

ان خلـود القرآن بمعنى أنّه نزل ليبقى أي ليكون مناراً ومرجعاً للأجيال المتعاقبة، ولا يختص بجيل نزوله أو بفترة معينة. وهناك عدة أمور تشهد بذلك..

١ ـ طبيعة آياته ومحتوياته، فهو بين آيات مرتبطة بالعقائد الصحيحة وبين دعوة إلى مـكارم الأخلاق وبين تشريعات في مختلف المجالات منسـجمةً مع الفطرة الإنسانية وصالحةً لتوجيه الفرد وتنظيم علاقاته مع الآخرين.

نعم هناك مجموعة من الاعتراضات والتساؤلات حول بعض التشريعات القرآنية والإسـلامية بشكل عام ومدى انسـجامها مع تطور المجتمعات، وقد تصـدى العلماء للإجابة عليها وتوضيح انسـجام تلـك التشريعات مع تطور الإنسان، ولسنا بصدد استيعابها هنا، لأنّ مجالها كتب العقائد وفلسفة التشريع، لكـن يكفينا هنا أن نشـير إلى الإعجاب المتزايـد بالقرآن الكريـم والتشريع الإسـلامي من قِبَل مجموعة كبيرة من المثقفين الغربيين، فهذا الألماني المعروف (غوته) يشـيد بالقرآن ويضيف: انّي اعتقد ان هذا الكتاب سـيترك في القريب

(١) سورة الحشر: ٢١.

العاجل أثره المنجـــي والعميق في كل جوانب الحياة ويكون بالنتيجة محط أنظار العالم.

ويقول (جول لابوم) ـ في مقدمة فهرسة القرآن ـ : «القرآن حي إلى الأبد، وكل واحد من الناس يستفيد منه بمقدار إدراكه واستيعابه».

ويقول (بايلر) المســتشرق المعروف ـ بعد أن أشــاد بالقرآن ـ «في القرآن مواعظ ظاهرة وسيكون في القريب العاجل بلا معارض إلى الأبد، وكل شخص يتبع القرآن جيداً ستكون حياته مطمئنة وممتازة ومثالية»[1].

٢ ـ مما يشــهد ـ إســلامياً ـ بخلود القرآن كلّ ما دل أن شريعة الإسلام آخــر الشرائع وأن حلال محمد حــلال إلى يوم القيامة وحرامــه حرام إلى يوم القيامة، ونحو ذلك[2]، حيث من الواضــح ان القرآن الكريم هو الثقل الأكبر الذي تضمن كثيراً من أصول الإسلام وتعاليمه وتشريعاته، فمن دوام الإسلام وخلوده نعرف دوام القرآن وخلوده.

٣ ـ ومما يشــهد أيضاً بخلود القرآن النصوص الكثيرة في السُنّة التي تأمر المسلمين ـ بأجيالهم المتعاقبة ـ بالأخذ بالقرآن والتأمّل فيه وعظمته ونحو ذلك، ويقــف في مقدمتها حديث الثقلين المــروي بطرق عديدة والمســلَّم عند جميع المسلمين، حيث تضمّن وصية النبي صلى الله عليه وآله للمسلمين بأجيالهم المتعاقبة بالتمسّك بالكتاب والعترة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «ســمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّها ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها يا رســول الله؟ قال: كتاب الله، فيه خبر ما قبلكم ومــا بعدكم، وحكم مــا بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هــو الذي لا تزيغ به

(١) انظر: كتاب تاريخ وعلوم قرآن: ١٨٦ و ١٨٩.
(٢) بصائر الدرجات: ١٤٨، ح ٧، الكافي: ٢/ ١٧، ٢.

الأهواء ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه..»[١].

وفي حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إنّ رجلاً سأل أبا عبدالله عليه السلام ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراية إلاّ غضاضةً؟ فقال عليه السلام: لأنّ الله لم ينزله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة»[٢].

وفي حديث للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في ذم بعض الأزمنة: «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلاّ رسمه ومن الإسلام إلاّ اسمه»[٣]. فإنّ ذم هذا الزمان الذي لا يهتدي أهله بالقرآن يعني أنّ القرآن أُنزل ليكون مصدر هداية في كل زمان.

٤ ـ من الشواهد على خلود القرآن ومرجعيته الدائمة للمسلمين ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام من ضرورة عرض الروايات على القرآن وان ما خالف كتاب الله فهو زخرف أو باطل، وفي بعضها الأمر بأخذ النص الموافق للكتاب العزيز[٤]، ما يؤكد دوام مرجعية القرآن وهدايته للأجيال المتعاقبة.

---

(١) المختصر النافع: ١٧، وقريب منه ما في سنن الترمذي: ٥ / ١٧٢.

(٢) عيون أخبار الرضا٧: ٢٣٩.

(٣) تصنيف نهج البلاغة: ٢١٣.

(٤) انظر الكافي: ١/ ٦٩. وسائل الشيعة: ١٨/ ٧٦ وما بعدها.

الأسئلة

١ ـ عرّف «علوم القرآن».

٢ ـ من هو أوّل من دوّن في علوم القرآن؟

٣ ـ اذكر العوامل الخمسة لنشوء وتطوّر هذا العلم.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قد يدعى أنه لا ينسجم مع أممية الإسلام وكون النبي محمد ﷺ هادياً للبشرية جمعاء، وإنما هو للعرب فقط، اذكر ثلاثة شواهد على ردّ هذا الإدعاء.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قد يدعى أنه لا يلتئم مع أممية الإسلام وأنه مختص بأهل مكة ومن حولها. اذكر أربعة شواهد لردّ هذا الإدعاء.

«الدرس ٤»

المبحث الثالث: الجري والتطبيق

تضمنت كثير من النصوص بيان أسباب نزول بعض الآيات والسور، والتي قد يبدو منها اختصاص الآية أو السورة بحادثة معيّنة كانت هي سبب نزولها، وهو ما لا ينسجم مع ما تقدم من خلود القرآن وذلك انبثقت نظرية الجري والتطبيق بمعنى أن الآيات القرآنية لا تقتصر على مورد نزولها، بل تجري وتتحرك بحركة الزمان، وأن مورد نزولها مجرّد تطبيق للآية، وقد دلّت على ذلك مجموعة من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام .

روى العياشي عن عبد الرحيم القصير قال: كنتُ يوماً من الأيام عند أبي جعفر عليه السلام فقال: يا عبد الرحيم قلت: لبيك: قال: قول الله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وعلي الهاد ومَن الهاد اليوم؟ قال: فسكتّ طويلاً، ثم رفعتُ رأسي فقلتُ: جعلتُ فداك هي فيكم توارثونها رجل فرجل حتى انتهت إليك، فأنتَ ـ جعلت فداك ـ الهاد. قال: صدقتَ يا عبد الرحيم،إنّ القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين.

وقال عبد الرحيم: قال ابو عبد الله عليه السلام: إنّ القرآن حيّ لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار، وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا كما يجري على أوّلنا[1].

(١) تفسير العياشي: ٢ / ٢١٨ ـ ٢١٩.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال لعمر بن يزيد لمّا سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾[1]، «هذه نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه وآله وقد تكون في قرابتك ثمّ قال: فلا تكوننن ممن يقول للشيء: انّه في شيء واحد»[2].

وفي تفسير فرات: «ولو ان الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض ولكل قوم آية يتلوها هم منها من خير أو شر»[3].

وهناك العديد من النصوص الأخرى التي تشير إلى ذلك، ولكن لابد أن نشير إلى أن هذه النصوص لا تعني عدم نزول بعض الآيات في شخص أو فئة خاصة، لتميزهم عن غيرهم ببعض المميزات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[4]، وغير ذلك من الآيات الكريمة الخاصة بالنبي صلى الله عليه وآله أو غيره.

ويفترض في المفسّر والباحث أن يكون دقيقاً في فهم الآيات والنصوص المفسّرة لها، فيميّز بين المعنى المقصود من الآية وبين التطبيقات التي تشير إليها بعض النصوص التفسيرية، فالأول لا يمكن التصرف فيه وتطبيقه على غيره، بينما الثاني مجرّد فرد ومصداق ـ مهما كان بارزاً ومتميزاً ـ لا تقتصر عليه الآية المفترضة. والله العالم.

---

(١) سورة الرعد: ٢١.

(٢) الكافي: ٢ / ١٥٦.

(٣) انظر: البيان: ٣٣.

(٤) سورة الأنفال: ٢١.

المبحث الرابع: عالمية القرآن

وهـذا البحث يرتبط إلى حدٍّ كبير بأممية الإسـلام، فـإذا تم إثبات ذلك فنعطف على ذلك دور القرآن وأهميته في الإسلام باعتباره الثقل الأكبر، ليتضح حينئذ ان القرآن كتاب للبشرية جميعاً، ولا يختص بقوم أو أُمة معيّنة.

أُممية الإسلام

لاشـك في أُممية الإسلام وتصدي الرسـول ﷺ والأئمة عليهم السلام من بعده لهدايـة جميع البشر من دون خصوصية لقـوم دون غيرهم، ونحاول هنا بحث الموضوع وتسليط الضوء على نقطتين:

الأولى: في توجيه أممية الأديان

ونبحث ذلك في بُعدين..

أ ـ ففي البعد النظري: س نقول، لا مانع من شـمولية الدين، لأنّ الدين يفـترض اعتماده على ركنين أساسـيين هما اصـول العقيـدة والتشريع المرتبط بالممارسة أو السلوك.

أمّا اصول العقيدة فهي حقيقة ثابتة لا تختلف باختلاف الشـعوب، وأمّا الجانب التشريعي فيفترض في الدين اشـتماله على تعاليم وقيم أخلاقية سامية، وتشريعات عملية عامة تسـاهم في إصلاح الفرد والمجتمع وسعادته في الدنيا والآخرة، فلا تختص بشـعب دون آخر، مـن دون أن يمنع ذلك من اختلاف القوانـين المعتمدة في المجتمعات تبعاً لاختـلاف ظروفها وخصوصياتها بما لا يتنافى مع المبادئ التشريعية العامة المعتمدة إسلامياً والمنسجمة مع مبدئي الفطرة

والعدالة الإجتماعية.

ب ـ بحسب الواقع الموضوعي لا موجب لاختصاص الدين بفئة أو شعب خاص، ويكفي شاهداً على إمكانية انتشار الدين الواحد بين الشعوب المختلفة هو انتشار الدين المسيحي والدين الإسلامي بين الكثير من المجتمعات والشعوب شرقاً وغرباً، رغم تباين الظروف وتنوع الثقافات.

«الدرس ٥»

الثانية : هل الإسلام دين أممي؟

وللإجابة عن ذلك نبحث في أمرين..

(الأمر الأول): الشبهات والاعتراضات الموجّهة على ذلك، وأهمّها ظواهر بعض الآيات، منها:

١) قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1].

وجه الشبهة: أنّ الآية فرضت أن لكل قوم هادياً، فكيف نفرض الرسول هادياً لجميع البشر؟

والجواب عنها من وجوه..

أ ـ إنّ هذه الشبهة تبتني على تفسير ساذج للآية لا يلتئم مع افتراض انسجام الرد مع طبيعة طلبهم وموقفهم، فأيّ ارتباط بين طلبهم نزول الآية وبين هذا الردّ؟!

ولذلك يفترض تفسير الآية بما يجعل آخرها منسجماً مع أولها.

ويمكن أن تستظهر من الآية وجوه أُخرى للتفسير..

---

(١) سورة الرعد: ٧.

منها: ان المقصود بالهادي هنا ليس هو شخص الرسول ﷺ، وإنّما القرآن الكريم أو نحوه من شواهد الرسالة، ويكون المعنى ان الله تعالى جعل لكل رسالة وأمّة ما يناسبها من الآيات الهادية لهم، فرسالة الإسلام حيث كانت رسالة خالدة فيفترض أن يكون الشاهد عليها خالداً كالقرآن، وليس آنياً مثل معاجز الأنبياء في باقي الرسالات، ويشهد لهذا المعنى تعدد نسبة الهداية للقرآن الكريم في عدّة آيات مثل ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّـذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[2]، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3]، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[4] وغيرها...

وهذا التفسير يوفّر الانسجام بين مقدّمة الآية وتكملتها، فإنّهم لما طلبوا الآية المعينة من الرسول ﷺ، توجّه الرد عليهم بأن الله ينزل مع كل رسول الآية التي تنسجم مع محيطه أو طبيعة رسالته. قال الزجاج: «طلبوا غير الآيات التي أتى بها فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى فأعلم الله أنّ لكل قوم هادياً»[5].

ومنها: ما حكاه الرازي عن ابن عباس: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «أنا المنذر» ثم أومأ إلى منكب علي عليه السلام، وقال: «أنت الهادي، يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي»[6]. وقريب منه ما رواه الحسكاني[7].

---

(١) سورة الإسراء: ٩.

(٢) سورة سبأ: ٦.

(٣) سورة الاحقاف: ٣٠.

(٤) سورة الجن: ١ـ٢.

(٥) مجمع البيان: ٥/ ٤٢٧.

(٦) التفسير الكبير: ١٠/ ١٤.

(٧) شواهد التنزيل: ٣٨١-٣٨٢.

وهذا قريب من الوجه السابق، ومرجعه ان الهادي هو الذي يربط الناس بالرسالة سواء كان الحجة الناطقة أم الصامتة كما قال ﷺ «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي».

ب ـ ان هذا التفسير مبني على تفسير (القوم) بالذين تجمعهم قومية واحدة بالمفهوم المعاصر، وهو بعيد عن المعنى اللغوي، قال الخليل: قومُ كلّ رجل شيعتهُ وعشيرتهُ، وقال في عشيرك: الذي يعاشرك، أمركما واحد.. وسميت عشيرة الرجل لمعاشرة بعضهم بعضاً[١].

والاستعمال القرآني الشائع للقوم جاء بهذا المعنى ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[٢]، ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٣]، ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤]، والمقابلة بين القوم الظالمين ونحوهم والقوم المؤمنين التي يؤكدها القرآن خير شاهد على هذا المعنى باعتبار أن الايمان يجمع المؤمنين والكفر والفسق يجمع الآخرين، مع أن من الطرفين مَن تجمعهم قومية واحدة، وعلى هذا فالقوم في الآية هم المسلمون المهتدون به من أي عرق أو قومية كانوا وفي كل العصور، فيكون (القوم) بمعنى الأُمّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٥].

ج ـ ان هذه الآية نزلت في المدينة ـ قيل بالإجماع ـ مما يؤكد أن (القوم) لا يقصد منه قريش أو أهل مكة بالخصوص، كما ان ارادة خصوص العرب ترفضه الشواهد التاريخية التي تؤكد ان الرسول ﷺ لم يكن يتعامل بهذا المنظار، فلم يكن يفرّق بين الروم وعرب الشام، ولا الفرس وعرب العراق، بحيث لم

---

(١) ترتيب كتاب العين: ٥٤٥، ٦٩٣.

(٢) سورة الصف: ٧.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٤) سورة المائدة: ١٠٨.

(٥) سورة الانبياء: ٩٢.

يفهم أحد آنذاك تميّز العرب بالدعوة، خاصةً أن المشاريع القومية لم تكن معروفة آنذاك، ولذلك أرسل النبي ﷺ رسائل الى الملوك غير العرب يدعوهم وشعوبهم فيها إلى الإسلام.

د ـ إنّ وجود العديد من الصحابة غير العرب مثل سلمان الفارسي وبلال وصهيب وغيرهم ينفي هذا التمييز، خاصةً سلمان الذي كان مسيحياً موحّداً، فلو لم يكن الإسلام ديناً أُمميّاً لم يكن هناك موجب لاعتناقه له.

«الدرس ٦»

٢) قوله تعالى: ﴿وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

وقريب منها في سورة الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[2].

وجه الشبهة ان هدف الوحي إلى الرسول كان إنذار أهل مكة ومن حولها ممّن هو قريب منها، ولا يشمل غيرهم.

والجواب عنها من وجوه..

أ ـ ان هذا يبتني على تفسير الحول بالقرب، مع أن القرآن استخدمه بغير ذلك ففي سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى﴾[3].

قال الطبرسي: «معناه: ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حولكم، وهم قوم

---

(١) سورة الأنعام: ٩٢.

(٢) سورة الشورى: ٧.

(٣) سورة الاحقاف: ٢٧.

هود وكانوا باليمن وقوم صالح بالحجر وقوم لوط على طريقهم إلى الشام»[١].
وكذا في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٢].

ب ـ الملحوظ في الآية أنّها لم تعبر (مكة وما حولها) وهذا يكشف عن أن المنظار منها ليس هو البقعة وما يحيط بها جغرافياً، بل في كلتا الآيتين جاء التعبير بـ ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ وكأنّه لتأكيد مركزية «مكة» بالنسبة للبقاع الاخرى بسبب وجود الكعبة والبيت الحرام فيها، والعرب تسمي كلّ أمر جامع يُجتَمع عليه (أماً). ولذا ورد عن ابن عباس أن سبب تسمية مكة بذلك أنّ الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها، وقال أبو بكر الأصم: (سمّيت بذلك لأنّها قبلة أهل الدنيا فصارت هي كالأصل وسائر البلاد و القرى تابعة لها)[٣].

فاختصاص هذا الاسم بمكة خير شاهد على عدم النظر إليها بما انّها بقعة معيّنة. بل المقصود منها المركز الذي يكون محوراً وقبلة لغيره، ويكون ما حولها هو باقي بقاع المعمورة.

ج ـ إنّ هذا التفسير يجعل الرسالة محدودة بحدود جغرافية ضيّقة، وهذا خلاف الضروري من سيرة الرسول ﷺ، والفهم العام آنذاك وتؤكده الشواهد الأخرى التي سوف نذكرها.

د ـ لو فرضنا ظهور الآيتين في البقعة الجغرافية فقد يكون من باب التأكيد، أو التدرج في الدعوة للاسلام باعتبار أنّهم كانوا المباشَرين آنذاك، ومن المعلوم ان القرآن ابتنى على ملاحظة المناسبات والتأكيد على ذكر الخصوصيات، نظير

---

(١) مجمع البيان: ٩/ ١٣٨.
(٢) سورة العنكبوت: ٦٧.
(٣) التفسير الكبير: ١٣/ ٨١.

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[١]، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾[٢] على التفسير القائل انّهم أهل مكة ـ مع أنّ سورة الجمعة مدنية ـ فلم يستنكر ذلك أحد من المسلمين ولم يراوده تساؤل عن اختصاص الرسالة بأهل مكة.

ومما يشهد بعدم ورود الآية الكريمة في مقام الحصر الحقيقي، قوله في آية سورة الشورى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾[٣] حيث لا إشكال في أن الهدف من إنزال القرآن ليس مجرد الإنذار ليوم الجمع، وإنما هو من ضمن الأهداف من إرسال الرسل.

هـ ـ إنّ قوله تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ...﴾ يشمل كل المنتسبين للأديان السماوية أو هو لا يلتئم مع اختصاص الرسالة بأهل مكة ومن حولها، خصوصاً مع ندرة وجودهم في هذه المنطقة.

الأمر الثاني: الأدلة والشواهد ـ القرآنية وغيرها ـ الدالة على أممية الإسلام. وهي كثيرة جداً، منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[٤]. ونظيرها ما في سورتي التوبة والصف.

٢ ـ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٥]. ونظيرها كثير من الآيات التي تخاطب أهل الكتاب.

٣ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾[٦] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً

(١) سورة الشعراء: ٢١٤.
(٢) سورة الجمعة: ٢.
(٣) سورة الشورى: ٧.
(٤) سورة الفتح: ٢٨.
(٥) سورة المائدة: ١٩.
(٦) سورة سبأ: ٢٨.

﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾[١] ونحوهما كثير من الآيات التي تؤكد شمولية الرسالة الاسلامية.

٤ ـ ﴿مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[٢] ونحوها مما دل على تبشير غير العرب برسالته ﷺ.

٥ ـ ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٣]. حيث دلّت على شمول رسالته لغير العرب، وان اليهود كانوا يترقّبون بعثته.

٦ ـ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[٤]. ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾[٥] ونحوهامن الآيات.

٧ ـ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾[٦] وكذا غيرها من آيات المحاججة وتحدّي أهل الكتاب، مثل آية المباهلة.

٨ ـ تعامل الرسول ﷺ مع أهل الكتاب ودعوته لهم باتباعه كما دعا المشركين إلى ذلك.

٩ ـ موقف أهل الكتاب من الرسول ﷺ وتوجّسهم من دعوته، لعلمهم بأنّه يستهدفهم في دعوته.

١٠ ـ إسلام العديد من الصحابة ممّن كانوا من أهل الكتاب ومن غير العرب كالنجاشي وبلال وسلمان وصهيب، وكذلك غيرهم من الأجيال اللاحقة.

١١ ـ رسائل الرسول ﷺ إلى ملوك فارس والروم والحبشة، ودعوتهم

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سورة الصف: ٦.

(٣) سورة البقرة: ٨٩.

(٤) سورة آل عمران: ١٩.

(٥) سورة الأنعام: ١٢٥.

(٦) سورة آل عمران: ٢٠.

للإيمان برسالة الإسلام.

١٢ ـ الإخبارات الغيبية للرسول صلى الله عليه وآله عن دخول شعوب غير عربية في الإسلام.

١٣ ـ موقف الأئمة عليهم السلام وعدم ردعهم عن الفتوحات ـ رغم التحفظات على الواقع القائم وبعض الممارسات خلال تلك الفتوحات ـ .

الخلاصة

١ ـ القرآن كتاب شامل وخالد وعالمي لا يقتصر على قومٍ أو شعبٍ معيّن، كما دلت على ذلك شواهد كثيرة.

٢ ـ إن شمولية القرآن لا تعني أنه فهرسة للعلوم، بل إن تطوّر العلوم لجهود البشرية على مرّ العصور.

٣ ـ بعض الآيات التي قد توهم اختصاص القرآن بأهل مكة وحتى حولها أو بالعرب قد تمت معالجتها وتوضيح المراد منها.

«الدرس ٧»

المبحث الخامس: إعجاز القرآن

عندما نتحدّث عن انتساب أثر أو كتاب لشخص نعتمد على الدلائل التي تشهد لهذا الانتساب، وكذلك القرآن الكريم نعتمد في نسبته لله تعالى على مجموعة من الأدلة والقرائن ـ وتعتبر أكثرها شواهد على إعجازه ـ نذكر منها:

١ ـ سمّو محتواه وانسجامه ورسالته مع صراط الله القويم المنسجم مع كماله المطلق، فعندما نراجع القرآن الكريم نجده يصب في هذا الاتجاه، فهو بين تمجيد وتوحيد لله تعالى واستعراض صفات كماله، ومنّه، ولطفه بعباده، وبين دعوة الناس بمختلف أساليب الترغيب والترهيب إلى صلاح أنفسهم ومجتمعاتهم، وبين رسم الخطوط التشريعية العريضة وأحياناً التفصيلية ـ لحكمة أو ظرف خاص ـ المنسجمة مع الفطرة والطبيعة البشرية لترشد سلوك الإنسان في مواجهة الظروف التي يواجهها خلال مسيرة حياته.

فكلّ إنسان لو تأمل وسرّحت مخيلته فتصوّر أنّ الله تعالى بعث رسولاً مرشداً للبشرية، فهل يتوقع من هذا المبعوث الإلهي مفهوماً أو ارشاداً أو مشروعاً يصطدم بتعاليم القرآن ويتنافى معه أو نلاحظ الانسجام الكامل بين المضمون القرآني ومشروع الهداية والإصلاح؟

جرّب هذا لو تفرغ أحدنا ـ في سبيل عقيدته ـ وتأمل مع نفسه قليلاً حول النهج القرآني، ألا يجده دليلاً كافياً على انتساب هذا الكتاب الكريم لله الحكيم العليم الرؤوف الرحيم؟ ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللهِ﴾[1]، هب انّ صياغة هذا الدليل قد لا تكون صياغةً جدلية تسكت الخصم المجادل،

(١) سورة يونس: ٣٧.

لكنّا في عقيدتنا لا نتقيّد بمعايير الجدال والمخاصمة ـ رغم أهميتها ـ فما أكثر الخيارات المصيرية التي نختارها اعتماداً على قناعاتنا الخاصة المدعومة بالوجدان أو الفطرة أو الحدس الدقيق.

٢ ـ قمة البلاغة باعتراف العرب المعاندين له رغم إبداعهم في هذا الجانب، وتأكيداً لصحة هذه الدلالة نلاحظ أنّ التحدي القرآني كان في مكة حيث كان المسلمون أقلية مضطهدة وكان هناك قلق كبير ينتاب كبار قريش من دعوة الرسول ﷺ، فلو كان بإمكانهم التحدي لواجهوا نداء القرآن ﴿**فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾[١]، و﴿**فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٢].

وكان لهذا الجانب دور بارز في التأثير على المجتمع المكي في بدايات القرآن الكريم، فقد روى المؤرخون أن النبي ﷺ لما أُنزل عليه ﴿**حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ**﴾[٣] قام إلى المسجد يقرؤها والوليد بن المغيرة قريب منه فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم، فقال: والله، لقد سمعتُ من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإن اعلاه لمثر [لمثمر] وإن اسفله لمُغدق وإنه ليعلو وما يعلى [عليه][٤].

وقد أشار الكتّاب والباحثون إلى جوانب متعددة في الفصاحة والبلاغة تميّز بها القرآن نشير إلى بعضها:

أ: الإيقاع الموسيقي المتميز المتعدد الأنواع والمتناسق مع الجو -كما عن

---

(١) سورة هود: ١٣.

(٢) سورة يونس: ٣٨.

(٣) سورة غافر: ١ ـ ٣.

(٤) انظر: مجمع البيان: ١٠ / ٨٥٤.

الموسيقار المعروف محمد حسن الشجاعي- أو الموسيقى الباطنية كما يقول الأستاذ مصطفى محمود.

ب) انّه بيان على قدر الحاجة، يقول ابن عطية: (لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد).

ج) انّه لا يخلق عن كثرة الرد وطول التكرار...، كما أشار إليه كلام الإمام علي عليه السلام.

د) الروحانية العالية فيه، هذه الروحانية التي تنفذ إلى عمق سريرة الإنسان وتهزّ وجدانه[1]، حتّى ان كثيراً من اسرى الحضارة المادية المعاصرة آمنوا بالاسلام تأثّراً بهذه الروحانية.

٣ ـ عدم تطور أسلوبه خلال (٢٣) عاماً، هي فترة نزوله، وهو أمر لا ينسجم مع طبيعة الإنسان التكاملية، ولذا نلاحظ الفارق الشاسع في المستوى الفني للشعراء والأدباء عندما نقارن بين بداية نتاجهم الأدبي ومرحلة تكاملهم، بينما لا نجد هذا التكامل في القرآن فلا نجد تطوراً في السور المدنية عن المكية من ناحية الأسلوب والفصاحة والبلاغة.

ويمكن أن نضيف إلى هذه النقطة أنّا لا نجد في القرآن تذبذباً في الأسلوب ولا ضعفاً في بعض سوره وآياته، مكيّة كانت أم مدنية، وهذا أيضاً مخالف للطبيعة البشرية المتأثرة بعوامل عديدة تنعكس على نتاجها، خاصة الحس الأدبي والبلاغي المرهف الذي يتأثر بأدنى سبب.

٤ ـ من المعروف أنّ سمات ودلائل النبوغ تظهر لدى الشخص في سني حياته الأولى وبدايات الشباب، فلو كان القرآن من إنشاء النبي صلى الله عليه وآله لظهرت عليه دلائل هذا النبوغ في بدايات حياته واهتم به قومه وتحدّث به العرب لاهتمامهم بهذه الظاهرة، خاصة ان سوق عكاظ كان في مكة مأوى الحجيج،

(١) انظر: تلخيص التمهيد: ٢ / ٢٦ ومابعدها.

ولاكتسب ﷺ مكانةً مرموقةً بين قومه وافتخر به أهله وعشيرته، وانهالت عليه الهدايا والعطاءات، خصوصاً مع ما عرف عن كفيله أبي طالب من الفقر والضيق المادّي.

ولعل الآية الكريمة تشير إلى ذلك بقولها: ﴿قُل لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1].

«الدرس ٨»

٥ ـ تنوع أساليب القرآن الكريم وبلوغه القمة في كل منها حيث نجد قمة البلاغة في السور ذوات الآيات القصار كما نجدها في ذوات الآيات الطوال، كذلك تشترك كل الآيات ـ بمضامينها المتنوعة ـ في الإبداع، سواء منها آيات الوعد والوعيد أم القصص أم التشريع أم مكارم الأخلاق أم العقائد وغيرها، بينما المعهود في الأدباء والبلغاء..

أولاً: أن يكون لإبداعهم مذاق واحد. فلكل شخص أسلوبه المتميز به، حتى إن النقّاد والباحثين يعتمدون على هذه النقطة في نسبة القصائد والنتاجات الأدبية لأصحابها الحقيقيين.

وثانياً: ان كلاّ منهم يحلّق في مساحة خاصّة، فقد قالوا في شعر امرىء القيس: «يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل»، وشعر النابغة «عند الخوف» وشعر الأعشى «عند الطلب ووصف الخمر»، وشعر زهير «عند الرغبة والرجاء»[2]، فكل شاعر يحسن كلامه في مجال فإنّه يضعف في غير ذلك، أمّا القرآن فإنّه بلغ الذروة بأساليبه المختلفة وفي مساحات شتّى. وهذا مما ينفي كونه إبداعاً بشرياً.

---

(١) سورة يونس: ١٦.

(٢) التفسير الكبير: ٢ / ١١٦.

٦ ـ عـدم الاختلاف والتناقض في المحتوى، وتظهر أهمية هذه النقطة مع ملاحظة ما يلي..

أ) تشعب المواضيع والعلوم التي يتعرّض لها، حيث يشتمل على منظومة من العقائد والحِكَم ومـكارم الأخلاق والقوانين، ويتضمّن القصص التاريخية وبعض الظواهر الكونية.. وغير ذلك.

ب) نزول كثير من الآيات أو أكثرها من دون تهيئة مسبقة، أو تبعاً لحدث طارئ أو سـفر أو حرب أو نحو ذلك مما لا يسـمح بالتمعّن ومراجعة النص السابق تجنّباً للوقوع في التناقض.

ج) تكرر الحديث عن نفس المواضيع التي سـبق التعرض لها في فترات زمنية متباعدة [1] مما يجعله معرضاً للاضطراب والتناقض ـ لو كان نتاجاً بشرياً ـ وعدم الاقتصار في الحديث عن الموضوع مرة واحدة.

د) صدوره من غير متعلم، إذ لم يعرف عن الرسول قبل البعثة ﷺ اهتمامه بالدراسـة والتعمق العلمي، فكيف يمكنه إبـداع القرآن وما تضمّنه من علوم وتعاليم وغيرهـا، فهو يتحدّث عـن السـماء والأرض والتوحيد والأخلاق والتشريع والتاريخ وغير ذلك، والى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾[2].

بعد ملاحظة هذه النقاط الأربع يتضـح الوجه في كون عدم الاختلاف والاضطـراب في القرآن دليـلاً على ارتباطه بالله تعالى ومـن أدلة إعجازه، كما أشـارت إليه الآية الكريمة: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً**﴾[3].

---

(١) يلاحـظ أن تدرّج نزول القرآن الكريم خلال عشرين عاماً أو أكثر يدفع شـبهة كون مصدره بشرياً من غير النبي ﷺ، مثل ما يدعيه البعض أن النبي ﷺ قد استقاه من أحد أهل الكتاب في مكة.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٨.

(٣) سورة النساء: ٨٢.

والبعض ممـــن لم ينتبه لهذه الخصوصيات الأربع لم يتفهم وجه كونه دليلاً عـــلى الإعجاز، قال محمد عبدالعظيم الزرقاني: «ويلاحظ كذلك أن الاشـــتمال على الحِكَم البالغة، وعدم الاختلاف والتناقض بين معانيه لا يصلح واحد منها أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، لأنّهما لا يخرجان عن حدود الطاقة بل كثيراً ما نجد كلام الناس مشتملاً على حِكَم وسليماً من التناقض والاختلاف»[1].

ومـــا أدري كيف يفهم الزرقاني معنى هـــذه الآية الصريحة في جعل عدم الاختـــلاف في القرآن دليلاً على أنّه من الله تعالى لا مـــن البشر؟ ويبدو أنّه أخذ عـــدم الاختلاف مجرداً عـــن الخصوصيات التي ذكرناها فلذلك لم يســـتوضح دلالته على الإعجاز.

ومن كلام للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغـــة: «وذكر أنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً، وأنّه لا اختلاف فيه فقال ســـبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾»[2].

---

(١) مناهل العرفان، ج: ٢ / ٤٤٣.

(٢) نهج البلاغة،الخطبة: ١٨/ ٦١ تحقيق صبحي الصالح.

«الدرس ٩»

٧ ـ إخباره بالمغيبات، ويتضح وجه دلالة هذا الشاهد على الإعجاز من خلال ملاحظة ما يلي:

أ) إنّ المتميّزين بالإخبار عن بعض الأمور الغيبية والعلوم الغريبة من الكهان ونحوهم كانوا بعدد الأصابع ومعروفين على مستوى الجزيرة العربية يراجعهم العرب ويحكّمونهم أحياناً في أمورهم، ولم يعرف عن النبي ﷺ انّه كان يرتاد أماكنهم ويختلط بهم، ولو كان قد استقى علومه الغيبية من أحد هؤلاء لفضحه هو ومن يختص بذلك الشخص.

خصوصاً انّهم كانوا بعيدين عن مكّة بحيث يُقصَدون بعناء، فليس من المعقول أن يرتاد على أحدهم شخص من أسرة معروفة متميّزة في مكة ويلازمه فترة طويلة من دون أن يعرف بذلك أحد حتى أقاربه وأهله، خاصةً أنّ الرسول ﷺ كان في كفالة عمه شيخ الأباطح أبي طالب الذي سببت دعوته له ولبني هاشم إحراجاً عظيماً، خسروا بسببها زعامتهم في قريش وعُزِلوا عن المجتمع المكّي وحوربوا على جميع الأصعدة، فلو كانوا قد اكتشفوا دجلاً منه من خلال ارتباطه بالكُهّان ونحوهم لنبذوه ولم يتحملوا المحنة العصيبة بسببه.

وقد تنبّه الكاتب الإنجليزي (هـ. ج. ويلز) لذلك حيث قال: «إنّ من أرفع الأدلة على صدق محمد كون أهله وأقرب الناس إليه يؤمنون به، فقد كانوا مطلعين على أسراره، ولو شكوا في صدقه لما آمنوا به».

ب) إنّ النبي ﷺ لم يحتجّ بتحقق إخباراته الغيبية لاثبات صدق دعواه الرسالة الالهية، فلم تجرّ إليه نفعاً ولم تدعم سلطانه حين تحققها، بل ان بعضها تحقق بعد وفاته ﷺ، مما يكشف يقيناً ان الإخبار بها لم يكن لمطامع دنيوية ـ

كـــما يفعل الكهنة والمرتبطون بعالم الجن ونحوهـــم ـ مثل إخباره بغلبة الروم في المستقبل ـ في بضع سنين ـ واقتران ذلك بغلبة المسلمين ونصرهم، الأمر الذي لم يكن يخطر في بال أحد آنذاك، قال ســبحانه وتعالى: ﴿**الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1]، فترى لسان الآية لسان الواثق المتيقّن الذي لا يقبل أي شك أو ترديد.

وبالفعل تحققت هذه النبوءات الثلاث.. وهي:

١ ـ غلبة الروم وانتصارهم على الفرس.

٢ ـ إن هذه الغلبة كانت في أقل من عشر ســنين طبقاً للتأريخ المحدّد في الآية ﴿**فِي بِضْعِ سِنِينَ**﴾.

٣ ـ أنهــا اقترنت بفرح المؤمنين بنصر الله في بــدر الكبرى ـ ولم يُعَرف ان الرسول ﷺ استثمر ذلك في مخاصمة المشركين وتقوية حجّته.

ومن آيات الغيــب هذه قوله تعــالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَــكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّــاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِــي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّــجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُــرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَــمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِــيراً**﴾[2]، حيث روى جمع مــن المؤرخين والمفسريــن ـ مــن الفريقين ـ نزول هــذه الآية المكيــة في بني أميــة[3]، حيــث رأى النبــي ﷺ أولاد الحكم بــن العاص ينــزون على منبره

---

(١) سورة الروم: ١ ـ ٦.

(٢) سورة الإسراء: ٦٠.

(٣) حكاه في الدر المنثور: ٤/ ١٩١، عن ابن جرير عن ســهل بن ســعد، وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن ابن عمر، وأيضاً عن ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة، وأيضاً عن ابن مردويه عن الحسين بن علي، وأيضاً عن البيهقي في دلائل النبوة، وابن عســاكر عن سعيد بن المسيب، وعن آخرين. ان المقصود من الشجرة الملعونة هم بنو أمية.

فاغتـمّ لذلك فنزلـت الآية الكريمـة في مكة، فصدّقها الزمـن بعد حين، مع أن سـيطرة الأمويين عـلى الحكم لم تكـن متوقفة حين نزول الآيـة الكريمة.

أترى مثل هذه الإخبارات الغيبية تتناسـب مع إخبـارات الكهنة ومن شابههم؟!

وهناك العديد من إخبارات الرسـول ﷺ ـ غير القرآنية ـ كانت من هذا القبيل حيث لم يسـتثمرها وإنّما شهد الزمن بصدقها فيما بعد، كإخباره بأنّ عماراً تقتله الفئة الباغية وانّ آخر شرابه ضياح من لبن، وكان هذا الحديث من الحقائق الثابتة تاريخياً حيث بلغ حداً من الانتشـار بين المسـلمين بحيث أحرج معاوية عند مقتل عمّار واضطرب جيش أهل الشـام وكاد الأمر ينقلب عليه لولا حيلة صاحبه عمرو بن العاص حينما خدع رعاة أهل الشام بقوله: «إنما قتل عمّاراً من جاء به» محمّلاً الإمام علياً عليه السلام مسؤولية مقتله[1].

عوداً على الموضوع نقـول: بملاحظة هاتين النقطتين يتضح كيف تكون تلك الإخبارات الغيبية شاهدة على إعجاز القرآن وارتباطه بالله تعالى.

٨ـ اشتمال القرآن الكريم على أسماء وحوادث قديمة لم يتعرف عليها المجتمع المكي آنذاك، وبعضها لم تتعرض له كتب الديانات السابقة مثل قضية هود و صالح وبلقيس وسد مأرب ونحو ذلك، بل حتى بعض ما تحدثت عنه المصادر الأخرى تناولها القرآن بدقة ومعقولية، وبعضها أكدتهـا البحوث والتحريات الحديثة.

وقد ذكر المؤرخون تعاطف النصراني (عداس) غلام صفوان بن أمية وتأثره بلنبي محمد ﷺ عندما أخبره ﷺ عن النبي يونس بن متى عليه السلام ومسـقط رأسه نينوى، حيث فوجيء عداس بهذه المعلومات اليسيرة من عربي يعيش في مكة[2]، فكيف بالعدد الهائل من المعلومات التي تضمنها القرآن الكريم بمجموع آياته؟!

---

(١) انظر: تأريخ الامم والملوك للطبري: ٣/ ٢٧ و ٢٩، وغيره.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ: ٢ / ٩٢ .

«الدرس ١٠»

٩ ـ اشـــتماله على منظومة عقائدية دقيقة ومنسجمة مع العقل والبرهان، خاصةً مسألة التوحيد وبحوثها التي هي أهم قضية عقائدية شغلت فكر الإنسان واهتمامه، فقد طرحها الإسلام من خلال القرآن والسنّة بشكل دقيق سليم من كل إشكال وتهافت حتى انبهر بها العلماء في العصور المختلفة بهذا الطرح القرآني الدقيق، مع أن ذلك مما لا تستوعبه العقول والأذهان العادية للبشر، ولذلك نجد أن عدم استيعاب هذه الفكرة كانت مشكلة البشرية ومازالت، بمن فيهم اتباع الأديان السماوية التي حملت نفس الفكرة حيث ضلّوا عنها بعد رحيل أنبيائهم، وسيطرت عليهم أفكار منحرفة، مثل فكرة الشريك وفكرة التجسيم وغير ذلك.

فكيف يتصور أنّ إنساناً يعيش في تلك العصور المظلمة وفي ذلك المجتمع الجاهـــلي المتوحش يتعامل بهذه الدقة مع هذه القضية الحساســـة التي شـــغلت الفلاســـفة والعلماء في كل عصر، فترى القرآن الكريم تحدّث كثيراً عن موضوع التوحيد وصفات الباري سبحانه بدقة متناهية من دون أن يحيد عن الحقيقة.

١٠ ـ التشريع الشامل لمختلف جوانب الحياة، وشؤون الأفراد والمجتمع من الطقوس العبادية، والتشريعات في مجال العلاقات العامة والخاصّة، وتهذيب النفس، وغير ذلك، حيث لا يعقل أن يبتكر كلَّ ذلك شـــخص قبل أربعة عشر قرناً ينتمي إلى مجتمع يتجذر التخلف في أعماقه.

وقـــد تنبّه الكثير من الباحثين الغربيين وغيرهـــم إلى هذه النقطة بالذات فصارت من أهم ما يجذب المثقفين للإسلام في هذا العصر.

وتبقى على العلماء مسؤولية التمعن في مصادر التشريع الإسلامي لإبراز هذا الجانب المشرق من الإسلام، وطرح الحلول السليمة الكفيلة بحلّ المشاكل

المعقّدة التي تواجهها المجتمعات، مـن خلال فهم دقيق وواع لمصادر التشريع وحدوده، وعرض ذلك في اطروحة وصياغة قانونية حديثة.

١١ ـ وهناك شواهد أخرى على ارتباط القرآن بالله تعالى نذكر منها..

أ) مجموعـة آيـات العتاب التـي يلوح مـن بعضها الشـدة التي كان الرسـول ﷺ في غنى عنها ـ لو كانت من إنشائه ـ علماً أنّه ﷺ لم يستثمره لإثبات صحـة دعواه حتى تفسّر عـلى أنّها مقصودة له، نخص بالذكـر الآيات المدنية المذكـورة التي نزلت في أوج قـوة النبي ﷺ حيث لم يكـن في حاجة لمثل هذه الأساليب لتدعيم سلطته.

ب) اختلاف مضمون القرآن وطبيعة سلوك النبي ﷺ المختلفين تماماً عن مضمون كلام أصحاب العلوم الغريبة وسلوكهم.

ج) ما عُرف عنه ﷺ مـن أنّه الصادق الأمين قبل دعوته، ولذلك صدّقه أقاربه والمحيطون به وتحمّلوا الشدائد في سبيل ذلك.

د) بعـض المواقف الحازمة التي تكشـف عن الارتباط بـالله تعالى مثل موضوع قبلة المسـلمين وتبدلها من بيت المقـدس إلى الكعبة، ففي مكة وبداية الدعوة حيث كان يفترض ـ من منظور مصلحي ـ جذب القرشيين إلى الإسلام جُعلـت القبلة إلى بيت المقدس مما أثار غيظ المكيين حيث طعنهم في أقدس رمز عندهم، والذي كان أهم مصدر لوضعهم المعنوي والمادي المتميّز، بالإضافة إلى أنّه كان خلاف رغبته ﷺ ـ كما دلّت عليه الآية الكريمة فيما بعد ـ.

وفي المدينـة حيث كان يفترض ـ كذلك ـ جـذب أهل الكتاب وضرب مصالـح أهل مكة أُرجعت القبلة إلى الكعبة ممّا يكشـف عـن أنّ أمر التشريع المذكور لا يخضع للرغبة البشرية، وإنما هو تابع للإرادة الإلهية رعايةً لمصالح لا يعرفها غيره تعالى.

هـ) كشـف العديد من الآيات القرآنية عن حقائـق علمية أثبتها العلم

الحديث، وهو ما يعبّر عنه بالاعجاز العلمي[١]. ونؤكد هنا على أهمية الاعتدال والموضوعية وعدم تحميل الآيات القرآنيـة خلاف ظاهرها لمجرد تطبيقها على مقولـة أو نظرية علمية حديثـة . لأن القرآن كتاب هداية وليـس كتاباً جامعاً للنظريات العلمية التي هي شؤون بشرية.

١٢ ـ ونضيف إلى الدلائل على صحة انتسـاب القرآن والرسـالة الغراء لله سـبحانه موقف الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام الصلب وتفانيهم في سبيل هذا الدين العظيم مع علمه صلى الله عليه وآله بمصير أهل بيته المفجع ـ كما دلّت عليه نصوص كثيرة ذكرها أيضاً من لم يكن من اتباع أهل البيت عليهم السلام[٢] ـ فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وآله مرسلاً ومرتبطاً بالله لم يكن إقدامه على ما سيؤول إلى مقتل أسرته وذرّيته معقولاً.

ولا يحتمل في حقّه صلى الله عليه وآله أن يكون على وهم وقناعة خاطئة، لأنّه صلى الله عليه وآله لم يكن يعتمد على النظريات المجـرّدة القابلة للخطأ، بل يعتمد على مشـاهدة الواقع العيني. وامتداداً موقفه صلى الله عليه وآله مواقـف أهل بيته عليهم السلام ـ خاصةً الإمام علي عليه السلام ـ واستقامتهم ومعاناتهم في سبيل الرسالة الإسلامية حيث بذلوا كل غال ونفيس.

---

(١) يُراجع ماكتبه بعض المتخصصين في المجالات العلمية والباحثين المعنيين مثل الدكتور موريس بوكاي ومصطفى محمود، وغيرهما.

(٢) الأمـالي للشـيخ الطـوسي: ٣١٥، مناقب آل أبي طالـب ٣: ٢١٣، وكذلك تأريخ دمشـق: ١٤/ ٢٠٩، وتهذيب الكمال: ٦/ ٤١٨.

الخلاصة

١ ـ توجد العديد من الأدلة والشواهد على إعجاز القرآن وأنه كتاب إلهي أهمها تسعة شواهد موضحة آنفاً.

٢ ـ تختلف وجـوه الإعجاز فبعضها بلاغية، وبعضهـا يرتبط بمحتواه، وبعضها يرتبط بظروف نزوله.

«الدرس ١١»

المبحث السادس : سلامة القرآن من التحريف

وهذا من أهم ما اهتم به الباحثون في علوم القرآن.

وقبل البحث في ذلك لابـّد أن نمرّ على معاني التحريف الأربعة وتحديد الموقف من كل واحد منها..

المعنى الأول: التحريف في تفسير القرآن الكريم، بمعنى حمل الآيات الكريمة على غير معناها الحقيقي، كما يفعل الظالمون وأعوانهم، وأهل البدع والمنحرفون حيث يفسّرون الآيـات القرآنية بغير معانيها تبعاً لأهوائهم أو آرائهم المنحرفة.

قـال ابن منظور: والتحريف في القرآن والكلمة : تغيير الحرف عن معناه والكلمـة عن معناها وهي قريبة الشـبه ، كما كانت اليهـود تغيّر معاني التوراة بالأشباه، فوصفهم الله بفعلهم، فقال تعالى : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[1]

وهـذا المعنى من التحريف لا يشـك أحد من المسـلمين في تحققه قديماً وحديثـاً، وقد ورد ذمّ هؤلاء المحرّفين والتحذير منهم، قال الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «الى الله أشـكو من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سـلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته ولا سـلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرّف عن مواضعه..»[2]، وقال عليه السلام في وصف أهالي بعض الأزمنة المسـتقبلة: «وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق (أي أروج) منه اذا حُرّف عن مواضعه...»[3].

---

(١) لسان العرب) ٩ / ٤٣ .

(٢) تصنيف نهج البلاغة: ٢٠٧ ، الطبعة الثانية.

(٣) المصدر: ٢٠٩.

وفي رسالة الإمام محمد الباقر عليه السلام إلى سعد الخير: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده فهم يروونه ولا يرعونه» [١].

المعنى الثاني: استبدال بعض الكلمات القرآنية بغيرها، بمعنى أنّ بعض الكلمات الموجودة في المصحف الفعلي قد وُضعت بدلاً عن كلمات أُخرى في القرآن النازل على الرسول صلى الله عليه وآله.

ورغم ورود بعض النصوص التي تضمنت ادعاء الاستبدال المزعوم إلاّ ان المسلمين لم يلتزموا بمضمونها، وسنشير هنا إلى بعض النصوص المذكورة..

١ ـ ما حكاه البخاري وغيره عن عمر أنه كان يقرأ سورة الجمعة (فامضوا إلى ذكرالله) بدلاً من ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٢] وأنه كان يعتبر الثانية منسوخة ـ كما سيأتي ـ .

٢ ـ روى أبو جعفر الطبري والحاكم النيسابوري ـ وصححه ـ عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾»[٣]: هي من خطأ الكاتب، وإنما هي (حتى تستأذنوا وتسلّموا)[٤].

المعنى الثالث: ادعاء الزيادة في القرآن الموجود.

وقد اتفق شيعة أهل البيت عليهم السلام على رفض التحريف المذكور، وأمّا علماء الجمهور فرغم ادعائهم الإجماع على رفضه أيضاً، إلاّ ان مراجعة آرائهم وما نسبوه لبعض الصحابة ينافي ذلك.

فمن ذلك البسملة فإنها رغم ثبوتها وكتابتها ـ في فواتح السور ـ ووجود

---

(١) اصول الكافي: ٢ / ٦٣١ ، حديث ١٦ .

(٢) انظر: الجامع الصحيح : ٤ / ٣٠٨.

(٣) سورة النور: ٢٧.

(٤) جامع البيان: ١٨/ ٨٧

العديد من الروايات على كونها من القرآن منها، ما أخرجه ابن خزيمة والبيهقي في (المعرفة) بسند صحيح عن طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: «استرق الشيطان من الناس أعظم آية من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم)»[١] إلاّ انهم مع ذلك اختلفوا في كونها من القرآن الكريم أو انّها زائدة فيه، وفصّل بعضهم بين بسملة سورة الفاتحة وغيرها، فزعم أنها جزء من الفاتحة دون غيرها، وقد منع مالك من قراءتها في الصلاة في الفاتحة وغيرها[٢].

ومنها: ما نسبوه لابن مسعود من أنّه أسقط سورة الفاتحة من مصحفه[٣]. وأنّه كان لا يرى المعوّذتين من ضمن القرآن الكريم وأنه كان يقول: «لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه، انهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي أن يتعوّذ بهما، وانّه كان لا يقرأ بهما في صلاته»[٤].

وحكى ابن حجر أن الرازي وابن حزم أنكرا صحة هذه النسبة إلى ابن مسعود، لكنه أصرّ عليها قائلاً: «والطعن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يُقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل»[٥].

وقال الدكتور محمد حسين الصغير ـ متحدثاً عن رواية اسقاط سورة الفاتحة ـ : «ويبدو لي ان الرواية مكذوبة على ابن مسعود جملة وتفصيلاً، للايهام ـ بدافع سياسي ـ بأن عدم اشراكه عند جمع المصحف ـ كما يدعى ـ كان لهذا وأمثاله»[٦].

المعنى الرابع: ادعاء نقصان المصحف الموجود عن القرآن النازل على الرسول ﷺ.

---

(١) الاتقان في علوم القرآن: ١/ ١٥٧.

(٢) انظر: بداية المجتهد: ١/ ١٢٦.

(٣) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ١ / ٢٢٤.

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٨ / ٥٧١، والدر المنثور: ٦ / ٤١٦.

(٥) فتح الباري: ٨ / ٥٧١.

(٦) دراسات قرآنية: ١٦٠، الطبعة الثانية.

والمشهور بين المسلمين انكار التحريف بهذا المعنى. ولكن قد تثار شبهات، تبعاً لمجاميع النصوص التي قد توهم وقوع التحريف، وهو ما سنعالجه هنا..

«الدرس ١٢»

الشبهة الأولى

مجموعة كبيرة من النصوص التي رواها علماء الجمهور ومحدّثوهم، نذكر منها:

١) ما رواه البخاري وغيره عن عمر بن الخطاب انّه قال.. «ان الله بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل آية الرجم فعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلّوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق وعلى من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء.. ثم إنّا كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لاترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ أو إنّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ـ ...»[١].

٢) ما رووه عن عائشة أنّها قالت: «كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات يحرّمن، ثم نسخن بخمس معلومات يحرّمن، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»[٢].

وقد رووا عن عائشة قولها: «لقد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل داجن

(١) الجامع الصحيح: ٤ / ٢٥٨ حديث ٦٨٣٠. ورواه غيره أيضاً.
(٢) المحلى: ١١ / ٩٢ مسألة ١٨٧٢.

فأتلفها»[١].

٣) ما رووه عن عبدالله بن عمر أنّه قال: «لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله، ما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قــرآن كثير، ولكن ليقل: قد أخذت منه ما ظهر»[٢].

٤) ما رواه الطبراني عن عمر بن الخطاب: «القرآن ألف ألف حرف فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين»[٣].

وهذا يعني ضياع أكثر من ثلثي القرآن ـ كما قيل ـ .

٥) ما رووه عن أبي بن كعب أن رســول الله ﷺ قال له: إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك، فقرأ عليه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾[٤] فقرأ فيها: إن ذات الدين عند الله الحنيفية المســلمة لا اليهوديــة ولا النصرانية، من يعمل خيراً فلن يكفر هو. وقرأ عليه: ولو أنّ لابن آدم وادياً من مال لابتغى إليها ثانياً، ولو كان له ثانياً لابتغى إليــه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب[٥].

٦) قراءة أبي بن كعب : « ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[٦] من نفسي فكيف أظهركم عليها»[٧].

---

(١) المحلى: ١٣ / ٩٧ مسألة ٢٢٠٨.

(٢) الإتقان: ٣/ ٧٢.

(٣) الاتقان في علوم القرآن: ١ / ٢٤٢ مطبعة أمير.

(٤) سورة البيّنة : ١ .

(٥) صحيــح الترمذي: ٥/ ٦٦٦. المناقب حديث: ٣٨٠٣. انظر: صحيح مســلم بشرح النووي: ٧/ ١٤٠ كتاب الزكاة. حيث روى قريباً من ذلك عن أبي موســى الأشــعري. بينما روى البخاري مضمــون النصف الثاني مــن النص عن النبي ﷺ من دون أن يذكر انه من القرآن، وهو يشــهد بما سنذكره من اضطراب هذه الروايات ورفضها.

(٦) سورة طه: ١٥.

(٧) انظر: هامش تلخيص التمهيد نقلاً عن ابن خالويه : ١ / ٣٠١.

وهناك نصـــوص أخرى في هذا البـــاب امتلأت بها صحـــاح الجمهور وكتبهم.

ورغم محاولة الكثـــير منهم تأويلها بأنّها من باب نســـخ التلاوة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله إلاّ انّ العديد من هذه النصوص لا تتحمل هذا التأويل لظهورها، بل التصريح في بعضها بانّ هذه الآيات المزعومة كانت ضمن القرآن إلى ما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله.

ويكفي في الجواب عن هذه الروايـــات ورفضها افتقار الآيات المزعومة للحد الأدنى من المســـتوى الفني والبلاغي المألوف في كلام البلغاء وأسلوبهم، فضلاً عن أن ترتقي إلى روعة القرآن الكريم ومكانته السامية التي حيّرت البلغاء وأهل الفصاحة على مرّ العصور، حتى قال عنه الوليد بن المغيرة المخزومي: «ما هـــذا من كلام الإنس ولا من كلام الجن، والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه»[1].

وهذا يشـــهد بأنّ هذه الروايات ـ رغم ورودهـــا في صحاح الجمهور ـ من عبث الرواة أو دســـائس المحرّفين والطغاة. وانّ عجزهم عن مجاراة القرآن الكريم مضموناً وأسلوباً خير شـــاهد على تميزه واعجازه ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَـــلى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُـــونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[2].

وقد تنبّه بعض المحققين منهم، فرفض هـــذه النصوص جملةً وتفصيلاً، معترفاً بعدم جدوى تأويلها بنســـخ القرآن مثل السرخسي ـ بالنســـبة لبعض ما ادعي كونه من نسخ الحكم والتلاوة ـ والجزيري والسايس والعريض.

قال السرخسي: لا يجوز هذا النوع من النســـخ ـ نســـخ الحكم والتلاوة ـ

(١) تفسير القرطبي: ١٠ / ١٦٥، تفسير ابن كثير: ٤ / ٤٧٢.

(٢) سورة الاسراء: ٨٨.

عند المسلمين، وقال بعض الملحدين ممّن يتستر بإظهار الإسلام ـ وهو قاصد إلى افساده ـ هذا جائز بعد وفاته ﷺ أيضاً واستدلّ في ذلك بما روي أن أبا بكر الصديق كان يقرأ «لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم» وأنس كان يقول: قرأنا في القرآن «بلغوا عنّا قومنا انّا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا» وقال عمر: قرأنا آية الرجم في كتاب الله ووعيناها. وقال أبي بن كعب: «إنّ سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة أو أطول منها».. والشافعي لا يُظن به موافقة هؤلاء في هذا القول، ولكنه استدلّ بما هو قريب من هذا في عدد الرضعات، فانّه صحّح ما يروى عن عائشة: وإنّ مما أنزل في القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن»، فنُسخن بـ«خمس رضعات معلومات»، وكان ذلك مما يتلى في القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قال: والدليل على بطلان هذا القول قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].. وقد ثبت انه لا ناسخ لهذه الشريعة بوحي ينزل بعد وفاة رسول الله ﷺ ولو جوّزنا هذا في بعض ما أوحي إليه لوجب القول بتجويز ذلك في جميعه، فيؤدي إلى القول بأن لا يبقى شيء مما ثبت بالوحي بين الناس في حال بقاء التكليف. وأي قول أقبح من هذا؟![2].

وقال الجزيري.. فمن المشكل الواضح ما يذكره المحدّثون من روايات الآحاد المشتملة على أنّ آية كذا كانت قرآناً ونسخت، على أنّ مثل هذه الروايات قد مهّدت لأعداء الإسلام ادخال ما يوجب الشك في كتاب الله من الروايات الفاسدة، فهذه وامثاله من الروايات التي فيها الحكم على القرآن المتواتر بأخبار الآحاد ـ فضلاً عن كونه ضاراً بالدين ـ فيه تناقض ظاهر[3].

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) أصول السرخسي: ٢ / ٧٨ ـ ٧٩.

(٣) الفقه على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

«الدرس ١٣»

الشبهة الثانية

مجموعة من الروايات المروية عن بعض الصحابة أو ائمة أهل البيت عليهم السلام التي توحي بوقوع التحريف، وهي مختلفة في دلالاتها، لذلك نذكرها بأقسامها:

القسم الأول: الروايات التي تستخدم لفظة التحريف، وهي عشرون رواية [١]، منها:

١ ـ ما عن علي بن إبراهيم القمي، بإسناده عن أبي ذر قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾[٢] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ترد أمتي عليّ يوم القيامة على خمس رايات ـ ثم ذكر ان رسول الله صلى الله عليه وآله يسأل الرايات عمّا فعلوا بالثقلين ـ فتقول الراية الأولى: أما الأكبر فحرّفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأمّا الأصغر فعادیناه وابغضناه وظلمناه. وتقول الراية الثانية: أمّا الأكبر فحرّفناه ومزّقناه وخالفناه، وأمّا الأصغر فعادیناه وقاتلناه.

٢ ـ ما عن ابن طاووس والسيد المحدّث الجزائري بإسنادهما عن الحسن بن الساهري في حديث طويل ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال لحذيفة ـ فيما قاله في من يهتك الحرم ـ : «انّه يضلّ الناس عن سبيل الله ويحرّف كتابه، ويغيّر سنّتي».

٣ ـ ما عن سعد بن عبدالله القمي، بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «أيها الناس انّي تارك فيكم الثقلين، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وعترتي، والكعبة البيت الحرام» ثم قال

---

(١) انظر: البيان: ٢٤٢.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٦.

أبو جعفر عليه السلام: أمّا الكتاب فحرّفوا، وأمّا الكعبة فهدموا، واما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا منها قد تبروا».

٤ ـ ما عن الصدوق في الخصال بإسناده عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: يجيء يوم القيامة ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجلّ: المصحف، والمسجد، والعترة، يقول المصحف يا ربّ حرّقوني ومزقوني، ويقول المسجد يا رب عطلوني وضيّعوني، وتقول العترة يا رب قتلونا وطردونا وشرّدونا.

٥ ـ ما عن الكافي والصدوق بإسنادهما عن علي بن سويد قال كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتاباً... إلى أن ذكر جوابه عليه السلام بتمامه، وفيه قوله عليه السلام: أؤتمنوا على كتاب الله فحرّفوه وبدّلوه.

٦ ـ ما عن ابن شهرآشوب بإسناده عن عبدالله في خطبة الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء وفيها: إنّما أنتم من طواغيت الأمّة وشذّاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ونفثة الشيطان وعصبة الآثام، ومحرّفي الكتاب.

٧ ـ ما عن الحجال عن قطبة بن ميمون عن عبدالأعلى، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: أصحاب العربية يحرّفون كلام الله عزّوجل عن مواضعه.

ويمكن المناقشة في الاستدلال بهذه الروايات على التحريف فنقول: أمّا الرواية الأخيرة فهي تشير إلى بعض علماء العربية الذين كانوا يتلاعبون بالنصوص القرآنية على أساس اجتهاداتهم في علوم العربية، وتشير روايات الجمهور إلى وجود هذه الفكرة لدى البعض، وربّما انتشارها، وفي بعض نصوصهم نسبتها إلى عدد من الصحابة والتابعين..

منها: ما أخرجه الطبري في التفسير عن ابن عباس انّه كان يقرأ (أفلم يتبيّن الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً).

قيل له: انّه في المصحف ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ قال: أظنّ الكاتب كتبها وهو ناعس، وقال ابن جريح: زعم ابن كثير وغيره انّها في القراءة الأولى «أفلم

يتبـــيّن»[١] قال ابن حجر هذا الحديث رواه الطبري بإســـناد صحيح، كلهم من رجال البخاري»[٢].

ومنها: ما زعمه عروة بن الزبير بشأن اللحن في الآيات الثلاث التالية:

١ ـ في سورة طه: ٦٣: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾.

٢ ـ في سورة المائدة: ٦٩: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ﴾.

٣ ـ في سورة النساء: ١٦٢: ﴿لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾.

قال: سألت عائشة عن ذلك فقالت: يا بن اختي، هذا عمل الكتّاب أخطأوا في الكتابة، قال جلال الدين الســيوطي: إسناد صحيح على شرط الشيخين[٣].

وعــن أبي خالد قــال قيل لأبان بن عثــمان كيف صــارت ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّــلَاةَ﴾ وما بين يديها وما خلفها رفع؟ قال: من قِبَل الكاتب، كتب ما قبلها، ثم سأل المملي: ما اكتب قال: اكتب المقيمين الصلاة، فكتب ما قيل له[٤].

وهناك روايات عديدة تؤكد أن بعــض علماء العربية كان يطبق اجتهاده على القرآن ، ومن الواضح أن هذا سلوك غير سليم يؤدي إلى التحريف وتغيير النص القرآني اعتماداً على رأي شخصي لا يستند الى حجة معتبرة.

---

(١) جامع البيان: ١٣ / ١٠٤.

(٢) فتح الباري: ٨ / ٢٨٢.

(٣) الاتقان: ١ / ١٨٢، الطبعة الاولى.

(٤) المصاحف للسجستاني: ٣٣.

«الدرس ١٤»

وأمـــا باقي النصوص المتقدمة التي قد يســـتدلّ بها عـــلى تحريف القرآن فنقول: ليســـت تلك النصوص واضحة الدلالة على ذلك، بل في بعضها دلالة واضحة على ان المراد من التحريف حمل الآيات على غير معانيها، خصوصاً أنّه معنىً شائع للتحريف، كما ذكره بعض اللغويين، قال ابن منظور : «والتحريف في القـــرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه، والكلمـــة عن معناها وهي قريبة الشبه، كما كانت اليهود تغيّر معاني التوراة بالأشباه»[١].

وقد أخذ هذا عن كتاب العين للخليل، حيث لم يذكر غيره[٢].

ومما يشهد على انســـجام ما في هذه النصوص مع التحريف في المعنى أي حمل الآيات على غير معناها أمران:

الأول: ان هذه الروايات واردة لبيان انحراف بعض الفئات عن مســـير الحق الذي رســـمه الله ســـبحانه، لذلك اعتُبر في الحديث الثاني وصفاً لمن يهتك الحرَم. فينطبق على حرف اللفظ عن معناه، المنســـجم مع إضلال الناس وتغيير الســـنّة الواردين في الحديث المذكور، دون التغيـــير في اللفظ الذي لا يؤثر على المعنى الأساس.

الثاني: ان تحريف الكتاب مقرون في هذه النصوص بالمعاصي التي تنسجم مع الانحراف، مثل معاداة أهل البيت عليهم السلام وقتالهم، وإضلال الناس عن سبيل الله، وتغيير السنّة، وغير ذلك مما أشارت إليه النصوص، دون المعاصي المجرّدة التي لا ترتبط بذلك مثل الفحش في القول وأكل الميتة ونحو ذلك، وهو شاهد

(١) لسان العرب: ٩ / ٤٣، دار صادر.

(٢) انظر: ترتيب كتاب العين: ١٧٣ مادة حرف.

على أن المقصود من التحريف هو ما يرجع للمعنى الموجب للانحراف، لا مجرد تغيير اللفظ مع بقاء المعنى، كما تضمنته بعض روايات التحريف.

وقد أشارت بعض النصوص صراحةً إلى ما ذكرناه من معنى التحريف، وأنّ هؤلاء المنحرفين لم يحرّفوا اللفظ القرآني، مثل ما رواه الكليني بإسناده عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه كتب في رسالة إلى سعد الخير: «وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية»[1].

القسم الثاني: مجموعة الروايات التي دلّت على أن بعض الآيات القرآنية قد ذُكرت فيها أسماء الأئمة عليهم السلام ..[2].

منها: رواية الكليني[3] بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام، قال: «ولاية علي بن أبي طالب مكتوب في جميع صحف الأنبياء ولن يبعث الله رسولاً إلاّ بنبوة محمد وولاية وصيه، صلى الله عليهما وآلهما».

ومنها: رواية العياشي بإسناده عن الصادق عليه السلام: «لو قرئ القرآن كما أنزل لأُلفينا مسمّين».

ومنها: رواية الكليني والعياشي عن أبي جعفر عليه السلام عن ابن عباس، وفرات بن إبراهيم الكوفي عن الأصبغ بن نباتة:

قالوا: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «القرآن نزل على أربعة أرباع، ربع فينا، وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام، ولنا كرائم القرآن».

---

(١) روضة الكافي: ٨ / ٥٣ حديث ١٦.

(٢) هذه أهم الروايات التي استغلّها المرجفون والمتعصبون لتمزيق وحدة الصف الاسلامي وتشويه مذهب أهل البيت عليهم السلام سوف يتضح الموقف السليم فيها والفهم الصحيح لها، كما سنشير إلى مجموعة من النصوص المشابهة لها المروية عن بعض الخلفاء والصحابة والتابعين.

(٣) إن مجرد وجود روايات معيّنة في المصادر الحديثية الشيعية لا يعني التزام مؤلفيها بمضمونها، لأن مفهوم «الكتاب الحديثي الصحيح» غير موجود في الثقافة العلمية الشيعية، خاصة مع وجود ما يعارض تلك الروايات في نفس الكتاب، كما سنشير إليه خلال هذا البحث.

ومنهـا: رواية الكليني أيضاً بإسـناده عن أبي جعفـر عليه السلام، قال: «نزل جبرئيل بهذه الآية على محمد صلى الله عليه وآله هكذا: وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا ـ في علي ـ فأتوا بسورة من مثله».

ومن ذلك ما روي من اضافة لفظ «في علي» في آية البلاغ من سورة المائدة ويمكن المناقشة في دلالة هذا القسم على التحريف بوجوه.

الأول: ان الزيادة في النص الأخير لا تنسجم مع الآية نفسها، إذ الآية نزلت تحدياً للمشركين بإتيانهم بسورة مماثلة لأية سورة من القرآن، حيث احتجت بعجزهم عن ذلك على صدق الرسول صلى الله عليه وآله في دعواه الرسالة، فلا معنى لإقحام تلك الزيادة ـ في علي ـ فلابـّد أن يكون المقصود من الرواية ـ على فرض صدورها ـ مجرّد تطبيق الآية على الإمام علي عليه السلام لا نزول النص باسمه.

الثاني: وجـود بعض الشـواهد والنصـوص على عدم وجود أسـماء أهل البيت عليهم السلام في نـص القرآن، مثـل صحيحة أبي بصير المرويـة في الكافي قال: سـألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُـواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[1]، قـال: فقال: «نزلت في علي بن أبي طالب والحسـن والحسـين عليهم السلام» فقلت له: إن النـاس يقولون فما له لم يسـمِّ علياً وأهل بيته في كتاب الله عزّوجل؟ قـال: فقال عليه السلام: «قولوا لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة، ولم يسـمِّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر لهم ذلك. ونزلت عليه الزكاة ولم يسمِّ لهم من كل أربعين درهماً درهم حتى كان رسـول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فـسر ذلك لهم..»[2].

وتؤكد ما ذكرناه موثقة عمار السـاباطي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال تعالى بشـأن علي عليه السلام ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ**

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) الكافي: ١ / ٢٨٦ حديث ١.

وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ (أنّ محمداً رسول الله) **وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** (انّ محمداً رسول الله وأنّه ساحر كذّاب) **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾**».

ثم قال: أبو عبدالله عليه السلام: «هذا تأويله يا عمّار»[1].

وكذلك رواية الكليني وغيره لآية البلاغ في سورة المائدة من دون زيادة لفظ «في علي» كما ستأتي الإشارة إليها.

«الدرس ١٥»

الثالث: ما تقدمت الإشارة إليه من بعض الروايات التي تنفي التحريف، مثل النص الذي رواه الكليني عن الإمام الباقر عليه السلام في رسالته إلى سعد الخير، وفيها: «وكان من نبذهم الكتاب أنّهم أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده».

الرابع: ان التحريف لو كان ثابتاً لاعترض الإمام علي عليه السلام وأصحابه على القوم كما واجهوهم بالاحتجاج بالأحاديث النبوية في فضائل آل البيت عليهم السلام وإمامتهم ـ كحديث الغدير وحديث الطائر المشوي ـ ووردت نبذة منه في كتب الجمهور.

خصوصاً أنّ القرآن كان له حفظة ـ كلاً أو بعضاً ـ وقد انتشر هؤلاء في ربوع الدولة الإسلامية المترامية، وكان كثير منهم يوالي الإمام علياً عليه السلام فكيف لم تحفظ الآيات المحرّفة المزعومة؟ خاصةً أن روايات التحريف بالنقيصة تدلّ على تحريف كثير من الآيات، فكيف يمكن التلاعب بهذه الكمية الكبيرة من الآيات مع وجود الحافظين والكاتبين لها؟!

---

(١) الكافي: ٨ / ٢٠٤، حديث ٢٦٤.

الخامس : ان الرجوع للنصوص الواردة في سبب النزول أو النصوص التفسيرية ينفي فرضية التحريف، اذ لا يظهر فيها أية اشارة للأجزاء المقتطعة من الآيات، بينما نجد كثيراً من هذه النصوص تضمّنت تفسير مجموعة كبيرة من الآيات أو نزولها في حق أهل البيت عليهم السلام حتى انعكس ذلك وعلى نطاق واسع في كتب الجمهور ولدى رواتهم رغم معارضة السلطات لذلك، فلماذا خفيت كل تلك النصوص المزعومة دون هذه؟!

القسم الثالث: الروايات الدالة على وقوع التحريف بتغيير أو اضافة أو حذف بعض الكلمات...

١) قال السيوطي: «وأخرج ابن شاهين في السنّة عن اسماعيل بن مسلم قال: في حرف أبيّ بن كعب «غير المغضوب عليهم وغير الضالين. آمين. بسم الله»[١].

٢) ما حكاه البخاري وغيره عن عمر انّه كان يقرأ آية سورة الجمعة (فامضوا إلى ذكر الله) بدلاً من ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٢].

وروى البيهقي في سننه عن سالم عن أبيه قال: «ما سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرؤها إلاّ (فامضوا إلى ذكر الله... أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، فذكره بنحوه) والمشكلة أن الرواية تتضمن أنه كان يراها ناسخة للنص المتداول في المصحف: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٣]، وليست مجرّد قراءة أخرى للآية.

٣) قال السيوطي: «أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وعبدالله بن أحمد في

---

(١) الدر المنثور: ١ / ١٧.

(٢) انظر: الجامع الصحيح : ٣ / ٣٠٨.

(٣) سنن البيهقي: ٣ / ٢٢٧، وروى ابن شبه عن إبراهيم عن خرشة بن الحرق قال: رأى معي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لوحاً مكتوباً فيه ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ فقال: من أملى عليك هذا؟ قلت: أبي بن كعب. فقال: إنّ أبيّاً كان أقرأنا للمنسوخ. اقرأها (فامضوا إلى ذكر الله). تاريخ المدينة: ٢/ ٧١١. وحكاه السيوطي عن أبي عبيد في فضائله، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف. انظر: الدر المنثور: ٦/ ٢١٩.

زوائد الزهد وابن أبي داوود وابن الأنباري معاً في المصاحف، وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن عمرو بن دينار قال: سمعت عبدالله بن الزبير يقرأ (في جنّات يتساءلون عن المجرمين يا فلان ما سلككم في سقر) قال عمرو: أخبرني لقيط قال سمعت ابن الزبير قال: (سمعت عمر بن الخطاب يقرؤها كذلك)[1].

٤) روى ابن شبه بسنده عن الحسن: قرأ عمر رضي الله عنه (والسابقون الأولون من المهاجرين الذين اتبعوهم بإحسان) فقال أُبَيْ ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: (والسابقون الأولون من المهاجرين الذين اتبعوهم بإحسان) وقال عمر رضي الله عنه: أشهد انّ الله انزلها هكذا، فقال ابي رضي الله عنه: أشهد انّ الله أنزلها هكذا ولم يؤامر فيها الخطاب ولا ابنه»[2].

٥) ما عن العياشي عن هشام بن سالم، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3]. قال: «هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين، فوضعوا اسماً مكان اسم، أي أنهم غيّروا فجعلوا آل محمد آل عمران[4]. والجواب عن هذه الروايات وأمثالها بوجوه:

---

(١) الدر المنثور: ٦ / ٢٨٥، وانظر: كنز العمال: ٢ / ٥٩٤.

(٢) تاريخ المدينة: ٢/ ٧٧٠. بينما حكى السيوطي عن ابن جرير وأبي الشيخ عن محمد بن كعب القرظي ما يدل على تنازل عمر عن إصراره على قراءته وانّ عمر قال لأبي بن كعب عندما خالفه في قراءته: «أنت أقرأت لهذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنّا رُفعنا رفعةً لا يبلغها أحد بعدنا! فقال أُبي: تصديق ذلك في أول سورة الجمعة ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وفي سورة الحشر ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ ومن الأنفال ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ﴾. الدر المنثور: ٣/ ٢٩٦. والغريب أن يخطأ عمر في هذه الآية الواردة في السابقين من المهاجرين والأنصار وتابعيهم، والتي يفترض الوضوح فيها.

(٣) سورة آل عمران: ٣٣.

(٤) البيان: ٢٥٢.

الأول: أنّها ضعيفة السند، كما أشار إلى ذلك السيد الخوئي رحمه الله.

الثاني: أنّها مخالفة للكتاب والسـّنة ولإجماع المسلمين على عدم الزيادة في القرآن ولا حرفاً واحداً حتى من القائلين بالتحريف، قال السـيد الخوئي رحمه الله: «وقد ادعى الاجماع جماعة كثيرون على عدم الزيادة في القرآن وممن ادعى الاجماع الشـيخ المفيد والشيخ الطوسي والشيخ البهائي وغيرهم من الأعاظم قدس الله أسرارهم»[1].

الثالث: أن سـورة الفاتحة تتوقف عليها صحة الصلاة، فكيف نفترض خطأ المسلمين، في قراءتها، خصوصاً أن التحريف في الرواية المزعومة مجرّد تغيير ألفاظ لا يؤثّر على المعنى، فلا داعي له، وكيف سـكت المسلمون، والأئمة عن ذلك، وجرت سيرتهم على الخطأ؟

وكذلك سورة الجمعة التي اعتاد المسـلمون قراءتها يوم الجمعة كيف لم يحفظها غير عمر، والأغرب من هذا ادعاؤه نسـخها، من دون أن يعرف ذلك المسـلمون؟! وما أدري كيف يعالجها علماء الجمهـور حيث وردت في كتبهم المعتبرة؟!

---

(١) البيان: ٢٥٢.

«الدرس ١٦»

الرابع: وجود روايات عديدة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه السور والآيات من دون هذا التغيير المزعوم.

منها: ما رواه في إرشاد القلوب عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير سورة الفاتحة إلى أن قال: «وأمّا قوله ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾»...إلخ[١].

وكذلك ما رواه في الكافي عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام «والذين كفروا أولياؤهم الطواغيت»[٢] فإنّه معارض ببعض النصوص الواردة في تفسير آية الكرسي من دون هذا التغيير منها: ما جاء في تفسير القمي عن الإمام الرضا عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ..﴾[٣].

وكذلك ما روي عن حمران قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقرأ هذه الآية «إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل محمد على العالمين» قلت: ليس يقرأ هكذا، فقال: أُدخل حرف مكان حرف[٤].

فإنّه معارض بما رواه الكليني بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام... قول الله عزّوجلّ ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٥].

وكذا ما روي من إضافة لفظ «في علي» في آية البلاغ من سورة المائدة، فانّه

---

(١) البحار: ٩٢/ ٢٦٠، وتوجد هذه النصوص في علل الشرائع وعيون أخبار الرضا عليه السلام وغيرهما.
(٢) الكافي: ٢ / ٢٨٩ .
(٣) تفسير القمي: ٧٤.
(٤) تفسير فرات بن إبراهيم: ١٨ .
(٥) الكافي: ٨ / ٣٨١.

معارض بنصوص عديدة لهذه الآية من دون هذه الزيادة منها: ما رواه الكليني بسند معتبر عن الفضلاء الخمسة وغيرهم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «.. فأوحى الله عزّوجلّ إليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١) فصدع بأمر الله تعالى ذكره..»(٢).

كل هذا يؤكد ان تلك الزيادات يقصد منها مجرد التفسير أو التطبيق.

الخامس: يلاحظ انّ بعض النصوص أشارت إلى هذه الزيادات ضمن تفسير الآيات لا أنها جزء منها، فيكون ما تعارف من اقحام التفسير في النص هو السبب في الالتباس، فبينما نرى في مرسلة ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله عزّوجل ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ﴾ من الزكاة إلى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

نجد في نص آخر تصريحاً بأنّ هذه الزيادة للتفسير لا أنّها جزء من الآية، وذلك فيما رواه الكليني بطريقين معتبرين عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٣) فقال: «يا محمد ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلاّ جعل الله عزّوجلّ ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب» ثم قال: «هو قول الله عزّوجلّ: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني ما بخلوا به من الزكاة»(٤).

فنجد تصريحاً في هذا النص بأنّ فقرة «من الزكاة» تفسير لا جزء الآية. بينما يوحي النص الأول أنّها من ضمن الآية. وكأنّه بسبب إقحام التفسير في كتابة النص آنذاك، كما نلاحظه في المخطوطات القديمة.

---

(١) سورة المائدة: ٦٧.

(٢) الكافي: ٨ / ٣٨١.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٠.

(٤) الكافي: ٣ / ٥٠٢ باب منع الزكاة حديث ١، وانظر: حديث ١٠.

وهناك مجموعة من النصوص أشـــارت إلى هذا التعارف والتحذير منه. فقد ذكر أبو حمزة: أنّ إبراهيم النخعي رأى في مصحفه فاتحة كذا وكذا. فقال لي: امحه، فإنّ عبدالله بن مسعود قال: لا تخلطوا بكتاب الله ما ليس فيه.

وذكروا أنّ الرسول ﷺ قال: «اخلصوا القرآن وامحضوه»[1].

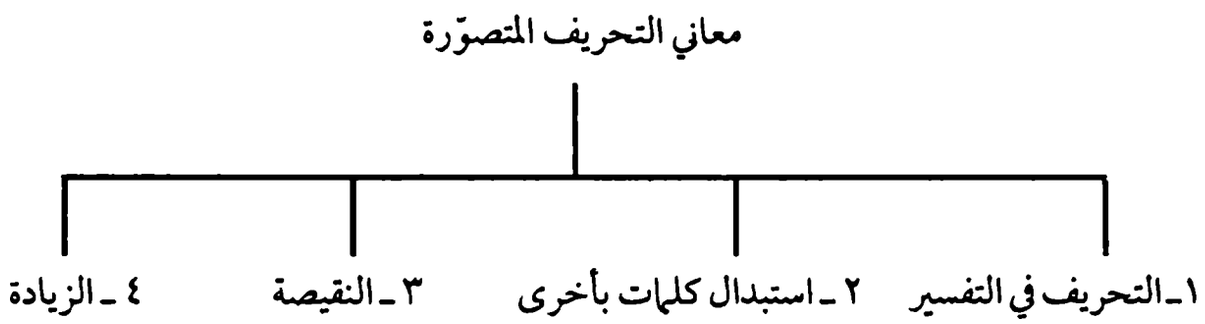

(١) علوم القرآن عند المفسرين: ١ / ٤٨٧.

«الدرس ١٧»

موقف المسلمين من فكرة التحريف

١ ـ موقف علماء العامّة

قدّمنا سابقاً انّ كثيراً من علماء العامة ومحدّثيهم اعتمدوا على روايات وردت في صحاحهم وكتبهم الروائية المعتمدة حول بعض أقسام النسخ في القرآن، وأوضحنا سابقاً أن مقتضى تلك الروايات هو تحريف القرآن، حيث نسبت إلى بعض الصحابة ادّعاء أن هناك بعض الآيات قد حُذفت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله مثل آية الرجم، وآية الجهاد، وآية الفراش وغيرها[١].

بل في بعضها انّه قد ذهب منه قرآن كثير[٢]. وفي بعض تلك الروايات ما يدلّ أن القرآن الموجود أقل من ثلث القرآن الكامل[٣].. إلى غير هذه من الدعاوى الباطلة[٤].

٢ ـ موقف علماء الشيعة

عُرف عن علماء الشيعة رفضهم لفكرة التحريف بكل أشكالها، ونشير إلى بعض تصريحاتهم في مؤلفاتهم:

---

(١) انظر: كتاب صيانة القرآن من التحريف: ١٥٩، وما بعدها.

(٢) الاتقان: ٣ / ٧٢.

(٣) الاتقان: ١ / ١٩٨.

(٤) انظر: صيانة القرآن من التحريف: ١٥٧، وما بعدها ولاحظ ما قدّمناه في موضوع نسخ التلاوة وفي بحث التحريف.

أ) الشيخ الصدوق ابو جعفر محمد بن علي بن الحسين الصدوق (ت: ٣٨١هـ): قال: «اعتقادنا ان القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس ليس بأكثر من ذلك... قال: ومن نسب إلينا أنّا نقول انّه أكثر من ذلك فهو كاذب»[١].

ب) الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت: ٤١٣هـ) قال: «وقد قال جماعة من أهل الإمامة: انّه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتاً منزلاً وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز، وقد يسمى تأويل القرآن قرآناً... قال: وعندي انّ هذا القول أشبه من مقال من ادّعى نقصان كَلِم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أميل.

قال: وأمّا الزيادة فيه فمقطوع على فسادها إن اريد زيادة سورة على حدٍّ يلتبس على الفصحاء فانّه متناف من تحدّي القرآن بذلك، وإن اريد زيادة كلمة أو كلمتين أو حرف أو حرفين، ولستُ أقطع على كون ذلك، بل أميل إلى عدمه وسلامة القرآن عنه. قال: ومعي بذلك حديث عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام»[٢].

ج) الشريف المرتضى علي بن الحسين علم الهدى (ت: ٤٣٦هـ) قال ـ في رسالته الجوابية الأولى عن المسائل الطرابلسيات ـ: «ان العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة واشعار العرب المسطور فإنّ العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدٍّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوة ومأخذ

(١) اعتقادات الإمامية ـ المطبوع مع شرح الباب الحادي عشر: ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) أوائل المقالات: ٥٤ ـ ٥٦.

العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه من اعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد... من خالف في ذلك من الإمامية والحشوية[١] لا يعتدّ بخلافهم، فإنّ الخلاف في ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخباراً ضعيفة ظنّوا صحّتها، لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته[٢].

د) شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: ٤٦٠هـ) قال: «وأمّا الكلام في زيادته ونقيصته فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن، لأنّ الزيادة منه مجمع على بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا»[٣].

ونلاحظ نظير هذه الكلمات لدى كثير من علمائنا السابقين واللاحقين منهم:

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) صاحب تفسير مجمع البيان.

والعلاّمة الحلي جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلي (ت: ٧٢٦هـ).

والمحقق الثاني علي بن عبدالعالي المعروف بالكركي (ت: ٩٤٠هـ).

والمحقق الأردبيلي (ت: ٩٩٣هـ).

وشيخ الفقهاء الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت: ١٢٢٨هـ).

---

(١) وهم فئة من أبناء العامة. قال الجرجاني: «وسميت الحشوية حشوية، لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ قال: «وجميع الحشوية يقولون بالجبر و التشبيه وتوصيفه (تعالى) بالنفس واليد والسمع والبصر. وقالوا: ان كل حديث يأتي به الثقة من العلماء فهو حجّة أيّاً كانت الواسطة» بحوث في الملل والنحل، للسبحاني: ١ / ١٢٤.

(٢) مجمع البيان: ١ / ١٥، ضمن الفن الخامس.

(٣) التبيان: ١ / ٣، طبعة النجف.

وكذلك حفيده الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت: ١٣٧٣ هـ).

والشيخ البهائي محمد بن الحسين الحارثي العاملي (ت: ١٠٣٢ هـ).

والفيض الكاشاني محمد بن المحسن (ت: ١٠٩٠ هـ).

والحرّ العاملي محمد بن الحسن بن علي ـ صاحب كتاب وسائل الشيعة ـ (ت: ١١٠٤ هـ).

والمحقق السيد محسن الأعرجي (ت: ١٢٢٧ هـ).

والحجة الشيخ محمد جواد البلاغي (ت: ١٣٠٢ هـ).

والعلاّمة السيد عبدالحسين شرف الدين العاملي (ت: ١٣٧٧ هـ).

والعلاّمة السيد محسن الأمين العاملي (ت: ١٣٧١ هـ).

والمرجع الديني الفقيه السيد محسن الحكيم (ت: ١٣٩٠ هـ)[١].

والفيلسوف المفسّر الشهير السيد محمد حسين الطباطبائي (ت: ١٤٠٢ هـ).

والمرجع الديني المحقق السيد أبو القاسم الخوئي (ت: ١٤١٣ هـ).

وقائد الثورة الإسلامية الراحل السيد روح الله الموسوي الخميني (ت: ١٤٠٩ هـ)، فقد ذكر عنه تلميذه «ان الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءةً وكتابةً يقف على بطلان تلك المزعومة. وما ورد فيه من أخبار ـ حسبما تمسّكوا ـ امّا ضعيف لا يصلح الاستدلال به أو مجعول تلوح عليه إمارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب، أمّا الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير وانّ التحريف انّما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته»[٢].

---

(١) جاء ذلك في جواب محفوظ عندنا على سؤال وجّه لسماحته بهذا الخصوص.

(٢) تهذيب الأصول تقرير الشيخ جعفر السبحاني: ٢ / ١٦٥.

«الدرس ١٨»

وبرغم هذه الكلمات والمواقف الثابتة في نفي التحريف لهؤلاء الأعلام وغيرهم من علماء الشيعة قديماً وحديثاً نجد بعض من أعماهم الحقد والتعصب الطائفي عن رؤية الحقيقة والموضوعية العلمية فنسبوا لعلماء الشيعة الأباطيل والأكاذيب.

من هؤلاء القاضي أبو بكر الباقلاني حيث نسب القول بالتحريف لشيعة أهل البيت عليهم السلام[١].

وكذلك ابن حزم الظاهري حيث يقول: ومن قول الإمامية كلها قديماً وحديثاً أنّ القرآن مبدّل زيد فيه ما ليس فيه ونقص منه كثير وبدّل منه كثير، حاشا علي بن الحسين (الشريف المرتضى) وكان إمامياً يظاهر بالاعتزال مع ذلك، فانّه كان ينكر هذا القول ويكفّر من قاله، وكذلك صاحباه ابو يعلى ميلاد الطوسي وأبو القاسم الرازي[٢].

وعلى غراره تحدّث ابو الحسين عبدالرحيم بن محمد الخياط في كتابه (الانتصار)، والقاضي عبدالجبار المعتزلي حيث يقول ـ عند كلامه عن انحاء الخلاف في القرآن الكريم ـ : (منها) خلاف جماعة من الإمامية الروافض الذين جوّزوا في القرآن الزيادة والنقصان، وقالوا: انّه كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله اضعاف ما هو موجود فيما بيننا، وحتى قالوا: ان سورة الاحزاب كانت بحمل جمل، وانّه قد زيد فيه ونقص وغيّر وحرّف، وما أتوا في ذلك إلاّ من جهة

(١) نكت الانتصار: ٩٥ ـ ١٠٣، و٢٣٩ ـ ٢٤٢.

(٢) الفصل في الملل والنحل: ١ / ١٨٢.

الملاحدة الذين أخرجوهم من الدين من حيث لا يعلمون[١].

نلاحظ كيف يهاجم شيعة أهل البيت عليهم السلام ويتهمهم هذه التهمة الفضيعة اعتماداً على أكذوبة نسبها إليهم من دون تحرّج ولا تحقيق، رغم مواقف وتصريحات علماء الشيعة منذ القديم على نفي التحريف، خاصة الزيادة التي أجمعوا على نفيها، بل ان ما نسبه للشيعة من وحي خياله المريض نجده موجوداً لدى بعض علماء السنّة، يروونه عن عمر بن الخطاب على ما أخرجه الطبراني عنه «القرآن ألف ألف حرف، فمن قرأه صابراً محتسباً كان له بكل حرف زوجة من الحور العين»[٢]. وهذا الرقم يعني ضياع أكثر من ثلثي القرآن ـ على ما قيل ـ.

وأمّا النقيصة في سورة الأحزاب فقد نسبوها إلى أُبي بن كعب ـ على ما رواه أحمد بن حنبل ـ وصحّح ابن حزم النسبة إلى أبيّ بن كعب معتبراً الإسناد إليه كالشمس لا مغمز فيه[٣].

وروى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت : «كانت سورة الأحزاب تُقرأ في زمن النبي مائتي آية، فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلاّ ما هو الآن»[٤].

وحكى السيوطي عن ابن الضُّريس بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه قال في مصحف ابن عباس قراءة أُبَيّ وأبي موسى (بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنّا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك الخير ولا نكفرُك، ونخلَع ونترك من يعجزك».

وفيه: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفِد، نخشى عذابك، ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكفار ملحَق.

---

(١) شرح الأصول الخمسة: ٦٠١.

(٢) الاتقان: ١ / ٢٤٢، الطبعة الثانية مطبعة أمير.

(٣) انظر: المحلى: ١١ / ٢٣.

(٤) دراسات قرآنية : ١٦٢ ، نقلاً عن الاتقان للسيوطي: ٢ / ٤٠ .

وأخرج الطبراني ـ بسند صحيح ـ عن أبي إسحاق قال: أمَّنا أمية بن خالد بن أسيد بخراسان، فقرأ بهاتين السورتين: إنا نستعينك ونستغفرك.

وتسمى هاتان السورتان المزعومتان بسورتي «الحفد» و «الخلع»، ولذلك نسب لمصحف أُبَيّ أنه ١١٦ سورة[١].

إذن كان أحـرى بالقاضي عبد الجبار أن ينسـب الخروج عن الدين لغير الشيعة بدلاً من أن يفتري عليهم.

والغريـب أن آفة العصبية والعمـه عن رؤية الحقيقـة الواضحة بقيت تلاحق بعض الكتّاب المعروفين في العصر الحديث رغم وضوح ورسوخ أسس البحث العلمي الذي لا يسمح بنسبة قول لشخص من دون الرجوع للمصدر الأصلي، فضلاً عمّا اذا كانت النسبة لفئة عريضة من العلماء المنتشرة مؤلفاتهم في بقاع المعمورة.

فنجد الكاتب المصري مصطفى الرافعي يقع فريسـة للتعصب الأعمى فيقول: «أما الرافضة ـ أخزاهم الله ـ فكانوا يزعمون أن القرآن بدّل وغيّر، وزيد فيه ونقص منه وحرّف عن مواضعه وأن الامّة فعلت ذلك بالسنن أيضاً. وكل هذا من مزاعم شيخهم وعالمهم هشام بن الحكم لأسباب لا محل لشرحها هنا، وتابعوه عليها جهلاً وحماقة»[٢].

من يصـدّق ان كاتباً وأديباً معروفاً يجري على قلمه هذا السـباب وهذه الأكاذيـب؟ لولا انّها العصبية التي تعمي وتصـم! ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [٣].

وقد قدّم هؤلاء خدمة كبيرة لبعض المسـتشرقين في مسعاهم للطعن في

---

(١) انظر: الاتقان في علوم القرآن: ١/ ١٣١.

(٢) اعجاز القرآن: ١٤٢، هامش رقم ٢.

(٣) سورة الانفال: ٢٢.

الإسلام ورموزه، ومنها التشكيك في سلامة القرآن الكريم مستغلين ما ينسبه أمثال الباقلاني وابن حزم والقاضي عبدالجبار المعتزلي والرافعي وغيرهم من القول بالتحريف للشيعة، ويضيفون إليه أباطيل أخرى ليستنتجوا عدم سلامة النص القرآني. يقول المستشرق الشهير «اجنتس جولد زيهر» في مفتتح كتابه «مذاهب التفسير الإسلامي»: فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً على أنّه نص منزل أو موحى به يقدم نصّه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن[1].

وقال في موضع آخر من كلامه: ويسود الميل عند الشيعة ـ على وجه العموم ـ إلى أن القرآن الكامل الذي أنزله الله كان أطول كثيراً من القرآن المتداول في جميع الأيدي... انّهم يعتقدون من سورة انّها كانت تعدل سورة البقرة المشتملة على ٢٨٦ آية، وسورة النور كانت تحتوي على أكثر من ١٠٠ آية وسورة الحجر كانت ١٩٠ آية.

ولأجل أن يدعم فكرته الخبيثة تلك يجعل محور دراسته عن كتب التفسير الشيعية كتابين أحدهما ينتهج نهج التفسير بالمأثور هو التفسير المعروف بـ «تفسير القمي» المنسوب إلى علي بن إبراهيم القمي (ت: ٣٢٩هـ).

وثانيهما: تفسير يتخذ منهج التأويل الصوفي، وهو كتاب «بيان السعادة في مقامات العبادة».

ولأجل أن تتضح الحقيقة سوف نتحدث ـ بإيجاز ـ عن هذين الكتابين.

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي: ٤.

«الدرس ١٩»

أمّا التفسير المتداول المنسوب للقمي ففيه خلط واضطراب. وقد قيل: إنّه تلفيق من املاءاته على تلميذه أبي الفضل العباس بن محمد بن القاسم، وما رواه التلميذ نفسه بسنده الخاص عن أبي الجارود ـ زياد بن المنذر السرحوب (ت: ١٥٠ هـ) ـ وعن مشايخه، بل يبدو أن صاحب التفسير المطبوع حالياً ليس هو أبا الفضل العباس، لأنّ التفسير يبتدئ بقوله «حدثني أبو الفضل العباس بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر عليه السلام قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم...».

فبالإضافة لعدم وجود ذكر للعباس بن محمد في الأصول الرجالية، لا يعرف الشخص الذي يحدّث عنه.

وبعد هذا التوضيح نعرف أنّه لا يمكن الاعتماد على هذا التفسير المطبوع[1]. وانّ محتواه لا يعبّر عن رأي الشيعة الإمامية.

وأمّا كتاب «بيان السعادة في مقامات العبادة» فمؤلفه قطب من أقطاب الصوفية، وهو سلطان محمد بن حيدر البيدختي الكنابادي، زعيم فرقة «نعمة اللهي» الملقب ـ في الطريقة ـ بسلطان علي شاه، كان من مواليد سنة (١٢١٥ هـ. ق) وقد فرغ من تأليفه عام (١٣١١ هـ) وطبع الكتاب لأول مرة عام ١٣١٤. ونسخ الكتاب مبذولة يجدها الطالب في عامة المكتبات[2].

لكن هذا المستشرق ـ الباحث الدقيق والأمين! ـ لأجل أن يعطي قيمة وأهمية لموضوع بحثه حول هذا الكتاب زعم أن تأليف الكتاب تم عام

(١) انظر: كليات في علم الرجال: ٣٠٩ ـ ٣٢٠ وصيانة القرآن من التحريف: ٢٣٠ ـ ٢٢٩.
(٢) صيانة القرآن من التحريف: ٩٦.

(٣١١هـ= ٩٢٣م) ليرجعه إلى بدايات القرن الرابع الهجري، ولكي تنطلي لعبته هذه حرّف اسم المؤلف إلى سلطان محمد بن حجر البجختي، حتى لا يفتضح بمراجعة كتب تراجم الرجال حول اسم المؤلف[١].

عجباً لهذه الأمانة العلمية!!

وليت الأمر اقتصر على هذا المستشرق، بينما نجد كاتباً (مسلماً) هو الشيخ خالد عبدالرحمن العكي ـ المدرّس بدائرة الافتاء العام بدمشق ـ يرتكب نفس الأخطاء الفضيعة تقليداً وتبعيةً لهذا المستشرق من دون بصيرة. فإنّه ـ بعد أن ينتقد الاتجاه الشيعي في التفسير ـ يذكر أنّ أقدم تفسير شيعي هو تفسير جابر الجعفي المتوفى سنة ١٢٨، ثم يجيء تفسير «بيان السعادة في مقام العبادة» للسلطان محمد بن حجر البجختي وقد انتهى منه سنة ٣١١، وتفسير القمي في القرن الرابع[٢].

ولا يهمّنا الآن التعقيب على باقي كلامه بعد أن عرفنا وزنه العلمي وتقليده الأعمى للمستشرق المذكور.

ثم نختتم تعليقنا على ما نسبه هؤلاء الجهلة والحاقدون لشيعة أهل البيت عليهم السلام فنقول: بأنّهم مع اعترافهم بكون مؤلف الكتاب من الصوفية كيف يعتبرون رأيه معبِّراً عن رأي الشيعة، مع وضوح أن الذوق الصوفي لا يعبّر عن أصحاب المذهب الذي ينتمي إليه صاحبه الصوفي سواء كان سنياً أم شيعياً. وهذا أمر يعرفه الجميع، لا يجدر بمن يرى نفسه كاتباً أو باحثاً أن يفوته ذلك،

---

(١) من غير المعقول ان نفترض انها اخطاء تجمّعت صدفة من دون قصد، إذ كيف يسمح باحث لنفسه أن يجعل محور دراسته كتاباً لمؤلف ما من دون مراجعة كتب التراجم حولها، ثم كيف يقع في هذين الالتباسين الواضحين، وكيف لا يميز باحث بين كتاب مؤلّف في القرن الرابع عشر وطبيعة مؤلّفات القرن الرابع؟!.

(٢) أصول التفسير وقواعده: ٢٤٩ ـ ٢٥٠ (ط بيروت) وانظر: أيضاً صيانة القرآن من التحريف: ٩٣ ـ ١٠٠.

لكنه التعصب الذي يعمي ويصم![1].

إذن عرفنا الرأي السائد بين علماء الشيعة في نفي التحريف عن القرآن زيادة ونقيصة على مرّ العصور المتتالية، لكن في عهد قريب التزم بعض المحدّثين بفكرة النقيصة في القرآن معتمدين على ظواهر بعض الأخبار المروية في المصادر الحديثية، والتي لم يعمل على طبقها جلّ علماء الشيعة خلال العصور المختلفة. ونلاحظ في طريقة هؤلاء ـ شأن غيرهم من أهل الحديث ـ إلغاءهم دور العقل وابتعادهم عن التحقيق والتنقيح في الأخبار، حتى ذكر بعضهم أنّ «ماتعارض

(١) والمؤسف ان ذيول هذه الفكرة السخيفة ما تزال تلقي بظلالها على بعض الشخصيات في هذا العصر الذي انفتحت فيه الشعوب والثقافات على بعضها، حتى ان علال الفاسي ـ من الشخصيات المعاصرة في المغرب العربي ـ عندما زار إيران كان يهرع عند تجواله في مدينة (قم) إلى ملاحظة نسخ القرآن الموجودة التي يراها، وعندما زار سماحة السيد محمد حسين الطباطبائي أخذ يلاحظ نسخ القرآن الموجودة في مكتبته، فقال له السيد: ايها الاستاذ كأنك تبحث عن (قرآن الشيعة)، لأني لاحظتك تفحص نسخ القرآن الموجودة أينما حللت. فقال الفاسي: أحسنت، بلى لعن الله الاستعمار الفرنسي والمستشرقين الغربيين حيث أشاعوا في شمال أفريقيا ان قرآن الشيعة يختلف عن قرآن أهل السنّة، وانا عندما حللت في ايران لاحظت عشرات النسخ من القرآن في طهران ومشهد وقم في المكتبات ومحلات بيع الكتب ودققت فيها فلم أجد أدنى تفاوت بينها مع باقي نسخ القرآن، والآن عرفت مدى فاعلية خطة هؤلاء ـ الغربيين ـ في التفريق بين المسلمين. (انظر: طبقات مفسرين شيعه ١/ ٨٧ ـ ٨٨).

ويجدر بنا أن نتساءل هل ان هذه الخطة الاستعمارية جاءت من فراغ؟ أو ليس تعصب بعض المسلمين وافتراءاتهم خلقت الأرضية المناسبة لهم؟!

وهل يليق (بالعلماء والمثقفين) ـ وهم على اعتاب القرن الحادي والعشرين ـ أن تنطلي عليهم هذه الخطة وما تحمله من فكرة سخيفة، وهم يشاهدون عشرات الملايين من شيعة آل البيت عليهم السلام منتشرين في البلاد التي يحكمها غير الشيعة، فكيف لم يستطع هؤلاء الحكام ـ بما يمتلكونه من إمكانيات ـ الكشف عن هذا القرآن المزعوم، خاصة ان شيعة أهل البيت عليهم السلام يقفون في مناطق عديدة من العالم في مواجهة قوى الكفر العالمي بقدراتها الهائلة وبمساعاها الحثيث في تمزيق شمل المسلمين وتشتيتهم؟!!

والغريب انّه بينما يتهم شيعة أهل البيت عليهم السلام بهذه الفرية الباطلة نجد بعض بلاد المغرب العربي تلتزم مصحفاً على قراءة (ورش) يختلف جزئياً عن المصحف المنتشر بين المسلمين بقراءة عاصم، والذي منع تداوله في كثير من البلدان الإسلامية، ومع ذلك لا يُتّهمون بالتحريف واختلاق مصحف آخر، وما أدري كم كان حجم التُهم على اتباع أهل البيت عليهم السلام لو كان حكام دول المغرب العربي منتسبين إليهم؟!

فيه محض العقل والنقل من غير تأييد بالنقل فهذا لا نرجح فيه العقل بل نعمل بالنقل»[١].

وجرى على هذا المنوال المحدث النوري الحسين بن محمد تقي (١٢٥٤ـ ١٣٢٠ هـ) حيث ألّف كتاباً لإثبات التحريف ـ بمعنى نقص القرآن الموجود ـ سمّاه «فصل الخطاب في تحريف الكتاب». وقد واجهه العلماء المعاصرون له ومن بعده بالرفض والنكير، وألفوا كتباً في ردّ ما اعتمده من الأدلة على ذلك ومناقشتها.

يحدث السيد هبة الدين الشهرستاني ـ حيث كان طالباً في الحوزة العلمية بسامراء في عهد مرجعية الميرزا السيد محمد حسن الشيرازي ـ في رسالة بعثها تقريظاً لرسالة «البرهان» التي ألفها الميرزا مهدي البروجردي. في مدينة قم المشرفة (عام ١٣٧٣ هـ. ق) يقول السيد الشهرستاني في رسالته: كم أنت شاكر مولاك إذ أولاك بنعمة هذا التأليف المنيف، لعصمة المصحف الشريف عن وصمة التحريف، تلك العقيدة الصحيحة التي أنست بها منذ الصغر أيام مكوثي في سامراء ـ مسقط رأسي ـ حيث تمركز العلم والدين تحت لواء الإمام الشيرازي الكبير، فكنت أراها تموج ثائرة على نزيلها المحدّث النوري بشأن تأليفه كتاب «فصل الخطاب» فلا ندخل مجلساً في الحوزة العلمية إلاّ ونسمع الضجة والعجة ضد الكتاب ومؤلفه وناشره يسلقونه بألسنة حداد...[٢].

وممن كتب في رد المحدث النوري معاصره الفقيه الشيخ محمود بن أبي القاسم الشهير بالمعرّب الطهراني (١٣١٣ هـ) في رسالة قيمة سماها «كشف الارتياب في عدم تحريف الكتاب» فرغ منها في (١٧ ج ٢ عام ١٣٠٢ هـ) تقرب من اربعة آلاف بيت ـ من الشعر ـ في ٣٠٠ صفحة مما ادى إلى تراجع الشيخ النوري عن رأيه بعض

(١) الأنوار النعمانية: ٣ / ١٣٣.

(٢) البرهان: ١٤٣ ـ ١٤٤.

الشيء، فقام بتأليف رسالة اخرى فارسية ـ فرغ منها في محرم ١٣٠٣ هـ ـ بصدد إجابة الشيخ الطهراني، وتوجيه ما يقصد من التحريف، وكان يقول: لا أرضى عن الذي يطالع (فصل الخطاب) أن يترك النظر في الرسالة الجوابية على (كشف الارتياب). وكان يوصي كل من كانت عنده نسخة من (فصل الخطاب) أن يضمّ إليه تلك الرسالة، فإنها بمنزلة المتمم لذلك الكتاب والكاشف عن مقصود مؤلفه[١].

يقول الشيخ آغا بزرك الطهراني: سمعت شيخي النوري يقول: إني حاولت في هذا الكتاب إثبات أن الموجود بين الدفتين كذلك، باق على ما كان عليه في أول جمعه كذلك في عصر عثمان، ولم يطرأ عليه تغيير وتبديل كما وقع في سائر الكتب، فكان حريّاً بأن يسمى (فصل الخطاب في عدم تحريف الكتاب) فتسميته بهذا الاسم ـ اي فصل الخطاب في تحريف الكتاب ـ الذي يحمله الناس على خلاف مرادي، خطأ في التسمية، ولكني لم أرد ما يحملونه عليه، بل مرادي اسقاط بعض الوحي المنزل الإلهي وإن شئت فسمّه «القول الفاصل في اسقاط بعض الوحي النازل»[٢].

على كل حال عمّت حالة الرفض ـ لرأي النوري ـ المراكز الشيعية في تلك الفترة وما بعدها إلى يومنا هذا، كما أشرنا إلى ذلك عند ذكر العلماء الأعلام الذين رفضوا فكرة التحريف بطبقاتهم المختلفة. فمن الظلم الفاحش نسبة التحريف لشيعة أهل البيت عليهم السلام مع هذا الموقف العام الرافض وتوضيح مؤلّف الكتاب نفسه، بينما نجد أن كلمات وآراء غيرهم أقرب إلى ادعاء التحريف، كما اوضحناه.

---

(١) صيانة القرآن من التحريف: ١١٥ ـ ١١٦.

(٢) الذريعة: ١٠ / ٢٢٠ ـ ٢٢١، و ١٦ / ٢٣١ ـ ٢٣٢، و ١٨ / ٩.

«الدرس ٢٠»

محاولات يائسة لتحريف القرآن

لقد استهدف أعداء الإسلام القرآن الكريم باساليب مختلفة، وبعد أن فشلت محاولاتهم في الطعن فيه والتقليل من شأنه لتشكيك المسلمين بكتابهم وابعادهم عنه، عمدوا إلى التدخل المباشر في التلاعب بآيات القرآن الكريم وتحريفه، ففي أيلول عام ١٩٦٠م أفادت انباء القاهرة ان (اسرائيل) قد قامت بطبع مائة ألف نسخة من القرآن الكريم، وقد ادخلت عليها التحريف، وذلك بإحداث أكثر من ألف خطأ مطبعي ولفظي متعمّد في طبعة محرّفة للقرآن، وقد تم توزيع هذه النسخ المحرّفة في جملة من البلدان الآسيوية والافريقية، كالمغرب وغانا وغينيا ومالي ودول أخرى، وقد اكتشفت سفارة الجمهورية العربية المتحدة في المغرب هذه المحاولة الأثيمة فأشعرت بذلك السلطات في القاهرة، وبعثت إليها ببعض النسخ المحرّفة.

ومن جملة ما تضمنته هذه النسخ من فقرات التحريف:

ألف: حذف الآيتين التاليتين من القرآن الكريم ـ حيث منع تدريسهما في مدارس العرب والمسلمين في الأرض المحتلة ـ ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[1].

---

(١) سورة الممتحنة: ٨ ـ ٩.

ب) حذف كلمة «غير» لينقلب المعنى عكسياً من قوله تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

ج) حذف كلمتي «ليست» من الآية الكريمة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾[٢].

د) ابدال عبارة ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ بعبارة «والله غفور رحيم» من قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٣][٤].

وما زلنا بين حين وآخر نسمع عن طباعة جديدة محرّفة لكتاب الله الكريم وأساليب دنيئة أُخرى يروم من خلالها الأعداء إطفاء نور الله وتشويه معالم تنزيله ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[٥].

---

(١) سورة آل عمران: ٨٥.

(٢) سورة البقرة: ١١٣.

(٣) سورة المائدة: ٣٨.

(٤) انظر: كتاب دراسات قرآنية: ١٧٤ - ١٧٥.

(٥) سورة الصف: ٨.

الخلاصة

١ ـ التحريف له أربعة معانٍ متصوّرة، وهي..

أ ـ التحريف في التفسير.

ب ـ استبدال بعض كلماته بغيرها.

ج ـ النقصية.

د . الزيادة.

٢ ـ المعروف بين علماء المسلمين جميعاً عدم التحريف في النص القرآني لا نقصية ولا زيادة ولا استبدالاً.

٣ ـ تضمنت بعض الروايات ما يوهم التحريف وقد تمت معالجتها، وحُمل بعضها على تعدد القراءات.

٤ ـ اتضح أن نسبة التحريف في النص القرآني لشيعة أهل البيت عليهم السلام منشؤه الجهل أو التعصب الأعمى.

الأسئلة

١ ـ اذكر ستة شواهد على إعجاز القرآ، الكريم؟

٢ ـ مـــا هي النقاط الأربع التي توضح كيف إنّ عدم الاختلاف بين الآيات القرآنية من أدلة إعجاز القرآن الكريم؟

٣ ـ اذكر نقطتين تؤكدان أن إخبارات القرآن الغيبية تكشف أنه كتاب إلهي.

٤ ـ اذكر المعاني الأربعة للتحريف.

٥ ـ اذكر شاهدين على ان المقصود من التحريف الوارد في بعض النصوص التحريف في المعنى.

٦ ـ اذكر ثلاثة شـــواهد عـــلى ردّ ادعاء وجود أســـماء الأئمة ضمن النص القرآني.

٧ ـ ما هو الموقف الشيعي العام من فكرة تحريف النص القرآني؟

المبحث السابع: حجية الدلالة القرآنية

والمقصود من هذا البحث أن القرآن ليس مبهماً يتعذّر على الأمّة فهمه، وإنّما من حق العالم والمتخصص ـ وأحياناً الإنسان العادي ـ أن يعتمد على ما يفهمه منه.

ويندرج تحت هذا البحث مسألة حجية ظواهر القرآن التي يبحثها علماء أصول الفقه، حيث أكدوا أنّ ظهورات القرآن حجّة، فضلاً عمّا هو صريح فيه.

ويمكن أن نستشهد لذلك بمجموعة من الشواهد من نفس القرآن ومن غيره، وهي..

١ ـ مجموعة من الآيات الكريمة الواضحة في دعوتها للتأمل والتدبّر في القرآن الكريم.

منها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[١].

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢].

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣].

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

وهناك آيات أُخرى كثيرة تشهد أن إنزال القرآن لأجل أن يتفهّمه الناس

---

(١) سورة النساء: ٨٢.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: ٢٠٤.

(٤) سورة النمل: ٧٦.

ممّا يؤكد أنّه قابل للفهم بالتأمّل والتدبّر.

نعم قد يتوهّم البعض أن القرآن اشتمل على المحكم والمتشابه وأن تمييز أحدهما عن الآخر غير ممكن لنا، وسوف يأتي البحث عن ذلك في باب المحكم والمتشابه إن شاء الله تعالى.

٢ ـ ورود النصوص الكثيرة التي تدعو المسلمين إلى الرجوع للقرآن والالتزام والعمل به، فيكشف هذا عن إمكانية فهمه من جانبهم ـ ولو من خلال علمائهم ـ.

منها: حديث الثقلين: «إنّي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

ومنها: قول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء ومحاج لطرق الصلحاء ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس بعده ظلمة.. وبرهاناً لمن تكلّم به وشاهداً لمن خاصم به وفلجاً لمن حاجّ به.. وعلماً لمن وعى وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[2].

ومنها: قوله عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً: «كتاب ربّكم فيكم مبيّناً حلاله وحرامه وفرائضه وفضائله وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه وخاصه وعامه مفسّراً مجمله ومبيّناً غوامضه..»، وهناك نصوص كثيرة جداً في السنّة تدعو إلى العمل بالقرآن والرجوع إليه.

ومنها: مجموعة من النصوص التي يُوجّه فيها أهل البيت عليهم السلام أصحابَهم إلى القرآن، مثل ما رواه عبدالأعلى في حكم من عثر فقطع ظفره فجعل على

---

(١) صحيح الترمذي: ٥/ ٦٦٣. والصواعق المحرقة: ١٤٧ و ٢٢٦. وأسد الغابة: ٢/ ١٢. وتفسير ابن الأثير: ٤/ ١١٣. وغيرها.

(٢) الخطبة: ١٩٦.

اصبعه مرارة، فقال الإمام الصادق عليه السلام: «يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّوجل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امسح عليه»[١].

فالقرآن إذن ـ كما يبدو من هذه النصوص وغيرها ـ ليس كتاب رموز وألغاز بحيث لا يحقّ للناس الرجوع إليه ولا يمكنهم فهمه، وإنّما هو كتاب هداية يفترض في المسلمين التمعن فيه والاهتداء بهديه.

٣ ـ الروايات الكثيرة التي تشترط في حجية الرواية عدم مخالفتها للقرآن، وفي بعضها اشتراط موافقتها له، فيكشف ذلك عن حجة الدلالة القرآنية، روى هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خطب النبي صلى الله عليه وآله بمنى فقال: «أيها الناس! ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فانا قلتُه، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»»[٢]. ونظيرها روايات غيرها[٣].

---

(١) وسائل الشيعة: ١ / ٣٢٧.

(٢) المصدر: ٢٧/ ١١١.

(٣) أنظر: المصدر كتاب القضاء: باب ٩ : ١٠٦.

«الدرس ٢١»

نعم قد يبدو مـــن بعض النصوص انّه لا يمكن الاعتـــماد على ما يفهمه الإنسان من القرآن إلاّ بعد الرجوع لأئمة أهل البيت عليهم السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله..

منها: صحيحة منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ الله أجلّ وأكرم من أن يعرف بخلقه.. إلى أن قال: وقلت للناس: أليس تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وآله كان الحجة من الله على خلقه؟ قالوا: بلى، قلت: فحين مضى رسول الله صلى الله عليه وآله من كان الحجة على خلقـــه؟ قالوا: القرآن، فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجيء والقـــدري والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجالَ بخصومته، فعرفت ان القرآن لا يكون حجة إلاّ بقيّم، فما قال فيه من شيء كان حقّاً... إلى أن قال: فأشهد أنّ علياً عليه السلام كان قيّم القرآن، وكانت طاعته مفترضة وكان الحجة على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وانّ ما قاله في القرآن فهو حق، فقال: «رحمك الله»[1].

ومنها: رواية عبيدة الســـلماني... فقام عبيدة وعلقمة والأســـود وأناس معهم فقالوا: يا أمير المؤمنين فما تصنع بما قد خُبِّرنا به في المصحف؟ فقال: يُسأل عن ذلك آل محمد[2].

وهناك مجموعة أخرى من النصوص المماثلة.

ولكن التأمّل الدقيق في مجموع الروايات الواردة في الموضوع يوضّح انّه ليس المقصود عدم الاعتماد على كل ما يفهمه الإنسان من القرآن، وإنما ذلك في نمط من الآيات وفي مســـتوى معيّن من الفهم فحسب، وذلك ان آيات القرآن على ثلاثة أصناف..

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٢٩، باب: ١٣ من أبواب صفات القاضي.

(٢) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٣٧، باب: ١٣ من أبواب صفات القاضي.

الصنف الأول: هـي الآيات الواضحـة التي يفهم معناهـا ـ ولو فهماً بسـيطاً ـ كل من كانت لديه معرفة باللغة العربية مثل كثير من الآيات المشتملة على تمجيد الله وحمده والثناء عليه، وكـذا مجموعة من الآيات الآمرة بالمعروف والداعية إلى الاتصاف بالصفات والخصال الحسنة ، والآيات الناهية عن المنكر وتجنّب الظلم والفواحش وذم الخصال السيئة، وكثير من الآيات غيرها.

الصنف الثاني: الآيات التي يفهم معناها العلماء والمتخصصون بالمعارف والعلوم الإسـلامية، وهي الآيات التي تتطلب مسـتوى رفيعاً لمعرفة معناها، وأحيانـا آية واحدة تحمل معنى سـطحياً يفهمه النـاس عامّة ومعنى أعمق لا يدركه إلاّ العلـماء والمتخصصون مثل بعض الآيات التي تتحدث عن التوحيد وصفات الله، وبعـض المفاهيم المذكورة في القرآن مثل الحكمة، وحبط العمل، والهداية، وغير ذلك.

الصنف الثالث: وهي الآيات الغامضة والتي ترمز إلى معان في غاية الدقة مثل القضاء والقدر، أو تشير إلى الأمور الغيبية مثل عوالم ما بعد الموت أو آيات الأحكام القابلة للنسخ والتخصيص ونحو ذلك، وآيات أخرى كثيرة متعارضة ـ بظاهرها ـ فيما بينها، وكذلك المعاني العميقة والدقيقة لكثير من الآيات.

أمّـا الصنف الأول من الآيـات وأحياناً الفهم البسـيط لبعض الآيات الاخرى فلا يحتاج فيه للرجوع إلى أحد حيث يفهمه الناس بشكل عام، كما تدل على ذلك مجموعة من النصوص المتقدم بعضها.

بالإضافة إلى سـيرة المسـلمين والمؤمنين على مرِّ العصـور حيث كانوا يقرؤون القرآن بتمعن وخشـوع ويذكّر بعضهم بعضاً بالآيات القرآنية، ومن دون ذلـك يتحول القرآن إلى كتـاب ألغاز ورموز ويفقـد فاعليته وتأثيره بين الناس، ويفقد ميزته البلاغية المعجزة.

ولعل إلى هذا المعنى يشير ابن خلدون بقوله: «إنّ القرآن نزل بلغة العرب

وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»[١].

أمّا الصنف الثاني فإنّه في متناول العلماء والمتخصصين يغترفون منه ما يمكنهم استيعابه ويفهمون معاني أعمق وأدق مما يفهمه العامّة، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالتمعن في القرآن الكريم والاستفادة القصوى منه وعدم الاكتفاء بالفهم العابر الذي يتحقق لدى كل قارئ عربي.

نعم نحن نعتقد أن من جملة ما يمنح العلماءَ قدرةً على سبر أغوار القرآن، ويقرّبهم من الفهم الصحيح للآيات القرآنية هو رجوعهم إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والأنس بمنطقهم والتثقف بعلومهم، لأنّهم قرين القرآن وعديله كما ورد عنه صلى الله عليه وآله: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[٢].

وأمّا الصنف الثالث فهو الصنف الذي لابد فيه من مراجعة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، فهم المطّلعون على أسرار كتاب الله العزيز والمحيطون بحدود التشريع حيث يعتبر هذا من جملة مزاياهم التي تميّزوا بها على غيرهم، ولذلك تضمنت كثير من النصوص التي تدعو إلى الرجوع للأئمة عليهم السلام بيان انّهم الراسخون في العلم، وانّهم العارفون بالتأويل والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك مما يدل على أن ضرورة الرجوع إليهم إنّما هو في هذا النمط الخاص من الآيات أو في نمط خاص من الفهم الأعمق للآيات الكريمة[٣] فحسب.

---

(١) المقدمة، ج: ٤ / ٧٩٢، طبع بيروت ١٩٥٦.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري: ٣ / ١٨٤، وأخرجه الذهبي واعترف كلاهما بصحته على شرط الشيخين.

(٣) انظر: وسائل الشيعة: ١٨، باب ١٣ من أبواب صفات القاضي ١٢٩.

«الدرس ٢٢»

ويؤكد ما ذكرناه من النصوص..

منها: روايــة زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «تفســير القرآن على سبعة أوجه، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد يعرفه الأئمة عليهم السلام»[١].

ومنها: رواية إســماعيل بن جابر عن الصــادق عليه السلام[٢].. إلى أن قال: ثم سألوه عليه السلام عن تفسير المحكم من كتاب الله، قال: «أمّا المحكم الذي لم ينسخه شيء فقوله عزّ وجل: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٣] الآية، وانّما هلك الناس في المتشابه، لأنّهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته فوضعوا له تأويلاً من عند أنفســهم بآرائهم واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء ونبذوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم...» الحديث[٤].

حيث يبدو من الحديث اختصاص الأوصياء بخصوص المتشــابه الذي هلك به الناس، وأن الناس في ذلك فقط نبذوا قول الرسول صلى الله عليه وآله.

ومنها: مــا عن أمير المؤمنــين عليه السلام في احتجاجه على زنديق ســأله عن آيات متشــابهات من القرآن فأجابه ـ إلى أن قال ـ: «ثم إنّ الله قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه ولطف حسّه وصح تمييزه ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعلمه إلاّ الله

---

(١) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٥.

(٢) في مقدمــة الحديث بأنّ الله بعث محمّداً... فجعله ـ يعني القــرآن ـ النبي علماً باقياً في أوصيائه فتركهم الناس.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

(٤) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٧.

وملائكته والراسخون في العلم...» إلخ[١].

وقد اتضح من خلال ما تقدم أن ما سوى الصنف الثالث يمكن للعالم المتخصص البصير بلغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام أن يفهمه من القرآن الكريم ويستنير بهداه.

وأمّا الصنف الثالث فبعضه مبيّن في النصوص الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام، لكن يجب توخي النصوص المعتبرة التي يمكن الاعتماد عليها، ولا يكفي مجرد ورود الرواية عنهم صلوات الله عليهم.

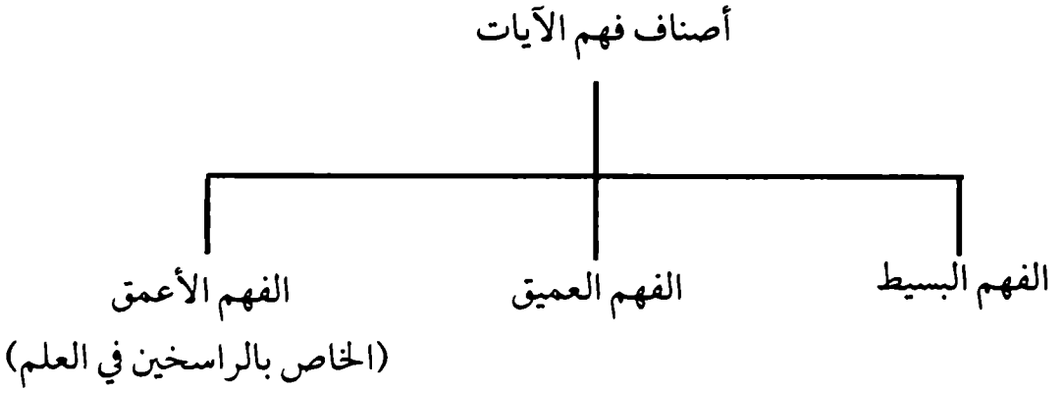

(١) وسائل الشيعة: ١٨ / ١٤٣.

الخلاصة

١ ـ تم اثبات حجية الدلالة القرآنية، ويشهد على ذلك..

أ) مجموعة الآيات الواضحة في دعوتها للتأمل والتدبر في القرآن الكريم.

ب) تواتر النصوص الداعية الى رجوع المسلمين للقرآن والعمل به، مما يكشف عن حجية دلالته.

ج) الروايات التي تشترط حجية الرواية عدم مخالفتها للقرآن وفي بعضها اشتراط موافقتها له، فيكشف ذلك عن حجية دلالته.

٢ ـ آيات القرآ، أو الفهم للآيات القرآنية على ثلاثة أصناف..

أ) الآيات الواضحة أو الفهم الواضح لكل من يعرف اللغة العربية.

ب) المستوى من الفهم او الآيات التي يفهمها العلماء والمتخصصون.

ج) الآيات الغامضة التي ترمز إلى معانٍ يرجع في تحديدها إلى الراسخين في العلم.

الأسئلة

١ ـ قوله تعالى: ﴿.. إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قد يدّعى أنّه لا ينسجم مع كون الرسول ﷺ هادياً للبشرية جمعاء بل للعرب فقط، اذكر أربعة من الشواهد على ردّ هذا الادّعاء.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قد يُفهم منه أنّه لا يلتئم مع ادّعاء أمميّة الإسلام، وانّه مختص بأهل مكة وما حولها، اذكر خمسة من الشواهد على إبطال هذه الشبهة.

٣ ـ اذكر الأنحاء الثلاثة من الآيات أو الفهم القرآني.

٤ ـ كيف نوفق بين دعوة القرآن والسّنّة إلى التدبر في الآيات وبين النصوص التي تؤكد أن القرآن لا يفهمه الاّ النبي أو الإمام؟

المبحث الثامن: المحكم والمتشابه

تعرّض القرآن الكريم للمحكم والمتشابه من الآيات، وذكر أن هناك فارقاً هاماً بينهما حيث يحقّ للناس اتباع المحكم، بينما المتشـــابه لا يتبعه إلاّ المنحرفون تحقيقاً لأهدافهم الفاسدة بغية الفتنة.

ومن هنا كان لزاماً علينا تمييز المحكم عن المتشـــابه لنكون على بصيرة في تعاملنا مع الآيات القرآنية الكريمة.

المعنى اللغوي:

ذكرت لمادة الإحكام عدة معان لغوية نذكر منها..

١) الإتقان.

٢) ان المحكم هو الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب .

٣) المنـــع، والردّ عن الظلم، وعن الأصمعي: «أصل الحكومة ردّ الرجل عن الظلم»، قال: ومنه ســـمّيت حَكَمَة اللجام لأنّها تـــرد الدابّة، وعن جرير: «أحكِموا سفهاءكم أي امنعوهم».

ويمكـــن إرجاع المعنيين الأولين الى المعنى الثالث، لأن المنع يقتضي اتقان الشيء وتحصينه من الاضطراب والاختلاف.

كما ذُكرت لمادة المتشابه في اللغة عدة معان، أهمها معنيان..

١) التشـــابه. قال ابن منظور: «فإنّ أهل اللغة قالوا معنى ﴿مُتَشَـــابِهاً﴾ يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن».

٢) الالتباس بسبب قوة الشـــبه، قال في القاموس: تشابها واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا.

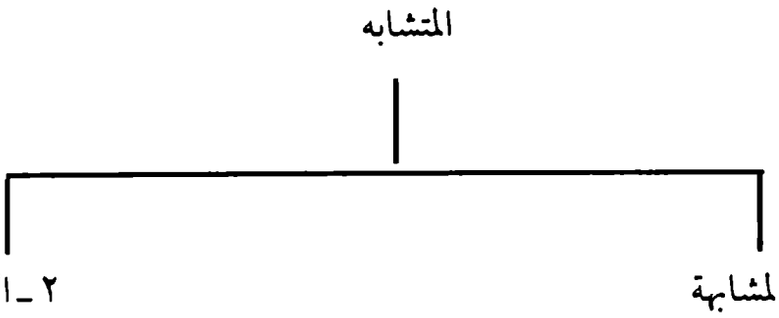

وفي القرآن الكريم وقعا وصفين للقرآن وللآيات الكريمة في عدة آيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[٢].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ...﴾[٣].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٤].

ويتركّز البحث هنا عن الآية الرابعة، ومن خلال ذلك يتضح معنى الآية الثالثة.

---

(١) سورة هود: ١.

(٢) سورة الزمر: ٢٣.

(٣) سورة محمد: ٢٠.

(٤) سورة آل عمران: ٧.

«الدرس ٢٣»

وقبل ذلك نشير ـ بايجاز ـ إلى ما ذكره المفسّرون حول الإحكام والتشابه في الآيتين الأُوليين حيث وقعا وصفين لكل آيات القرآن وللقرآن نفسه، رغم أنّهما أجنبيتان عن بحثنا هنا.

أمّا الآية الأولى فقد ذكر الشيخ الطوسي في تفسيرها أن الإحكام منعُ الفعل من الفساد، وحكي عن مجاهد أنّه قال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ على وجه الجملة ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: أي تبيّنت بذكرها آية آية[1]. واقتبس منه السيد الطباطبائي حيث قال: «المراد بالإحكام حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول، وهي كونه واحداً لم يطرأ عليه التجزي والتبعيض بعد بتكثر الآيات، فهو اتقانه قبل وجود التبعض، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف وصف الإحكام والإتقان الذي لبعض آياته بالنسبة إلى بعض آخر ـ يشير ﷺ للآية الرابعة ـ من جهة امتناعها عن التشابه في المراد»[2].

والذي نرجّحه - والله العالم - أن وصف الآيات بالإحكام باعتبار مضمونها وأنه الصالح والثابت الذي لا يشوبه الباطل، فيكون محكماً، في مقابل المضامين الخاوية للمبادىء المنحرفة التي لا صلاح فيها للإنسان ولا واقعية لها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ... وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[3]. وعلى هذا التوجيه يتّضح الوجه في عطف

---

(١) انظر: التبيان: ٥ / ٤٤٦.

(٢) انظر: الميزان: ٣ / ٢٠.

(٣) سورة ابراهيم: ٢٤ - ٢٦.

التفصيل على الإحكام في الآية بحرف «ثم»، باعتبار أن التفصيل في مرحلة بيان تلك المضامين المحكمة، وهو متأخر عن طبيعة تلك المضامين وواقعها الرصين.

وأمّا الآية الثانية فقد قال فيها الشيخ الطوسي رحمه الله: متشابهاً في الحِكَم التي فيه من الحجج والمواعظ والأحكام التي يعمل عليها في الدين وصلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه[1].

وقال السيد الطباطبائي رحمه الله في تفسير التشابه في هذه الآية بـ«كون آياته ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم واتقان الأسلوب وبيان الحقائق والحكم والهداية إلى صريح الحق كما تدل عليه القيود المأخوذة في الآية، فهذا التشابه وصف لجميع الكتاب...»[2] هذا كلّه فيما يرتبط بالآيتين الأُوليين.

أقول: الذي يبدو من الآية الكريمة أن المنظور الأساس في التشابه هو التشابه في مضامين الكتاب وانسجام بعضه مع بعض في ذلك ـ كما قال الشيخ الطوسي رحمه الله وأما التشابه في الصياغة والأسلوب فهو ملحوظ بالتبع.

وأمّا الآية الرابعة ـ وهي المقصودة بالبحث هنا ـ فقد اختلف المفسّرون في تفسير الإحكام والتشابه الواردين فيها اختلافاً شاسعاً.

كما اختلفوا في سبب نزولها فقيل: أنّه عنى به وفد نجران لمّا حاججوا رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر عيسى عليه السلام وسألوه فقالوا: أليس هو كلمة الله وروحاً منه، فقال: بلى، فقالوا: حسبنا ـ يقصدون أن القرآن قد وافقهم مقولتهم في عيسى عليه السلام ـ، فأنزل الله ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ...**﴾ إلخ.

وقيل: هم اليهود طلبوا علم أُكُل هذه الأمّة أي مقدار رزقها وحظها من الدنيا.

---

(١) التبيان: ٩ / ٢١.

(٢) الميزان: ٣ / ٢١.

وقيل هم المنافقون[١]. وقيل غير ذلك...

ونشير هنا إلى أهم الآراء في تفسير الإحكام والتشابه فى هذه الآية:

١) إنّ المحكم هو المبين، والمتشابه هو المجمل.

٢) انّ المحكم من القرآن الآيات الناسخة، والمتشابه الآيات المنسوخة.

٣) إنّ المحكم ما يكــون هناك دليل على معناه ســواء كان ذلك الدليل واضحاً أم خفياً، والمتشابه ما لا يكون هناك دليل عليه يمكن الرجوع إليه ليدل عليه، مثل وقت قيام الساعة. ونسب الزرقاني هذا الرأي لمن سمّاهم أهل السنّة[٢].

٤) انّ المحكم ما يراد منه ظاهره، والمتشابه ما يراد منه خلاف ظاهره.

٥) إنّ المراد بالمتشــابه كون الآية بحيث لا يتعين مرادها لفهم الســامع بمجرد اســتماعها، بل يتردد بين معنى ومعنى حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتُعيّن هي معناها وتبيّنها بياناً، فتصير الآية المتشــابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة بنفسها.

وهــذا الرأي اختــاره الســيد الطباطبائي، وذكر قدس سره ان ســبب وصف المحكمات بأنّها أم الكتاب ـ والأم بحســب أصل معناه مــا يرجع إليه الشيء ـ ليس إلاّ أنّ الآيات المتشــابهة ترجع إليها. فالبعض من الكتاب ـ وهي المتشابهة ـ ترجع إلى بعــض آخر ـ وهي المحكمات ـ قال: «ومن هنا يظهر أنّ الإضافة في قوله: أم الكتاب ليست لامية كقولنا: أم الأطفال، بل هي بمعنى (من) كقولنا: نساء القوم، وقدماء الفقهاء ونحو ذلك، فالكتاب يشتمل على آيات هي أم آيات أخــر، وفي إفراد كلمة الأم من غير جمع دلالة على كون المحكمات غير مختلفة في أنفسها، بل هي متفقة مؤتلفة»[٣].

---

(١) انظر: مجمع البيان: ٢ / ٧٠١.

(٢) انظر: مناهل العرفان: ٢ / ٢٩١.

(٣) انظر: الميزان: ٣ / ٢٠.

والأرجح أن المقصود من الإحكام هو المنع ومن التشـابه هو الالتباس، وذلك أن بعض الآيات القرآنية ـ وهي أسـاس ومعظمه ـ واضحة في دلالتها بحيث لا يبقى مجال للمنحرفـين في تحريف معناها وهي الآيات المحكمة، بينما بعـض الآيات ـ لبعـض العوامل التي تأتي ـ فيها نحو مـن الالتباس والإبهام بالنحو الذي قد ينفذ من خلاله هؤلاء المنحرفون، وهي الآيات المتشابهة.

«الدرس ٢٤»

ثم عندما نتمعّن في الآية الكريمة نلاحظ ما يلي:

١ ـ إنّها قسّمت الآيات إلى قسمين، ويبدو منها أن القسمين متباينان وغير متداخلين، فلكلٍّ منهما وصف خاص وأتبـاع معيّنون، حيث إنّ المحكمات أمّ الكتاب، بينما المتشابهات ليست كذلك، كما أنّها تتميز «ثانياً» بأنّ تأويلها مختص بالله تعالى أو بما يشمل الراسخين في العلم. و«ثالثاً» أن أتباعها الذين في قلوبهم زيغ، بخلاف المحكمات.

٢ ـ وصـف المحكمات بأنّها أم الكتاب، قال الرازي في توجيه ذلك: الأُم في حقيقـة اللغة الأصل الذي يكون منه الـشيء، فلما كانت المحكمات مفهومة بذواتها، والمتشـابهات انّما تصـير مفهومة بإعانة المحكـمات، لاجرم صارت المحكمات كالأُم للمتشابهات[1].

وعلى هـذا ـ الذي بنى عليه كثير من العلـماء ـ تكون الآيات المحكمات مرجعاً لفهم الآيات المتشابهة، وأنّها ليست أجنبية عنها.

٣ ـ ان الآية الكريمة فرضت إمكانية اتباع الآيات المتشابهة، ومعنى هذا ان الآيات المتشـابهة ليسـت بالضرورة تكون مبهمة يمتنع اتباعها، كالحروف

---

(١) تفسير الرازي: ٧ / ١٧٣.

المقطعة ونحوها ـ على فرض ابهامها المطلق ـ بل ربّما يُفهم من الآية أن هناك ظهوراً للآيات المتشابهة في معنى ما، وأنّها ليست موجبة للحيرة المطلقة والإبهام وإلاّ لم يتحقق ولم يصدق الاتباع لها من جانب المنحرفين.

٤ ـ يبدو من الآية الكريمة أن أتباع المتشابه هم أهل الزيغ والمنحرفون، ولا يشمل كل من أخطأ في فهم القرآن، بل ربّما يفهم منها أن هدف المنحرفين من اتّباع المتشابه هو الفتنة من خلال التفسير الكيفي الموافق لأهوائهم.

ومن مجموع هذه الملاحظات وبعض الشواهد الأخرى يمكن أن نفهم المقصود من المحكم والمتشابه في الآية الكريمة... بأنّ هناك مجموعة من الآيات تنافي بظاهرها بعض المفاهيم أو الأحكام الإسلامية التي دلّت عليها الشواهد والأدلة المعتبرة ـ سواء كان القرآن الكريم نفسه أم السنّة أم حكم العقل اليقيني ـ فتوجب وقوع الإنسان في الالتباس وسوء الفهم ـ كما تدل عليه لفظة المتشابه ـ، مما يفتح المجال للمنحرفين كي يبثوا سمومهم ويثيروا الشبهات حول القرآن الكريم أو الإسلام أو بعض التعاليم الصحيحة، وهذه هي الآيات المتشابهة التي أمر الله سبحانه المسلمين أن يتعاملوا معها بتعقل ورويّة، فلا هم ينزلقون في منزلق المنحرفين ولا هم يرفضون انتسابها للقرآن مثلاً، بل يؤمنون بها إجمالاً موكلين تحديد معانيها التفصيلية لله سبحانه ولو من خلال من خصّهم بعلمها، وهم الراسخون في العلم.

ورغم وجود هذه المجموعة من الآيات فإنّه لا يؤثر على دور القرآن الرئيسي وأهميّته باعتباره كتاب هداية ومناراً، لأنّ المحكمات من الآيات متكفلة للقيام بهذا الدور ووافية به، وكأنّ التعبير بأمّ الكتاب يشير إلى ذلك. والله سبحانه العالم.

وعندما نرجع إلى السنّة نجد مجموعة من النصوص تشير إلى المحكم والمتشابه بما ينسجم مع هذا المعنى، منها:

١ ـ ما ورد عن النبي ﷺ: «وإنّ القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضاً، ولكن

نزل يصدّق بعضه بعضاً، فما عرفتم فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنوا به»[١].

٢ ـ وعن الإمام الصادق عليه السلام: «المحكم ما يعمل به والمتشابه ما اشتبه على جاهله»[٢].

٣ ـ وعن الإمام الرضا عليه السلام: «من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم ـ ثم قال ـ إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن فردّوا متشابهها إلى محكمها ولا تتبعوا متشابهها فتضلوا»[٣].

وقد يتساءل المرء عن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن، وللاجابة على ذلك نشير إلى ثلاثة أمور قد تكمن فيها حكمة وجود المتشابه:

الأول: طبيعة المضمون وعمقه التي تحول دون التعبير عنه بعبارات موجزة كاشفة عن حقيقته، فيكتفي القرآن الكريم بالإشارة إليها، مثل كيفية خلق عيسى عليه السلام ـ كما جاء في سؤال النصارى ـ .

الثاني :تأكيد حالة التعبّد والخضوع العملي لله تعالى ، لأن الحياة مليئة بالفتن والاختبارات المتنوّعة ، كما قال الله تعالى: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾[٤] وما لم تتأكد قضية التعبّد في نفس المؤمن يضعف ارتباطه الروحي بالله تعالى ولا يلبث أن يزيغ متأثراً بالمنحرفين من أصحاب المواهب القادرين على التأثير في مستمعيهم وأتباعهم.

الثالث : توجيه المسلم إلى التمسّك بالمنهج الإلهي للطاعة، والحجج الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا سبلاً إلى هدايته ، بدلاً من التخبّط يميناً وشمالاً تبعاً لاحتمالات واستحسانات تفتقر إلى الحجة والبرهان، كما يحدث ذلك بتأثير الغرور النفسي الذي يصدّ الإنسان عن الاعتراف بالجهل والعجز. والله العالم.

---

(١) الدر المنثور: ٢ / ٨.

(٢) تفسير العياشي: ١ / ١٦٢.

(٣) عيون أخبار الرضا: ١ / ٢٩٠.

(٤) سورة العنكبوت : ١ ـ ٢ .

الخلاصة

١ ـ المحكم في اللغة من الإحكام وهو المنع. والتشـابه في اللغة له معنيان التشابه والالتباس.

٢ ـ قولـه تعـالى: ﴿...مِنْهُ آيَـاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُـنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، المتشابه هو ما ينافي بظاهره بعض المفاهيم أو الأحكام الثابتة بأدلة معتبرة بحيث يحاول المنحرفون النفوذ منه لإثارة الشـبهات، في مقابل المحكم المصون من ذلك.

٣ـ إن وجود المتشابه لا يؤثر على مرجعية القرآن الكريم وكونه مصدر هداية.

٤ ـ لعلّ من أسباب وجود المتشابه في القرآن ثلاث أمور..

أ) طبيعة المضمون وعمقه.

ب) تأكيد حالة التعبد والخضوع العملي لله تعالى.

ج) توجيه المسلم لمراجعة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وتقوية شعوره بذلك.

«الدرس ٢٥»

المبحث التاسع: الناسخ والمنسوخ

النسخ في اللغة يستعمل في عدة معان ، منها..

١) الإزالة[١]، مثل : ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾[٢].

٢) نقل الشيء وتحويله مع بقائه، فعن السجستاني: النسخ ان تحوّل ما في الخلية من العسل و النحل في أخرى[٣].

وأمـــا في الاصطلاح فـ «هو رفع أمر ثابت في الشريعة المقدســة بارتفاع أمده وزمانه ، سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية أم الوضعية ، وســواء أكان من المناصب الإلهية أم غيرها من الامور التي ترجع إلى الله تعالى بما أنه شارع»[٤].

ومن خلال هذا التعريف يتضح أن النسخ في القرآن بل في الشريعة بشكل عام لا يستند إلى انكشاف أمر مجهول لله سبحانه وتعالى، بل يرجع إلى مجرد نقض دلالة الدليل السابق أو ظهور حالة في الدوام.

وهذا نظير معنى البداء الذي ورد في العديد من النصوص حيث لا يراد منه أنّه ينكشــف لله تعالى وجه الصلاح والفساد في الشيء، لأنّ الله سبحانه عالم بالخفيات وبحقائق الأمــور كلّها ولا تخفى عليه خافية، بل المراد به «ظهور أمر

---

(١) مجمع البحرين : ٢ / ٣٠٢ .

(٢) سورة الحج: ٥٢.

(٣) معجم مقاييس اللغة : ٥ / ٤٢٥ .

(٤) البيان في تفسير القرآن : ٢٩٦ .

أو أجل كان محتماً عنده تعالى من الأزل وخافياً على الناس ثم بدا لهم أي ظهرت لهم الحقيقة»[١].

والفرق بين النسخ والبداء المذكور هو أن النسخ يكون في الأحكام أو في آيات القرآن، بينما البداء في التكوينيات أو غيرها من الأمور الاعتبارية غير الفقهية.

كما أن الفرق بين النسخ والتخصيص: ان النسخ تخصيص أزماني، والثاني تخصيص أفرادي. كما يذكر في أصول الفقه.

وعلى كل حال فقد أكدت المصادر الإسلامية، ومنها القرآن الكريم نفسه تحقق النسخ في القرآن قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

هذا، وقد ذكروا للنسخ في القرآن ثلاثة أقسام..

الأول: نسخ الحكم والتلاوة

بمعنى أن تنزل آية بمضمون ينافي مضمون آية أخرى فتحذف الآية الأولى من النص القرآني وينتهي أمد مضمونها.

وقد أثبت كثير من أبناء العامة أو أكثرهم هذا القسم معتمدين على أحاديث تضمنتها كتبهم المعتمدة..

منها: ما أسندوا إلى عائشة أنّها قالت: «كان فيما أُنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرّمن» ثم نسخن «بخمس معلومات» قالت: وتوفي

(١) تلخيص التمهيد: ١ / ٤١٤. ولمزيد من الإطلاع حول البداء انظر: البيان في تفسير القرآن من صفحة ٤٠٧.

(٢) سورة البقرة: ١٠٦.

رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن»[١].

ونلاحظ ان مضمون هذه الرواية ـ الصحيحة عندهم ـ غريب جداً، حيث يفترض بقاء الآية المزعومة إلى ما بعد وفاة الرسول ﷺ فنتسائل: انّها كيف اختفت؟ ومن أخفاها بعده[٢]؟

وقد ادّعى الزرقاني إجماع القائلين بالنسخ على وقوع هذا القسم، ويقصد بهم خصوص علماء العامة. متجاهلاً تماماً آراء العلماء من شيعة أهل البيت عليهم السلام حيث أنكروا هذا النوع من النسخ، ووافقهم في ذلك بعض العامة كالجزيري، بينما وافق السرخسي على نسخ الحكم والتلاوة لكنه رفض الالتزام بظاهر الروايات المذكورة[٣].

«الدرس ٢٦»

الثاني: نسخ التلاوة دون الحكم

بمعنى أن ترفع تلاوة آية من القرآن الكريم سواء لم تكن من آيات التشريع أم كانت ، لكن حكمها يبقى غير منسوخ.

وقد التزم بوقوع هذا القسم عدد كبير أو العدد الأكبر من علماء العامّة حتى السرخسي وابن حزم. واعتبروا من ضمنها ما ورد من النصوص التي تضمنتها كتبهم المعتبرة..

منها: ما صحّت روايته عندهم عن عمر بن الخطاب انّه قال: كان فيما

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٠ / ٢٩. وقد حكي عن السرخسي ان الشافعي صحح الحديث المذكور. وقد حاول النووي توجيهه بأن بعض الناس كانوا يقرؤونها جهلاً بالنسخ.

(٢) ما أدري كم كان حجم التهم على شيعة آل البيت عليهم السلام ، لو كانت أمثال هذه الرواية في مصادرهم حتى إذا لم تكن ذات قيمة علمية!

(٣) انظر: اصول السرخسي:٢ / ٧٨. والفقه على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

أُنزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة)[١].

وفي لفظ أبي داوود) «.. وأيم الله لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله عزّ وجلّ لكتبتها»، ونظير ذلك فى موطأ مالك.

ومنها: ما رووه عن أبي موسى الأشعري من قوله: «.. وإنا كنّا نقرأ سورة كنّا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأُنسيتُها غير أني قد حفظتُ منها (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً * ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب) وكنّا نقرأ سورة كنّا نشبهها بإحدى المسبّحات فأُنسيتُها غير أني حفظتُ منها (يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون فتُكتَبُ شهادةً في أعناقكم فتُسألون عنها يوم القيام)»[٢].

وكذلك رواية أُبي بن كعب: «أن رسول الله ﷺ قال له : إن الله أمرني أن أقرأ عليك ، فقرأ عليه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فقرأ فيها: (إن ذات الدين عند الله الحنيفية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية . من يعمل خيراً فلن يكفره). وقرأ عليه (ولو أن لابن آدم وادياً من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له ثانياً لابتغى إليه ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب)[٣].

ومنها: ما رووا أن أبابكر كان يقرأ (لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم) وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب انّه قال: ثم إنّا كنّا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله (أن لا ترغبوا عن آبائكم) أو (انّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم)[٤].

---

(١) الجامع الصحيح: ٤ / ٢٥٨. وكذا أبو داوود في الحدود: ٣ / ١٤٥، وابن ماجه في الحدود: ٣/ ٢٣٢، ومالك في الحدود: ٥٤٨، وأحمد بن حنبل في مسنده: ٥ / ١٨٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٧/ ١٤٠ .

(٣) سنن الترمذي باب المناقب) ٥ / ٦٦٦ وقال: هذا حديث حسن صحيح . وقد روي من غير هذا الوجه.

(٤) الجامع الصحيح : ٤ / ٢٥٨. وصحيح مسلم: ٤ / ١٦٧، و ٥ / ١١٦.

ومنها: ما رووا أن أنس بـــن مالك كان يقول: قرأنا في القرآن (بلّغوا عنّا قومنا انّا لقينا ربّنا فرضي عنا وأرضانا)[١].

ومنهـــا: ما رووه عن عبدالله بن عمر: لا يقولـــن أحدكم أخذت القرآن كلـــه، ما يدريه ما كله؟ قد ذهب منه قرآن كثـــير ولكن ليقل: قد أخذت منه ما ظهر[٢].

هذا وقد رووا عن عائشـــة قولها: قد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلما مات رســـول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها[٣].

وقـــد رووا روايات أخرى كثيرة تؤكد الحذف والزيادة بالنســـبة للقرآن الذي كان في زمن الرسول ﷺ ولكنّهم سمّوه نسخاً لا تحريفاً!

وقد رفض علماء الشـــيعة ـ كما ســـنلاحظ ـ هذين النوعين، فعن الشيخ المفيد «والنســـخ عندي في القرآن انّما هو نسخ متضمَّنِه من الأحكام، وليس هو رفـــع أعيان المُنزل منه، كـــما ذهب إليه كثير من أهل الخـــلاف... وهذا مذهب الشـــيعة وجماعة من أصحاب الحديث وأكثر المحكِّمـــة والزيدية، ويخالف فيه المعتزلة وجماعة من المجبِّرة، ويزعمون أن النسخ قد وقع في أعيان الآي كما وقع في القرآن»[٤].

---

(١) انظر: أصول السرخسي: ٢ / ٧٨، والفقه على المذاهب الأربعة: ٣ / ٢٥٧.

(٢) الإتقان: ٣ / ٧٢.

(٣) انظر: المحلى: ١١ / ٢٣٤.

(٤) أوائل المقالات، الطبعة الثانية: ١٤٠.

«الدرس ٢٧»

الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة

وهذا هو المعروف بين العلماء والمفسرين قيل: «واتفق الجميع على جوازه امكاناً وعلى تحققه بالفعل أيضاً»[١].

وقد شهد القرآن الكريم نفسه بوقوع هذا القسم. كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[٢]. حيث لم يعمل بها سوى الإمام علي عليه السلام ـ كما روى أصحاب الحديث في قضية معروفة ـ فنسخت بآية أخرى بعدها ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

وفي هذا القسم تبقى الآية المنسوخة ثابتة في القرآن، لكن حكمها أو مفادها ينسخ ولا يستمر.

والقسم الثالث من النسخ ـ وربّما يعم الحديث غيره عند من لا يخصّص النسخ بهذا القسم ـ أربع صور:

١ ـ أن ينسخ مفاد آية بمفاد آية أخرى لاحقة في نزولها، بحيث تكون الآية الثانية ناظرة للأولى، كآية الصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الصورة لاشك في وقوعها، كما شهد به القرآن الكريم نفسه.

٢ ـ أن ينسخ مفاد آية بمفاد آية أخرى لاحقة، من دون أن تكون الآية

(١) تلخيص التمهيد: ٢ / ٤٢٩.

(٢) سورة المجادلة: ١٢.

(٣) سورة المجادلة: ١٣.

اللاحقة ناظرة للسابقة، بل من خلال المنافاة التي تبدو بين مضمونيهما يُحكم بالنسخ، وقد اختلف العلماء في هذا القسم، ويبدو من السيد الخوئي قدس سره انكاره[١]، لأنّه لا دليل على كون الآية اللاحقة ناسخة للآية السابقة، فربّما يكون فهم التنافي بينهما نتيجة عدم التدبر في معنى الآيتين.

٣ ـ أن ينسخ مفاد الآية بسنّة قطعية لاشك فيها، ومثّلوا له بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

فإنّها بظاهرها لا تتنافى مع آية العدة والمواريث إلاّ انّ السنّة المتضافرة وإجماع المسلمين أثبتا نسخها بآيات العدة والمواريث. وقد أنكر بعض المعاصرين هذا القسم من النسخ[٣].

٤ ـ نسخ السنّة بالقرآن ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[٤]. الناسخة للحكم السابق بالتوجه إلى بيت المقدس الذي كان ثابتاً بالسنّة.

ومنها: تجويز إتيان النساء في ليالي شهر رمضان، فقد روي انّه كان محرماً على المسلمين بمقتضى السنّة، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ...﴾[٥].

---

(١) انظر: البيان في تفسير القرآن: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٤٠.

(٣) انظر: تلخيص التمهيد: ١ / ٤٤٦.

(٤) سورة البقرة: ١٤٤.

(٥) سورة البقرة: ١٨٧.

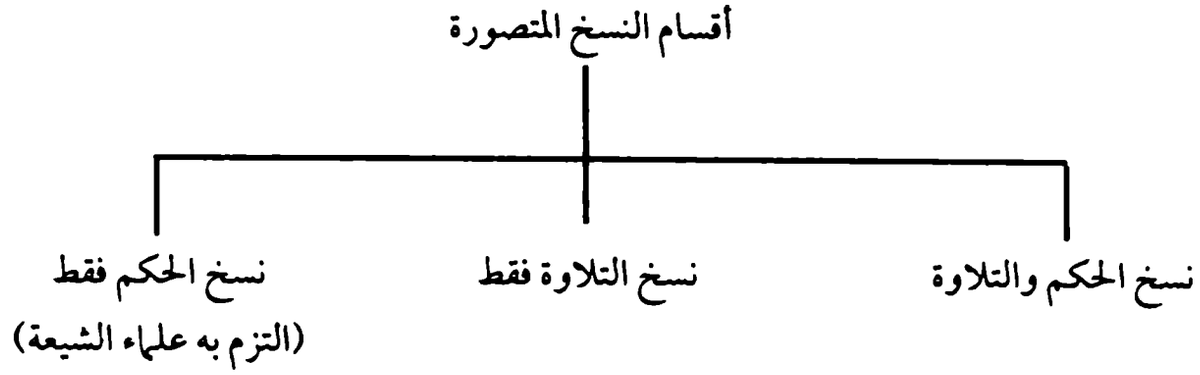

شبهات حول النسخ

أثيرت عدة شبهات حول النسخ، منها..

١ ـ انّه لو جاز على الله أن ينسخ حكماً لكان امّا لحكمة ظهرت له كانت خافية عليه أو لغير حكمة، وكلاهما محال، لأنّ لازم الأول نسبة الجهل له ولازم الثاني نسبة العبث إليه تعالى.

الجواب: إنّ النسخ يرجع إلى مقام الدلالة على الحكم، بمعنى انّ الله سبحانه عالم من أول الأمر أن أمد مصلحة الحكم محدودة بفترة معينة، لكن المصلحة لم تسمح بذكر هذا التحديد من أول الأمر فشُرّع الحكم الأول دائماً بظاهر دليله، ولذا قال الأصوليون: انّ النسخ تخصيص أزماني، فالحكم الناسخ يكشف أن تحديد الحكم الأول بهذا الزمان كان مقصوداً لله سبحانه من أول الأمر.

٢ ـ إنّ الآية الناسخة منافية للآية المنسوخة فوقوع النسخ يناقض مفاد الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[1].

الجواب: ان الآية الناسخة حيث كانت تكشف عن انتهاء أمد حكم الآية الأولى فلا تكون منافية ومناقضة للأولى، بل هي قرينة على معناها الواقعي وموافقة لها، أو قرينة على أمد وفترة فاعلية الآية الأولى، فلا تكون مناقضة لها.

---

(١) سورة النساء: ٨٢.

الخلاصة

١ ـ الأقسام المتصور للنسخ ثلاثة..

أ) نسخ الحكم والتلاوة.

ب) نسخ التلاوة دون الحكم.

ج) نسخ الحكم دون التلاوة، وهو ما التزم به شيعة أهل البيت عليهم السلام.

الأسئلة

١ ـ ما هو الوجه في وصف المحكمات بأنها أُمّ الكتاب؟

٢ ـ ما معنى المحكم والمتشابه في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1]؟

٣ ـ ما هي أقسام النسخ الثلاثة المدعاة في القرآن الكريم، وما هو القسم الذي التزمه شيعة آل البيت عليهم السلام؟

٤ ـ اذكر الصور الأربع للقسم الثالث من النسخ.

٥ ـ اذكر شبهة حول النسخ والجواب عنها.

٦ ـ اذكر الأنحاء الثلاثة من الآيات أو الفهم للآية الواحدة.

---

(١) سورة آل عمران: ٧.

القسم الثالث

«وحي القرآن ونزوله»

«الدرس ٢٨»

القسم الثالث : وحـي القرآن ونزوله

الوحـي من الأمور التـي دار حولها الجدل بين الباحثـين، والبحث فيه متعدد الجوانب فيبحث مرةً في حقيقة الوحي وواقعه، وأخرى في أصل وجوده والأدلة على ذلك. وثالثة في أقسامه... إلى غير ذلك ..

وسوف نتناول الموضوع ضمن نقاط:

أولاً: وحي القرآن

١ ـ الوحي في اللغة والقرآن

أ ـ الوحي في اللغة

اختلف علماء اللغة بين من اعتبر فيـه الخفاء والسرعة، ومنهم من اعتبر واحداً منهما فحسب.

قال الراغب: (أصل الوحي الإشـارة السريعة، ولتضمّن السرعة، قيل: أمـر وحيّ أي سريع، وذلك يكون بالكلام على سـبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة)[١].

وقال أبو اسحاق: (أصل الوحي في اللغة كلها، إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحياً)[٢].

---

(١) المفردات: ٥١٥. وقد ذكر بعض اللغويين معاني اخرى للوحي لا يهمنا البحث فيها.

(٢) لسان العرب: ١٥ / ٣٨١ .

ب ـ الوحي في القرآن

عنـد مراجعة القـرآن الكريم نلاحظ انّ الوحي قد اسـتخدم في موارد عديدة، منها..

١ ـ إيجاد الداعي في نفس الموحى إليه من دون أن ينتبه الشـخص لمصدر الوحي، سـواء كان من الله تعالى مثل قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾[١]. أم من الشـياطين كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٢].

٢ ـ الإلهام الغريزي، فيكون أثره فِعْل ما تمليه الغريزة قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٣].

ويمكـن إدراج هذين المعنيين تحت عنوان واحد هو الشـعور الباطني، والفرق الوحيد بينهما انّ الشعور الثاني من مقتضيات الفطرة الغريزية التي خُلق عليها الشخص بخلاف الشعور في المورد الأول فانه عارض.

٣ ـ الخَلْق، قاله بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾[٤].

بينما فسّره بعضهم بالوحي إلى أهل السماء أي الملائكة.

٤ ـ الإسرار، حكي في لسـان العرب عن الأنباري في تفسير قوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾. «معناه يُسّر بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف ثمّ قُصِر الوحي للإلهام»[٥].

---

(١) سورة القصص: ٧.

(٢) سورة الأنعام: ١٢١.

(٣) سورة النحل: ٦٨.

(٤) سورة فصلت: ١٢.

(٥) لسان العرب: ٥ / ٣٨٠، مادة وحي.

٥ ـ الإيـــماء، وقد فسّرت به الآية الكريمـــة المتحدّثة عن زكريّا ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِـيّاً﴾[١]. حيث أنّ زكريّا عليه السلام لم ينطق ولم يتحدّث معهم، بل أشـــار إليهم وأومأ إليهم فعرفوا ما يريد.

٦ ـ الإلهام مع شعور الشخص الملهَم بذلك سواء كان مصدر الإلهام هو الله تعالى، كما يلهِم ســـبحانه رسله مباشرةً بتعاليمه وإرشاداته وأحكامه أحياناً، قـــال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَـــهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً﴾[٢]، أم غيره مثل جبرئيل كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فإنّ مصدر الوحي في قوله ﴿فَيُوحِيَ﴾ هو الرسول مثل ما يوحي جبرئيل للنبي.

ويمكن أن يندرج تحت هذا النحو من الوحي كل الموارد التي اســـتخدم فيها الوحي منسوباً للقرآن الكريم مثل ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ﴾[٣] فقد كان وحي القرآن عن طريق جبرئيل عليه السلام كما تدلّ عليه الآية الكريمة ﴿نَزَلَ بِهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[٤]. حيث فُسّر الرّوح الأمين بجبرئيل عليه السلام. والله العالم.

٧ ـ مطلـــق التبليغ من الله تعالى للأنبياء ونحوهم الشـــامل للوحي بكل الأنحاء المختلفة، وذلك كما في الآيات التي تتحدّث عن الوحي للرّسل بشكل مطلق، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾[٥].

حيث لا تتحدث الآية الكريمة عن أسلوب معيّن من الوحي بل الوحي

---

(١) سورة مريم: ١١.

(٢) سورة الشورى: ٥١.

(٣) سورة يوسف: ٣.

(٤) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٥) سورة النحل: ٤٣.

فيها بمعنى عام ينطبق عليها كلّها حتى لو كان بصوت مسموع وليس إلهاماً، كما ورد أن النبي ﷺ كان يرى جبرئيل عليه السلام ويسمع صوته.

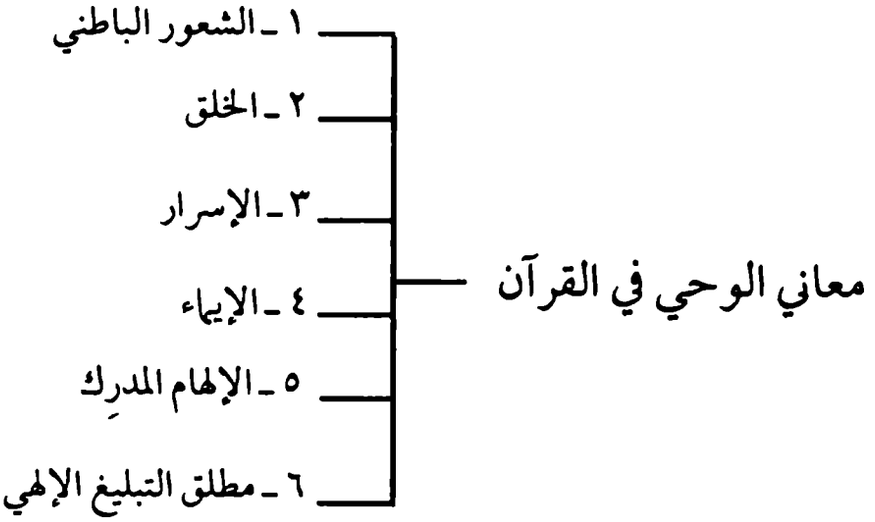

«الدرس ٢٩»

٢ـ حاجة الإنسان للوحي

تتضح مدى أهمية الوحـــي ودوره في حياة ومصير الإنســـان بملاحظة نقطتين:

النقطة الأولى: الإنسان اجتماعي بطبيعته

من الواضح انّ الإنسان اجتماعي لا يروم بل لا يمكنه العيش وحيداً من دون انضمام للمجتمع.

هنا يطرح تساؤل عن منشأ كون الإنسان اجتماعياً؟ يرى بعض الباحثين انّ الدافع الاجتماعي لدى الإنسان ليس فطرياً بل فرضته عليه الضرورة والمصلحة الذاتية، ويفسّر هؤلاء تكوّن المجتمعات بأنّ الإنســـان يفكر في مصالحه الذاتية ويحاول اســـتثمار كلّ شيء في سبيل تحقيق رغباته ومصالحه، وعندما أدرك أنّه لا يمكنه بمفرده توفير ذلك لنفســـه وانّ تحقيق بعض هذه الرغبات والمصالح بل كثير منها مرهون بجهود الآخرين التي لا يمكن ضمانها إلاّ بالتعاون والتعايش معهم اضطرّ إلى التعايش ولذلك تكوّنت المجتمعات.

ويستشـــهد أصحاب هذا الرأي على ذلك بأنّ الإنســـان حيث كان همّه هو تحقيق رغباته لذلك فهو لا يتوانى عن الاعتداء على الآخرين وتســـخيرهم والتجاوز على حقوقهم في سبيل ذلك، وانّه لا يحفظ حقوق الآخرين إلاّ عندما يعجز عن حفظ حقوقه ومصالحه من دون ذلك[1].

---

(١) انظر: كتاب (قرآن در إسلام): ١٢٨/ ١٣٢.

لكن الملاحظة التي نسجلها على هذه النظرية أن شعور الإنسان بالرغبة بل ضرورة الانخراط في المجتمع شعور فطري غريزي وليس بدافع المصلحة الذاتية، رغم إقرارنا بقضية اهتمام الإنسان وحرصه على مصلحته الشخصية.

وخير شاهد على ذلك ما نجده من الأمراض والمشاكل النفسية التي تواجه ابناء المجتمعات الغربية رغم الرخاء المادي الذي يعيشونه وتوفّر مستلزمات الحياة المترفة للأفراد، كل ذلك بسبب تفكك البنية الاجتماعية وفتور العلاقات والروابط الأسرية والاجتماعية بينهم، فكيف سيكون الحال لو افترضنا انهيار المجتمع بكامله؟!

ونلاحظ كذلك أن من أقسى الضغوط التي تمارسها السلطات ضد المعتقلين هو عزلهم في سجون انفرادية لكي لا تُلبى هذه الحاجة الفطرية لديهم.

إذن فالعيش ضمن المجتمع من أهمّ حاجات الإنسان ومتطلباته التي فُطر عليها.

النقطة الثانية: تنوّع الآراء والحاجة إلى القانون

بعد أن يتعايش البشر ضمن المجتمع ويشعرون بارتباط مصالحهم ببعضهم وتشابكها وضرورة تماسك مجتمعهم الذي يعيشون فيه تبرز مشكلتان:

الأولى: تنوّع الآراء المطروحة لحفظ الكيان الاجتماعي والمحافظة على حقوق أبناء المجتمع.

الثانية: ظهور بعض العناصر المنحرفة التي لا تكتفي بحقّها وتحاول سلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، واختلاق امتيازات غير مبرَّرة لأنفسها.

هاتان المشكلتان تحتّمان إيجاد مرجعية تشرف على إدارة المجتمع وتشريع قوانين تحافظ على تماسك المجتمع وتحفظ حقوق الأفراد فيه ولو نسبياً وبأعلى

نسبة ممكنة. وهذه هي الدولة ـ بمفاصلها واجهزتها المختلفة ـ في العصر الحديث.

ولكن يطرح السؤال عن المصدر الذي تعتمده الدولة في تشريعاتها وخطواتها؟

قد نجد من يجيب على ذلك بأن العقل البشري يصلح أساساً ومرجعاً لتمييز الخير من الشر، والنافع من غير النافع، فهو المَعين الذي يوجّه الدولة في قراراتها المختلفة. بل يهدي المجتمع إلى اختيار طبيعة النظام الأفضل الذي يناسبه.

لكن نلاحظ في هذا الجواب ثغرتين:

الأولى: ان من الخطأ أن ننظر إلى الإنسان نظرةً تجزيئية، بل لابدّ من شمولية النظر إليه، فنلاحظه بكل قواه وشخصيته وكل المؤثرات في سلوكه، ومن الواضح انّ الإنسان لا ينحصر تأثره بالعقل، ولا يقتصر في سلوكه على ما يرسمه له عقله. بل هناك الهوى والرغبات والغرائز النفسية المختلفة التي تؤثر في سلوكه ويختلف الأفراد فى مدى التأثر بكلٍّ منها شدّة وضعفاً، بحيث نجد العقل يضعف أمامها في كثير بل في أكثر الأحيان. فتنهار الحدود التي رسمها العقل وضوابطه التي حدّدت فاعلية كل منها.

يكفينا أن نلقي نظرة على بعض المجتمعات المتطورة والمرفهة مادياً فبرغم توفر كل الوسائل الكفيلة بسعادتهم إلاّ انّ فاعلية قوى الشر والرذيلة أدّت إلى سلبهم هذه السعادة، وزجّهم في متاهات لا نهاية لها، حيث ضعفت عندهم المثل الروحية وتبددت الأسرة وتفكّك المجتمع وانتشرت الفحشاء والمخدرات والجرائم المتنوّعة، وفقدت الحياة طعمها وحيويّتها، فصارت عبئاً على كثير منهم فعمّهم اليأس والاحباط ولجأوا إلى الادمان على الخمور والمخدّرات وحتى الانتحار للتخلص منها، رغم التطور التكنولوجي والجوانب المشرقة الأخرى بالإضافة إلى توفّر الوسائل المادية لديهم الكفيلة بحياة الرخاء والهناء.

الثانية: انّه لو كانت مساحة الحياة محصورة في هذه الدنيا فلربّما أمكن ادعاء الرجوع للعقل، ولو باعتباره المرجعيـــة الممكنة في هذه الحياة، إلاّ انّه حيث كنا نســـتقبل حياة أخرى بمعايير وقوانين تختلف عمّا في هذه الحياة، وبما ان الإنسان في هذه الحياة بعيد تماماً عن طبيعة ومتطلبات السعادة في ذلك العالم، ولا يعرف بالضبط مـــا ينفعه هناك وما لا ينفعه أو يضره فمن الطبيعي أن يتجه الإنســـان لربّه ليمنّ عليه برسم الخطوط العريضة له، ومنحه الآلية التي تساعده في بلوغ السعادة والمقام الرفيع في الآخرة، وذلك من خلال الوحي إلى الأنبياء ليُخرجوا الناس من الظلـــمات إلى النور، وليوقظوا الناس في هذه الحياة، لأنّ «الناس نيام إذا ماتوا انتبهـــوا» كما جاء في الحديث. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـــولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُـــمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1].

إذن للوحي دور حاسم في مصير الإنسان وتحديد ورسم الخطوط العريضة ـ على الأقل ـ في مسير حياته.

وقـــد تنبّه إلى أهمية الوحـــي ـ ولو ضمن تصوره ـ الفيلســـوف الفرنسي المعروف جان جاك روســـو، فقال: «... لاكتشاف أفضل أنواع قواعد المجتمع التـــي تتلاءم مع طبيعة الأمم، لابدّ من توفّـــر عقل ممتاز يرى جميع أهواء الناس ولا يعاني مـــن أي هوى، ولا تكون له أيّة علاقة مع طبيعتنا، لكنّه يدركها حتى أعماقها وتكون ســـعادته مستقلة عنّا، ومع ذلك يريد الاهتمام بسعادتنا، وأخيراً كيف يســـتطيع هذا العقـــل ـ وهو يراعي مجداً بعيداً لنفســـه في تقدّم العصور ـ العمل في قرن ليحصد ثماره في قرن آخر.

وبعبـــارة أخرى لابدّ مـــن آلهة، لتمنح القوانين للبـــشر... ولكن لا يحقّ لكلّ إنســـان أن يجعل الآلهة تتكلّم، ولا أن يكون مصدَّقاً عندما ينبىء الناس انّه

(١) سورة الجمعة: ٢.

ترجمانها فإنّ روح المشرّع العظيمة هي المعجزة التي يجب أن تثبت رسالته... انّ الشريعة اليهودية ما زالت باقية، وشريعة ابن إسماعيل «محمد» التي تحكم العالم منذ عشرة قرون ما برحت تنبىء حتى اليوم بعظمة الرجال الذين أملوها، وبينما لا ترى فيهم كبرياء الفلسفة أو روح التحيّز العمياء سوى دجالين حسني الحظ، فإنّ السياسة الحقيقية تُعجَب في مؤسساتهم بتلك العبقرية العظيمة والقوية التي تُشرف على منشآتهم الدائمة»[١].

«الدرس ٣٠»

٢ـ كيفية وحي القرآن:

بعد ملاحظة المعاني السّابقة للوحي والطرق المختلفة للإيحاء يبدو من بعض آيات القرآن والنصوص والأحداث التاريخيّة انّ القرآن الكريم أُنزل على الرسول ﷺ عن طريق أحد الملائكة المقرّبين وانّه جبرئيل عليه السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾[٢]. ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[٣]. وقال عزَّ من قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

وقد نصّت بعض التفاسير على أنّ المقصود من روح القدس هو جبرئيل عليه السلام.

---

(١) انظر: كتاب «في العقد الإجتماعي» ص ٨٢ و ٨٥ـ٨٦ تأليف جان جاك روسو، ترجمة ذوقان قرقوط. طبع دار القلم.

(٢) سورة البقرة: ٩٧.

(٣) سورة الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٤) سورة النحل: ١٠٢.

لكن مجموعة من الباحثين[١] يرون انّ بعض القرآن قد أوحي إلى الرسول ﷺ بشكل مباشر من دون توسط جبرئيل، ويستشهدون ببعض النّصوص المروية، إلاّ انّ الملاحظ ـ بالإضافة إلى ضعف سند أكثرها ـ انّها ليست صريحة في وحي القرآن. فلا تصلح دليلاً واضحاً في مقابل هذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها، والله العالم.

٤ـ تحديد المنزّل بالوحي:

من الواضح انّ الذي أُنزل على الرسول ﷺ هو القرآن الكريم بلفظه ومعناه، ويفترض أن لا يكون هناك ريب أو تردد في ذلك، ويكفي شاهداً على ذلك مجموعة من الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً...﴾[٤].

ولكن نسب إلى الأحناف ـ وربما غيرهم ـ رأي غريب، وهو أن القرآن الكريم اسم للمعنى فقط وليس اسماً للنظم والمعنى معاً[٥]. ويبدو أن القائلين بذلك اختلفوا على قولين:

أولهما: ان جبريل انّما نزل بالمعاني خاصة، وانّ النبي ﷺ علم تلك المعاني وعبّر عنها بلغة العرب.

---

(١) انظر: تلخيص التمهيد: ١ / ٢٢. وكذا غيره.

(٢) سورة آل عمران: ١٠٨.

(٣) سورة القيامة: ١٦-١٨.

(٤) سورة الشورى: ٧.

(٥) انظر: المذاهب الإسلامية الخمسة / بحث الدكتور محمد وفاريشي: ٢٥٦، مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

وثانيهما: انّ جبريل ألقى إلى النبي ﷺ المعنى، وانّه ﷺ عبّر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وانّ أهل السماء يقرؤونه بالعربية، ثم نزل به جبرئيل كذلك بعد ذلك[١].

ولكنّ تفاهة هذا الرأي وما تفرّع عليه تغني عن مناقشته. كيف! وقد قال تعالى ـ مخاطباً نبيّه ـ ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾[٢]. حيث يدل على أن آيات القرآن بألفاظ محدّدة مقروءة.

وكذلك آيات أخرى كثيرة تدل على وحي النص القرآني[٣].

وقد قيل ان أبا حنيفة رجع عمّا أوجب ذلك «وان القرآن الكريم عند الحنفية عموماً وأبي حنيفة خصوصاً اسم للنظم والمعنى جميعاً كما هو الشأن عند الأُمة كلها»[٤].

٥ـ شبهات حول الوحي والوحي القرآني

أ ـ شبهات حول الوحي

تعرّض الوحي ـ لكونه من الظواهر غير المألوفة للإنسان ـ إلى مجموعة من الشبهات والتساؤلات . وفي عصر النهضة المادية فى اوروبا واجه الباحثون الغربيون قضية الوحي بنظرة الريب بل الإنكار، ومن خلاله طعنوا في الرسول ﷺ ورسالة الإسلام.

وهذا الموقف منهم لا ينطلق من موقف سلبي خاص تجاه الوحي، بل

(١) انظر: البرهان للزركشي: ١/ ٢٢٩، والاتقان للسيوطي: ١/ ١٠٨ ـ ١٥٧ ط ، مطبعة أمير.
(٢) سورة القيامة: ١٦ ـ ١٨ .
(٣) انظر: كتاب (در آمدي بر وحيانيت الفاظ قرآن).
(٤) انظر: كتاب المذاهب الإسلامية الخمسة : ٢٥٨ .

يرتبط بنظرتهم العامّة لما وراء الطبيعة حيث إنّ اكثرهم حصروا الوجود بعالم المادّة، فمن الطبيعي أن يتنكّروا لما وراءه، وهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: المتطرفون الذين يتّهمون النبي ﷺ بالافتراء بهدف تحقيق مكاسب ومصالح دنيوية، مثل السلطة والشهرة.

الصنف الثاني: المعتدلون الذين يرون النبي ﷺ عبقرياً ذا شخصية نزيهة وطموحة، رام إنقاذ قومه من حالة الانحطاط والتخلّف التي كانوا غارقين فيها، من خلال أفكاره السامية التي كان يحملها، ونتيجة لإدراكه تخلّف قومه وعدم تفاعلهم مع أفكاره الإصلاحية قرّر الإيحاء لهم أنّه مرتبط بالله تعالى وأنّه مرسل من قبله بهذه الأفكار والمشاريع الإصلاحية حتى يكونوا أكثر استعداداً لتقبّل هذه الأفكار والدّفاع عنها.

والبعض من هؤلاء الغربيين يتعاملون مع كل الأنبياء على أساس هذه الفكرة، ولا يخصّون نبيّ الإسلام بذلك.

«الدرس ٣١»

والحقيقة انّ هذه الأفكار والشبهات ليست مستحدثة وانّما اقترنت ببداية بعثة الرسول ﷺ ودعوته، فقد واجهه قومه بهذه التهم الباطلة ورفضوا ارتباطه بالله تعالى، ولذلك نجد القرآن الكريم يردّ عليهم بتأكيد هذا الارتباط في مواضع عديدة من زوايا مختلفة وبصيغ متنوّعة، فتارةً يتحدّى الإنس والجن من أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأخرى يؤكد على ارتباط الرسول بالوحي وانّه لا يملك الخيارات، وأخرى يحاججهم بانتظام القرآن وعدم الاختلاف فيه.. وغير ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1].

(١) سورة البقرة: ٢٣.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١].

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[٢].

﴿وَمَا كَانَ هَـــذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِين﴾[٣].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[٤].

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[٥].

ويمكن مناقشة هؤلاء المنكرين بما يلي:

أ) الوجوه المتقدمة التي تثبت إعجاز القرآن وأنّه ليس من إنشاء البشر.

ب) الأدلة والشواهد المثبتة لعالم الروح، وعدم حصر الوجود بالعالم المادّي.

ج) اســتقامة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها وتحمّله المشاق والمصاعب في سبيل نشر رسالة الإسلام، حتى أثر عنه قوله: «ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُذيت»[٦]، إضافةً للأدلة الدالة على علمه بالمآسي التي تواجه أهل بيته، ممّا يكشف انّه لم يكن يقوم بدور مزيّف، بل هو مكلّف من ربّه بتبليغ الرسالة مهما كلّف الثمن، كسائر الأنبياء والرسل الذين تحمّلوا من قومهم ما تحمّلوا في سبيل أداء رسالتهم.

---

(١) سورة الإسراء: ٨٨.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) سورة يونس: ٣٧.

(٤) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٥) سورة النجم: ٣ ـ ٥.

(٦) بحار الأنوار: ٣٩ / ٥٦.

الصنـــف الثالث: الكتّاب والباحثون المعترفون بعالم الروح الذين فسّروا الوحي تفسيراً يختلف عمّا تقدم تفســيره، فقد قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحيــة تنبعث من داخــل الوجود، أي الروح الواعية هــي التي تعطينا تلكم الإلهامات الطيبة الفجائيــة في ظروف حرجة، وهي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر نفس تلك الروح المتقبّعة وراء جســمهم، متجسّدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة الله، هبطت عليهم من السماء، وما هي إلاّ تجلّي شخصيتهم الباطنية، فتعلّمهم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل وتهديهم إلى خير الطرق لهداية أنفســهم وترقية أمّتهم، وليس بنزول ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله[1]..

ويبــدو انّ الذي دعا هؤلاء ـ رغم اعترافهم بعالم مــا وراء الطبيعة ـ إلى هذا التفسير للوحي، هو ما وجدوه من مناقضة بعض محتويات الكتب المقدّسة للأديان الاخرى ـ وبالذات التوراة والإنجيل ـ لحكم العقل ولمكتشفات العلم الحديث، فبرّروا هذا التناقض بأنّه ناشــىء من اختلاط هذه الإيحاءات النفسية على الرسول، بسبب ضعف في شخصيته الروحية، وعدم بلوغه المستوى الرفيع من السمو والشفافية لإدراك كل الواقعيات على ما هي عليه[2].

والجواب على هذا الادعاء:

أولاً: انّه كيف ينسجم السمو الروحي والعبقرية المفروضة للأنبياء ـ التي يعترفون بها ـ مع هذا الاختلاط الغريب عليهم بحيث لا يميزون بين الإيحاءات النفســية وتلقّي الوحي الالهي خاصة ما يكون توسط الملك الذي يشاهدونه؟! مع ان الإنســان العادي منزّه عن هذا الاضطــراب، خصوصاً مع ملاحظة أن الوحي يلازم الأنبياء والرســل منذ بعثتهم إلى وفاتهم، وليس حالة آنية طارئة،

(١) تلخيص التمهيد: ١ / ٢٠.

(٢) انظــر: دائرة معــارف القرن العشرين: ١٠ / ٧١٥، فيما نقله عن ميرس، في كتابه الشــخصية الإنسانية.

فكيف يتصوّر هذا الاختلاط عليهم طيلة هذه الفترة؟!

ثانياً: انّا نلاحظ نمطاً من الآيات لا يعقل استنادها إلى سمو الشخصية الباطنية للأنبياء، مثل آيات العتاب للأنبياء، وكذا بعض آيات الأحكام التعبدية الصرفة التي لا ترتبط بالجانب الروحي، والآيات التي تشير إلى جوانب من الحياة الأخروية، خاصةً المرتبطة بجهنّم وعذاب الفاسقين، وغيرها من الآيات التي لا ترتبط مضامينها بالسمو الروحي والشخصية الباطنية للإنسان.

ثالثاً: انّ هذا التفسير للوحي نشأ من ملاحظة اضطراب كتب العهدين ونحوها ومناقضتها للعقل والعلم، وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم، البعيد عن هذا التناقض والاضطراب.

رابعاً: ان سلوك الرسول صلى الله عليه وآله يختلف تماماً عن سلوك الذين يفقدون التوازن الفكري بسبب اختلاط الايحاءات النفسية وعدم استيعابهم لمفردات العلوم الغريبة التي يهتمون بها، فقد كان صلى الله عليه وآله معروفاً بشخصيته المتميّزة و مواقفه الصلبة وقراراته الصائبة في الظروف الحرجة التي واجهته خلال مسيرته الرسالية. وتنزّه عن الشطحات والاضطراب السلوكي الذي ينتاب بعض أصحاب الاتجاهات الروحية، كالصوفية وغيرهم.

وقد اشارت بعض النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام إلى ذلك، ففي الحديث عن زرارة بن أعين أنّه قال لأبي عبدالله عليه السلام: كيف لم يَخَفْ رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قِبَل الله أن يكون مما ينزغ به الشيطان؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان الذي يأتيه من قِبَل الله مثل الذي يراه بنفسه»[1].

وفي نص آخر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سئل: كيف علمت الرسلُ

(١) العياشي: ١ / ٢٠١، والبحار: ١٨ / ٢٦٢.

أنّها رسل؟ قال: «كُشف عنها الغطاء»[١].

وفي الحديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «إنّ الله وجد قلب محمد صلى الله عليه وآله أفضل القلوب وأوعاها فاختاره لنبوّته»[٢].

ملاحظة هامة

يشير هذا النص الأخير إلى دقة الاختيار الالهي لرسوله الكريم صلى الله عليه وآله في تحمّله لمسؤولية أداء رسالة الإسلام، وينطبق أيضاً على اختيار باقي الرسل الالهيين، فهم (صلوات الله عليهم) رغم الفتن والمآسي والاختبارات الصعبة التي واجهوها ورغم اختلاف العصور والظروف التي عاشوها استقاموا جميعاً ولم يضعف أي واحد منهم عن تحمل المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه، فكان ذلك تطبيقاً لقوله تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[٣].

«الدرس ٣٢»

ب ـ شبهات حول وحي القرآن

تضمنت بعض المصادر التاريخيّة انّ النّبي صلى الله عليه وآله لم يكن متيقّناً من الوحي في بداية أمره، وكان متردّداً في ذلك، وانّ الذي أقنعه زوجته خديجة بدعم من ورقة بن نوفل، فقد روى البخاري عن عائشة أُم المؤمنين أنّها قالت: أول ما بُدئَ به رسول الله صلى الله عليه وآله من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلاّ جاءَت مثل فلقِ الصبح. ثمّ حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغارِ حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهلهِ ويتزوّد لذلك، ثمّ يرجعُ إلى خديجة فيتزودُ لمثلِها، حتّى جاءهُ الحقّ وهو في غار حراء، فجاءه الملكُ فقال: اقرأ . قال : ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطّني حتّى بلغ مني الجهد ، ثم

(١) البحار: ١١ / ٥٦.

(٢) البحار: ١٨ / ٢٠٦.

(٣) سورة الأنعام: ١٢٤.

أرسلني، فقال : اقرأ . قلتُ : ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتّى بلغ مني الجهد ، ثمّ أرسلني فقال : اقرأ . فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذنى فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ فرجعَ بها رسولُ الله ﷺ يرجُف فؤادهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: زَمّلُوني زمّلوني. فزمّلوه حتى ذهب عنه الروعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيتُ على نفسي. فقالت خديجة : كلاّ والله ما يُخزيك الله أبداً، إنّك لتصلُ الرحم ، وتحملُ الكلّ ، وتكسب المعدوم، وتقرئ الضيف، وتعينُ على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتّى أتت به ورقةَ بن نوفلِ بن أسد بن عبد العزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان امرءاً تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيكَ. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى. فقال له ورقة : هذا الناموسُ الذى نزَّل الله على موسى ، ياليتني فيها جذعاً، ليتنى أكون حيّاً إذ يخرجُكَ قومك، فقال رسول الله ﷺ أوَ مُخرجي همْ؟ قال نعم ، لم يأتِ رجل قطّ بمثلِ ما جئت به إلاّ عُودى ، وان يدركني يومك أنصرُك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفّى ، وفتر الوحي[1].

وفي رواية انّ أبا بكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمّد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه...[2].

لاحظ المضمون غير المعقول لهذه الرواية، إذ كيف يلتبس الأمر على رسول الله ﷺ حتّى يشك في نفسه ، بحيث تطمئنه خديجة وتزيل روعه ، ثمّ لا يطمئن هو بنبوّته إلاّ بالرجوع للنصراني ورقة بن نوفل!

(١) الجامع الصحيح : ١ / ص ١٤ ـ ١٥ .
(٢) الاتقان: ١ / ٢٤.

ومما يؤيّـد الطعن في هذه القصة، أن المؤرخين لم يذكروا أن ورقة قد آمن كما آمن الإمام علي عليه السلام وخديجة رغم ما روي من امتداد عمره إلى ما بعد البعثة وأنّـه مرّ على بلال وهو يُعذب[١]، قال ابن حجـر: وهذا.. يدلّ على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي صلى الله عليه وآله إلى الإسلام حتّى أسلم بلال[٢].

وربّما كانت هـذه الرواية من الإسرائيليات التي ترمي إلى الحط من مقام الرسول والطعن في رسالته، وتأكيد رجوعه لأهل الكتاب.

بينما أكّـدت النصوص المتقدمة الواردة عـن أهل البيت عليهم السلام الوضوح والطمأنينة التي يعيشـها الأنبياء عند الايحاء إليهم نافية ما تضمنته تلك الرواية المزعومة[٣].

ونجد هنا من المناسـب أن نتعرّض بإيجاز لبعض الآيات التي قد يوحي ظاهرها اضطراباً في موقف الرسول تجاه الوحي أو الرسالة:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئاً قَلِيلا * إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً**﴾[٤].

عن ابن عباس في رواية عطاء نزلت هذه الآية في وفد ثقيف، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه شططاً، وقالوا متّعنا باللاّت سـنةً، حرِّم وادينا كما حرّمت مكّة شـجرها وطيرها ووحشها، فأبى ذلك رسـول الله صلى الله عليه وآله ولم يجبهم فكرّروا ذلك الالتماس وقالوا: انّا نحبّ أن تعرف العرب فضلنا عليهم، فإن كرهت ما نقول

(١) الإصابة: ٦ / ٤٧٦.
(٢) المصدر.
(٣) انظر: النصوص في ص ٨٤.
(٤) سورة الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥.

وخشـــيت أن تقول العرب: أعطيتهم ما لم تعطنا فقل: الله أمرني بذلك، فأمسك رســـول الله ﷺ عنهم وداخلهم الطمـــع، فصاح عليهم عمر وقـــال: أما ترون رسول الله ﷺ قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه؟ فأنزل الله هذه الآية[١].

وقال الحسن: الكفّار أخذوا رسول الله ﷺ ليلة بمكة قبل الهجرة وقالوا: كفّ يا محمد عن ذمّ آلهتنا وشـــتمها، فلو كان ذلك حقّـــاً كان فلان وفلان بهذا الأمر أحقّ منك، فوقع في قلب رسول الله ﷺ أن يكفّ عن شتم آلهتهم.

وعن سعيد بن جبير انّه ﷺ كان يســـتلم الحجر فتمنعه قريش ويقولون لا ندعك تســـتلم آلهتنا، فوقع في نفســـه أن يفعل ذلك مع كراهية. فنزلت هذه الآية[٢].

وهناك روايات أخرى في سبب النزول.

ولو أغمضنا النظر عن هذه الروايات المختلفة التي لم تثبت صحة واحدة منها بخصوصها. فالذي يلوح من الآية الكريمة انّه كان هناك طلب من الكفار من النبي ﷺ على خلاف تعاليم الله سبحانه وتعالى، أمّا ما هو موقف النبي ﷺ بالذات؟ وكيـــف تعامل مـــع هذا الطلـــب؟ فهو ما ســـوف نتحـــدّث عنـــه بإيجاز...

«الدرس ٣٣»

وقبل ذلك نقول: إنّ هذه الآية الكريمة ـ على كل تقدير ـ لا ترتبط ببحثنا الحالي في الوحي ولا تنافي ما ذكرناه من وضوح الوحي الإلهي في نفس النبي ﷺ ـ خلافاً لمـــن يتوهم ذلك ـ لأنّ الآية صريحـــة في أنّ النبي ﷺ محافظ على وعيه تماماً وانّه يميّـــز الوحي الإلهي غاية ما هناك انّه كاد يميـــل باختياره إلى الكفار ومداراتهم.

---

(١) التفسير الكبير: ٢١ / ٢٠.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ٢١ / ٢٠.

إذن الآية الكريمة تؤكد وعي الرسول ﷺ واختياره التام، لذلك رتّبت ثبوت العقاب الشديد عليه لو حصل منه الزيغ. وليس فيها أية إشارة إلى عدم وضوح الرؤية عند النبي ﷺ ولا إلى الهلوسة والاضطراب النفسي وأمثال ذلك مما يوجب الشك في الوحي إليه، بل الآية الكريمة ـ باعتبار آخر ـ تؤكد صدق انتساب ما يقوله النبي ﷺ إلى الوحي الإلهي، وانّه بمجرّد احتمال خطور (الزيغ) في نفسه نزل تحذيره والتلويح له بشدّة العذاب.

فهذه الآية اجنبية تماماً عن آية سورة النجم واسطورة الغرانيق، التي تضمّنت الهلوسة أو فقد الوعي والاختيار أمام تسلّط الشيطان عليه ـ على اختلاف صيغ الرواية المزعومة ـ فلا يصح الاستدلال والاستشهاد بها على ما يرومه أعداء الإسلام.

نعم الآية الكريمة ترتبط بموضوع عصمة الرسول ﷺ وأنّه هل هو معصوم أو لا؟ وهل ما صدر منه وأوجب نزول هذه الآية مناف للعصمة أو لا؟

ونحن نشير هنا إلى هذا الموضوع استطراداً فنقول:

أولاً: لاشك أنّ الآية الكريمة نزّهت الرسول ﷺ عن صدور الفرية منه والزيغ، فهي نصّت على أنّه ﷺ لم تصدر منه الفرية ولم يجبهم إلى ما أرادوه منه.

نعم من خلال الآية قد يطرح تساؤل عن معنى عصمة الرسول ﷺ وانّه هل العصمة تقتضي عدم صدور الفعل القبيح من المعصوم بقرار مستقل منه دائماً أو لا مانع من تدخّل التسديد الإلهي المباشر أحياناً، ومن ناحية أخرى ما هي طبيعة هذا التسديد الإلهي، هل هو إرادة إلهية مانعة من وقوع ما أراده النبي ﷺ أو ما خطر في باله، أو هو تسديد إلهي فطري للرسول ﷺ مانع من التأثر بهذه المؤثرات التي ينهار أمامها غير المعصوم الفاقد للتسديد؟ وقد تصدت البحوث العقائدية للإجابة على هذه التساؤلات وتحديد الموقف الصحيح منها، فنوكل البحث اليها.

وعلى كل تقدير، هذه الآية لا تخدش في مقام الرسول ومكانته عند ربه، التي تسمو به عن الافتراء عليه كيف! وقد حذر القرآن من ذلك أشدّ التحذير، كما في قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[١]. فكيف يلتئم هذا التحذير مع فرضية إقدامه على الافتراء؟! وكذلك مع حكمة الله ودقّة اختياره لرُسله المؤهلين لتحمل رسالته من بين عباده ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٢].

ثانياً: يُفهم من الآية الكريمة نفسها أن استقامة النبي ﷺ كانت باختياره وقراره الشخصي ولم يكن مجبراً عليها، وإلاّ لم يكن لتحذيره ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾[٣] معنى ومدلول، فما معنى أن يحذّر الله نبيّه ﷺ من الافتراء والتقوّل ونحو ذلك ثم لمّا يعزم النبي ﷺ على ذلك يمنعه الله سبحانه من ارتكابه؟!

ثالثاً: انّ نسبة التثبيت لله سبحانه لا تعني فقدان اختياره ﷺ في ذلك، شأن كثير من الآيات التي تنسب أفعال الإنسان لله سبحانه مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[٤] فهو لا يعني انّ الرمي لم يكن فعلاً اختيارياً للرامي، وكذلك الآيات التي تتحدث عن الهدى والضلال مثل قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٥] فانّها لا تعني قسرهم على الضلال والهدى، لأن الإرادة الالهية في كل ذلك لم تكن هي العلّة التامة، ولا سالبة للاختيار.

ومن خلال ما ذكرناه اتضح أن استقامة النبي ﷺ كانت بقراره واختياره من دون أن يكون مجبوراً على ذلك، ولعلّ هذا التحذير مجرد تذكير للنبي ﷺ

---

(١) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٢٤.

(٣) سورة الإسراء: ٧٥.

(٤) سورة الأنفال: ١٧.

(٥) سورة إبراهيم: ٤.

الـــذي كان يرغب في صيغة تخفّف من شـــدّة عنادهم، لما عـــرف عنه من الرأفة والرحمة وحرصه الشديد على إيمانهم، كما أشـــار إليه القرآن الكريم في مواضع متعددة، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[١]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[٢]، ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

ولا يعني هذا ان النبي ﷺ قد عزم على التلاعب بالوحي وتغييره.

ولعـــلّ المقصود الحقيقي بالتحذير المذكـــور في الآية الكريمة غير النبي، لبيان مدى خطورة الافتراء على الله تعالى.

«الدرس ٣٤»

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَـــلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُـــولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـــيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَـــخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّـــيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّـــهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَـــهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

قال الزمخشري: والسبب في نزول هذه الآية انّ رسول الله ﷺ لما أعرض عنه قومه وشاقّوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به تمنّى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفّرهم، لعلّه يتّخذ ذلك طريقاً إلى استمالتهم واســـتنزالهم عن غيّهم وعنادهم، فاستمرّ به ما

---

(١) سورة فاطر: ٨.

(٢) سورة الكهف: ٦.

(٣) سورة الشعراء: ٣.

(٤) سورة الحج: ٥٢ ـ ٥٤.

تمنّاه حتى نزلت عليه سورة النجم وهو في نادي قومه، وذلك التمني في نفسه، فأخذ يقرؤها فلمّا بلغ قوله ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[١] ألقى الشيطان في أمنيّته التي تمنّاها، أي: وسوس إليه بما شيّعها به، فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط إلى أن قال: (تلك الغرانيق العلى وانّ شفاعتهن لترتجى)... إلخ[٢].

وقد روى هذه القصّة الطبري والبزّار والطبراني وابن مردويه وغيرهم.

وقد تلقفت هذه الفرية المزعومة بعض الأقلام الأجنبية، فقد جاء في الموسوعة التأريخية الصادرة عن جامعة كمبريدج، ما يلي: «اعترف النبي في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله، وأشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة (تلك القرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) ...»[٣].

ولكن علماء الشيعة ومجموعة أخرى من علماء الجمهور رفضوا ذلك... قال الفخر الرازي في تفسيره بعد أن أشار إلى هذه الروايات: «هذا رواية عامّة المفسّرين الظاهريين، أمّا أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنّة والمعقول... إلخ»[٤].

ونحن عندما ندرس هذه الآيات الكريمة دراسةً موضوعية متأنية نجد مدلولها أجنبياً عن آيات سورة النجم وقضية الغرانيق المزعومة، وذلك أن اسطورة الغرانيق رويت بصيغتين مختلفتين في المضمون..

فمدلول الصيغة الأولى: انّ النبي صلى الله عليه وآله تعمّد تغيير الوحي والافتراء بهدف التقرب للمشركين واستمالتهم.

---

(١) سورة النجم: ٢٠.

(٢) الكشّاف: ٣/ ١٦٤.

(٣) الإسلام في فقص الاتهام: ٦٥، نقلاً عن كتاب دراسات تأريخية باللغة الانجليزية: ١/ ٢٢.

(٤) التفسير الكبير: ٢٣/ ٥٠.

وهو ـ كما تراه ـ خلاف ظهور الآيات الكريمة، وقد أوضحنا بطلانه.

ومدلول الصيغة الثانية: انّ الشيطان خدعه أو تحدّث على لسانه.

وقد يتوهم انسجام ذلك مع ظهور الآيات الكريمة، ولكن هذا غير صحيح بعد ملاحظة ما يلي:

أولاً: انّا لا نجد الشيطان مسلّطاً على الإنسان العادي من الناس حتى غير المؤمن بحيث يؤثر على حواسّه، فكيف يفترض سيطرته على الأنبياء والرسل، مع أنّهم من الناحية التكوينية العضوية كباقي الناس؟

ثانياً: انّ الآية تفرض الحالة دائمية تلاحق الأنبياء والمرسلين وانّها ليست نادرة، لذلك استخدمت صيغة الحصر، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[1] وليس من المعقول فرض هذه السيطرة الدائمة للشيطان على الأنبياء والرّسل خصوصاً. مع ملاحظة مؤهلاتهم الذاتية ومسؤولياتهم الخطيرة ورعاية الله وتسديده لهم.

ثالثاً: انّ التمنّي قد يُراد منه أحد معان..

أ) طلب المستحيل أو شبهه.

ب) التلاوة كما ورد فيه قول الشاعر:

تمنّى كتاب الله آخر ليله *** تمنّي داوود الزّبور على رسل

أي تلا كتاب الله مترسلاً فيه كما تلا داوود الزبور مترسّلاً فيه[2].

ج) إرادة الشيء أو تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه[3].

أمّا المعنى الأول فهو غير معقول هنا، لذلك لم يذكره أحد. وأمّا المعنى

---

(١) سورة الحج: ٥٢.

(٢) لسان العرب: ١٥ / ٢٩٤.

(٣) انظر: المصدر.

الثاني فهو لا ينسجم مع الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى..﴾[١] إذ من المعلوم ندرة الأنبياء والرّسل أصحاب الكتب التي يقرؤونها، بينما الآية تتحدث عنهم كلهم أو نسبة كبيرة منهم على الأقل. ويقوى الإشكال بالنسبة للأنبياء ـ غير الرسل ـ بناءً على الرأي القائل: انّ النبي غير الرسول. وأن بعض الأنبياء لا يحملون رسالةً إلى الأمم.

فلايبقى إلاّ المعنى الثالث فيكون معنى الآية ـ والله العالم ـ أنّ الأنبياء والرسل حيث يرغبون ويحرصون على هداية الناس فيضع الشيطان العراقيل والمعوقات أمام أمانيهم ومساعيهم الاصلاحية، ونتيجة لهذا الصراع بين الخير والشر، يفتتن كثير من الناس، ويزداد المؤمنون إيماناً، كما تحدثت بذلك آيات أخرى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

رابعاً: إنّ هذا كلّه يبتني على فرضية صحة اسطورة الغرانيق إذ لا يحتمل أنّ هناك قضية أخرى أوجبت نزول هذه الآيات، بل الذين يذهبون إلى هذا التفسير ـ المرفوض عندنا ـ يعتبرونها مشيرة إلى قضية الغرانيق، ونحن قد أثبتنا فيما سبق ومن خلال عدة شواهد عدم صحة قضية الغرانيق وعدم انسجامها مع مدلول الآيات المتقدمة. وانّها اسطورة حاكتها أصابع الظالمين[٣].

هذا، ونلاحظ انّ مجموعة من علماء الجمهور رفضوا هذه الروايات، قال

---

(١) سورة الحج: ٥٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٦.

(٣) ولا غرابة في ذلك ما دام (خليفة المسلمين) يتطاول على النبي ﷺ ويزداد غيظاً عندما يسمع اسمه ينادى به في الأذان كل يوم خمس مرّات، ويعزم على دفنه والقضاء عليه، كما في المحاورة المعروفة بين المغيرة بن شعبة ومعاوية بن أبي سفيان. والخليفة الآخر ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ـ يتطاول على كتاب الله عزّوجلّ ويجعله غرضاً ليرميه بالنشّاب وهو يقول:

تهدّدني بجبار عنيد فها أنذاك جبّار عنيد

إذا ما جئت ربّك يوم حشر فقل يارب مزّقني الوليد

إلى غير ذلك من الممارسات والمواقف المخزية، ولا نستغرب من (علماء) يلتزمون هذا الرأي مطاوعين لرغبات أولئك (الخلفاء) أو حجبتهم الغشاوة عن رؤية الحقيقة.

الرازي في معرض ردّه على هذه الروايات بالسـّنة: وأمّا السنّة فهي ما روي عن محمد بن إسـحاق بن خزيمة انّه سـئل عن هذه القصّة؟ فقال: هذا وضع من الزنادقة، وصنّف فيه كتاباً. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسـين البيهقي: هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلّم انّ الرواة مطعون فيهم[١].

الخلاصة

١ ـ معاني الوحي ستة.

أ) الشعور الباطني الذي لا ينتبه الشخص الى مصدره.

ب)الخلق.

ج) الإسرار.

د) الإيماء.

هـ) الإلهام الذي يُدرك منشؤه.

و) مطلق التبليغ الإلهي.

٢ ـ نشوء حاجة الإنسان للوحي الإلهي.

أ) تنوع الآراء والقناعات بين أبناء المجتمع.

ب) سعي البعض لفرض قناعاته واختلاق مميزات لنفسه غير مبررة.

٣ ـ تضمن القرآن الكريم أن القرآن نزل به الروح الأمين ـ جبرئيل عليه السلام ـ على النبي صلى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾[٢].

٤ ـ المنزل بالوحي هو النص القرآني نفسه، وليس معناه مجرداً عن اللفظ

---

(١) التفسير الكبير: ٢٣ / ٥٠.

(٢) سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

كما تشهد به كثير من الآيات مثل: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[1].

٥ ـ الذين استشكلوا في وحي القرآن على ثلاثة أصناف من الباحثين وقد تمت مناقشة شبهاتهم.

٦ ـ تبنت مدرسة أهل البيت عليهم السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان مطمئناً وعلى بصيرة من أمر الوحي، وأنه لم يكن شاكاً ولا متردداً خلافاً لما تضمنته بعض روايات العامة.

وقد تمت مناقشة بعض الآيات الموهمة لخلاف ذلك.

الأسئلة

١ ـ اذكر أربعة معان للوحي .

٢ ـ كيف تردّ الاستشهاد بالآية الكريمة ﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ على اسطورة الغرانيق؟

٣ ـ كيف تردّ الاستشهاد بآية التمني على صحة اسطورة الغرانيق؟

٤ ـ كيف تناقش الرأي القائل: إن ادعاء النبي صلى الله عليه وآله الارتباط بالله بهدف تهيئة ارضية لدى قومه لقبول أفكاره الاصلاحية؟

٥ ـ هل إن سعي الإنسان للانخراط في المجتمع لمجرّد توفير مصالحه الذاتية؟

٦ ـ ما هو سبب احتياج الإنسان للوحي الإلهي؟

٧ ـ اذكر ثلاثة آراء في توجيه معنى النزول الدفعي للقرآن.

---

(١) سورة القيامة: ١٨.

«الدرس ٣٥»

ثانياً: نزول القرآن الكريم

لاشـــك أنّ القرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك كما دلّت عليه عدد من الآيات ﴿شَـــهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١] ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[٢]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣].

وليلة القدر عند كثير أو الأكثر من علماء الجمهور ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، والمعروف عند الشـــيعة الإمامية انّها لا تعدو الحادية والعشرين والثالثة والعشرين من شـــهر رمضان المبارك. ويرجح كثير منهم أنها ليلة ثلاث وعشرين منه. حتى قال الصدوق قدس سره : «اتفق مشـــايخنا على أنّها ليلة ثلاث وعشرين»[٤].

ولكـــن يقع هذا التســـاؤل ما معنى نـــزول القرآن في ليلـــة القدر مع أن المعروف والمتواتر بين المســـلمين أنّه كان ينزل متدرّجـــاً طوال عشرين عاماً أو ثلاثة وعشرين عاماً؟

وهناك آراء عديدة لتوجيه ذلك حيث نقتصر هنا على أهمها:

الـــرأي الأول: انّ القرآن كان ينزل على النبـــي ﷺ في ليلة القدر من كل عام ما كان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثم ينزّله جبرئيل تدريجياً حســـب مواقع الحاجة، فعلى هذا الرأي يكون المقصـــود من ليلة القدر في الآية

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة الدخان: ٣.

(٣) سورة القدر: ١.

(٤) الخصال: ٢ / ١٠٢.

الكريمة هو النوع وأن نزول القرآن توزع على عدة أفراد منه ، لا ليلة قدر خاصة.

ونسب هذا الرأي إلى ابن جريح والسدي، واسنده السدي إلى ابن عباس، ونقله القرطبي عن مقاتل . ووافقه الحليمي والماوردي وغيرهما[١].

لكن هذا الرأي ـ بالإضافة إلى سذاجته ولا ينسجم مع ما هو المعروف من نزول سورة القدر في مكة، حيث كان النازل بعض القرآن فحسب ، فلا يناسب ذلك صيغة الفعل الماضي ونسبة نزول كل القرآن في ليلة القدر كما تضمنتها الآيات الكريمة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[٣]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٤] خصوصاً ان كثيراً من الآيات كانت تنزل لمناسبة طارئة طيلة أيام السنة، فلا معنى لفرض سبق نزولها في ليلة القدر .

نعم ورد في بعض النصوص ان القرآن كان يُعرض على رسول الله ﷺ كلّ سنة مرةً، وانّه عُرِض عليه في عام وفاته مرتين. لكنه أجنبي عن هذا الرأي.

الرأي الثاني: انّ معظم القرآن نزل في شهر رمضان، ونزول المعظم فيه صحّح نسبة نزول القرآن في هذا الشهر. احتمل هذا الرأي سيد قطب حيث قال: «الشهر الذي أنزل فيه القرآن اما بمعنى بدء نزوله كان في رمضان أو انّ معظمه نزل في شهر رمضان»[٥].

وهذه دعوى لا شاهد عليها، خاصةً اذا لاحظنا الآيتين الواردتين في نزوله في ليلة معينة هي ليلة القدر بالذات، حيث لاشك أن أكثر القرآن لم ينزل في ليلة القدر، كما تشهد بذلك القرائن المحيطة بنزول الآيات، وكذلك الروايات

---

(١) تلخيص التمهيد: ١ / ٦٩.

(٢) سورة القدر: ١.

(٣) سورة الدخان: ٣.

(٤) سورة البقرة: ١٨٥.

(٥) في ظلال القرآن: ٢ / ٧٩.

الدالة على فضل التعبد في ليلة القدر، والمتضمنة أن النبي ﷺ كان يشتغل فيها بالعبادة، لا بتلقي الوحي، ولو كان معظم القرآن نازلاً في ليلة القدر لعُرف ذلك بين المسلمين ووردت فيه الروايات.

الرأي الثالث: ان القرآن نزل جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزة أو البيت المعمور، ثم نزل على رسول الله ﷺ متفرقاً خلال ثلاث وعشرين سنة، وقد اختار هذا الرأي جماعة من المحدّثين وغيرهم، معتمدين على نصوص وردت من الفريقين.

قال الشيخ الصدوق: «نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر جملة واحدة إلى البيت المعمور في السماء الرابعة، ثم نزل من البيت المعمور في مدة عشرين سنة، وان الله اعطى نبيه العلم جملةً واحدة ثم قال له: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾»[1].

ونحوه ما ذكره المجلسي رحمه الله، وحكي عن الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزة، ثم أنزل نجوماً على النبي ﷺ في عشرين سنة» وقال جلال الدين السيوطي: «وهذا هو اصلح الاقوال واشهرها»[2].

وروى الشيخ الكليني ـ بسنده ـ عن حفص بن غياث عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عزّوجل: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾[3] وانّما أنزل القرآن في طول عشرين سنة، بين أوله وآخره؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل في طول عشرين سنة» ثم قال: «قال النبي ﷺ: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من

---

(١) الاعتقادات: ١٠١.

(٢) انظر: تلخيص التمهيد: ١/ ٧٨.

(٣) سورة البقرة: ١٨٥.

شـــهر رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان، وأُنزل الانجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شـــهر رمضان، وأُنزل الزبور لثمان عشر خلون من شهر رمضان، وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان»[١].

وروى السيوطي بســـنده إلى جابر بن عبدالله الانصاري قال: «انزل الله صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان وانزل التوراة على موســـى لســـت خلون من رمضان، وانزل الزبور عـــلى داوود لاثنتي عشرة خلت من رمضان، وانزل الانجيل على عيسى لثماني عشرة خلت من رمضان، وانزل الفرقان على محمد ﷺ لأربع وعشرين خلت من رمضان»[٢].

«الدرس ٣٦»

الرأي الرابع : ان القرآن نزل ـ بمعناه أو بحقيقته البسيطة الجامعة ـ دفعة واحدة على رســـول الله ﷺ، ثم نزل بألفاضه مفصّـــلا وتدريجياً عليه ﷺ ليبلّغه إلى الأمة . وقد اختار هذا الوجه الفيض الكاشـــاني والعلاّمة الطباطبائي ـ على اختلاف بينهما فى توجيهه وخصوصياته ـ حيث وجه الكاشاني النصوص الآنفة بقوله : «وكأنّه اريد بذلك نزول معناه على قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِـــهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ**...﴾[٣] ثم نزل طول عشرين ســـنة نجوماً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه كلّما أتاه جبرائيل عليه السلام بالوحي وقرأه عليه بألفاظه»[٤].

أما العلاّمة الطباطبائي فقد وجه هذا الرأي بما ينسجم مع رأيه في تفسير الكتاب فقال: «ان الكتاب ذو حقيقة اخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحد

---

(١) أصول الكافي: ٢ / ٦٢٨.

(٢) الدر المنثور: ١ / ١٨٩.

(٣) سورة الشعراء: ١٩٣ـ١٩٤.

(٤) الصافي: ١ / ٤٢.

لا أجزاء فيه ولا فصول، وانّما هذا التفصيل المشـاهد في الكتاب طرأ عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[٢]. وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[٣].

اذن فالمراد بانزال القرآن في ليلـة القدر انزال حقيقة الكتاب المتوحد إلى قلب رسـول الله ﷺ دفعة، كما انزل القرآن المفصّـل في فواصل وظروف على قلبه ﷺ ايضاً تدريجاً في مدة الدعوة النبوية[٤].

الرأي الخامس: ان ابتداء نزوله في شـهر رمضان، ونسـب لجماعة منهم الشعبي..

قال الشـيخ المفيد رحمه الله: «وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر أنّه نزلت جملة منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي ﷺ فأمّا أن يكـون نزل بأسره وجميعـه في ليلة القدر فهو بعيد ممـا يقتضيه ظاهر القرآن والمتواتر من الأخبار واجماع الأمّة على اختلافهم في الآراء»[٥].

واختار هذا الـرأي ابن شهرآشـوب في (المناقب) حيث قال: «شـهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن أي ابتدء نزوله»[٦]. وقال في متشـابهات القرآن: «والصحيح ان (القرآن) في هذا الموضع لا يفيد العموم، وانما يفيد الجنس، فأيّ شيء نزل فيه فقد طابق الظاهر»[٧].

---

(١) سورة هود: ١.
(٢) سورة الواقعة: ٧٧ ـ ٧٩.
(٣) سورة الاعراف: ٥٢.
(٤) الميزان: ٢ / ١٥ ـ ١٦.
(٥) تصحيح اعتقاد الإمامية: ١٠٣.
(٦) المناقب: ٢ / ١٥٠.
(٧) متشابهات القرآن: ١ / ٦٣.

ووجّهه الشيخ معرفة بقوله: «لأن كل حادث خطير اذا كانت له مدة وامتداد زمني، فانّ بدء شروعه هو الذي يسجَّل تاريخياً، كما اذا سئل عن تاريخ دولة أو مؤسسة أو تشكيل حزبي.. فإنّ الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لا غير، وأيضاً فانّ قوله تعالى ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ والآيات الأخر حكاية عن أمر سابق لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكي، وإلاّ لكان اللفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنّ من القرآن ما نزل متأخراً عن ليلة القدر، اللهم إلاّ بضرب من التأويل غير المستند»[١].

وهو رأي وجيه لولا الروايات السابقة، لكنه قد يواجه إشكالاً ملخّصه انّ النصوص والأقوال حول توقيت ابتداء الوحي الإلهي على الرسول ﷺ لا تنسجم مع كون ابتداء النزول في ليلة القدر ـ ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان لدى الجمهور، وليلة أحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين لدى شيعة أهل البيت عليهم السلام ـ فان الأقوال المعروفة في ابتداء الوحي وبعثة النبي ﷺ هي:

الأول: ان مبعثه ﷺ في شهر ربيع الأول، ذكره اليعقوبي.

الثاني: انّه بعث لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، قاله ابن سعد[٢].

الثالث: ان الوحي انزل على النبي ﷺ لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان، حكاه الطبري عن أبي الجلد[٣].

الرابع: انه اليوم السابع والعشرون من رجب، وهو المعروف بين شيعة آل البيت عليهم السلام ووردت فيه نصوص من الفريقين. منها: ما رواه الكليني بسنده عن الحسن بن راشد عن أبي عبدالله عليه السلام.. «ولا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب فانه هو اليوم الذي نزلت فيه النبوة على محمد ﷺ..»[٤]. ومنها: ما

(١) تلخيص التمهيد: ١/ ٦٨ .
(٢) انظر: طبقات ابن سعد: ١ / ١٢٩.
(٣) تاريخ الأمم والملوك: ٢ / ٤٤.
(٤) الكافي: ٤ / ١٤٩.

عن البيهقي في شعب الإيمان عن سلمان الفارسي قال: «في رجب يوم وليلة من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام من الدهر مائة سنة وقام مائة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله تعالى محمداً»[١].

ونلاحظ انّ هذه الأقوال في توقيت بعثة النبي ﷺ لا تنسجم بظاهرها مع التزام ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر.

وقد يجاب عن ذلك بإمكانية افتراض فاصل زمني ـ قيل: إنه ممتد إلى ثلاث سنين ـ بين بداية الوحي والبعثة وبين نزول القرآن الكريم، ويشهد لذلك النصوص الدالة على انه ﷺ بُعث بعمر اربعين عاماً، بضميمة النصوص الواردة في ان القرآن نزل خلال عشرين عاماً[٢]. وما ورد عن سعيد بن المسيب قال: «انزل ـ يعني القرآن ـ على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث واربعين»[٣].

فإذا علمنا ان النبي ﷺ توفي عن ثلاثة وستين عاماً، فيكون عمره عند نزول القرآن ثلاثة واربعين عاماً. ويعني ذلك ان ابتداء نزول القرآن بعد ثلاث سنين من بعثته ﷺ، فلا مانع من اختلاف زمان البعثة عن ابتداء نزول القرآن عليه. والله العالم.

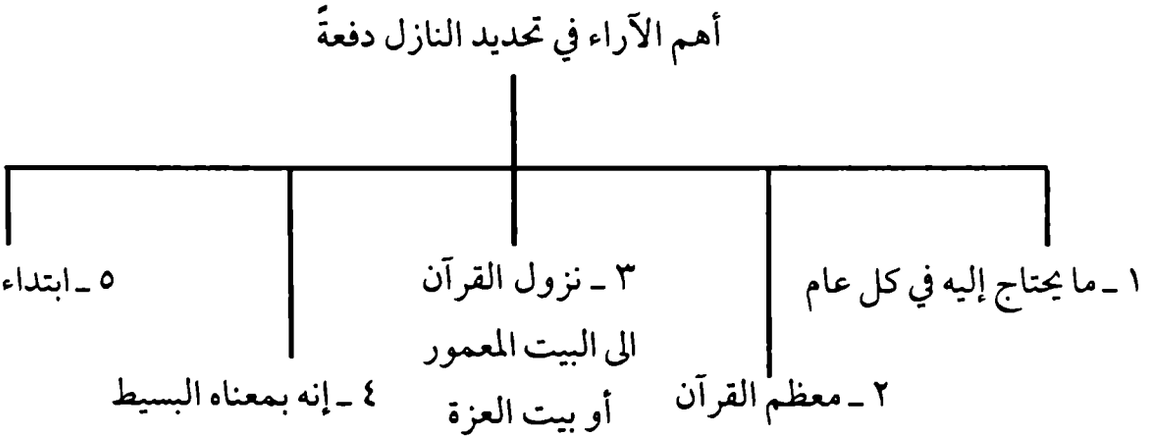

(١) منتخب كنز العمال بهامش المسند: ٣ / ٣٦٢ وروى ذلك الحافظ الدمياطي عن أبي هريرة في السيرة الحلبية: ١ / ٣٢٨.

(٢) انظر: اصول الكافي: ٢ / ٦٢٩. تفسير العياشي: ١ / ٨٠. الاعتقادات: ١٠١. البحار: ١٨ / ٢٥٠ ـ ٢٥٣، وغيرها مثل مستدرك الحاكم: ٢ / ٦١٠.

(٣) مستدرك الحاكم: ٢ / ٢١٠.

«الدرس ٣٧»

تدرج نزول القرآن

من الحقائق الثابتة تاريخياً وإسلامياً ان القرآن الكريم قد بُلّغ للأمة بشكل متدرّج. وهذا لا شك ولا خلاف فيه، بل اشار إليه القرآن الكريم نفسه في آيات عديدة مثل قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١].

حيث ان الترتيل هو التدرج، ولذلك عُنوِن هذا البحث في بعض المصادر بالترتيل في المعنى.

وقبل أن نتحدث عن حكمة النزول التدريجي للقرآن الكريم نشير إلى التدرج في الرسالة الإسلامية نفسها، ـ وتبعاً لذلك ـ التدرج في مواقف الرسول صلى الله عليه وآله في مجالات ثلاثة:

الأول: التدرّج في تعاليم الرسالة، سواء ما يرتبط منها بالجانب العقيدي أم الجانب التشريعي أم غيرهما... فأوّل ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وآله هو دعوة الناس إلى التوحيد: «قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا»، ثم تدرّج ببيان اصول العقيدة الإسلامية وأسسها، ثم الجوانب الأخرى من الرسالة الإسلامية التربوي والأخلاقي والتشريعي، كل واحد منها تدريجياً وعلى مراحل، والشواهد على ذلك كثيرة واضحة.

الثاني: التدرّج في مساحة نشر الرسالة حيث بدأ دعوته بالمختصين به مثل الإمام علي عليه السلام وزوجته خديجة بنت خويلد، وولده بالتبني زيد بن حارثة، ثم وسعها لتشمل أقاربه تنفيذاً لما أمره الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[٢]،

---

(١) سورة الفرقان: ٣٢.

(٢) سورة الشعراء: ٢١٤.

بعد ذلك عمّمها لمساحات اخرى على الترتيب التالي: أهل مكّة ثم العرب في الجزيرة العربية ثم الشعوب والأمم الأخرى من خلال الكتب التي أرسلها للملوك والحكّام آنذاك.

الثالث: التدرّج في اساليب الدعوة للاسلام.

فبينما بدأ رسالته بحذر بالغ في السنوات الثلاث الأُولى حتّى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فجاهر بها دعوة علنية سلمية حتى بالنسبة للمعتدين عليه وعلى اتباعه رغم ما عاناه هو والمسلمون آنذاك ـ بمن فيهم عشيرته ـ من البطش والتعذيب والحصار والنبذ والتهكم وغيرها مما كان يمارسه اعداؤه قبل الهجرة... ثم بعد أن هاجر إلى المدينة انتهج سياسة الجهاد المسلّح لمواجهة المعتدين وردعهم.

على ضوء هذا التدرّج في تعاليم الرسالة الاسلامية ومواقف الرسول الكريم ﷺ يتضح جانب هام من حكمة بل ضرورة التدرج في نزول القرآن الكريم.

إذ بعد أن عرفنا أهمية القرآن ودوره في الإسلام ومكانته لدى المسلمين يتضح مدى أهمية هذا التدرج في نزوله، لأن القرآن الكريم يمثّل مصدراً رئيسياً لبيان تعاليم الإسلام وتشريعاته المختلفة التي يفترض ابلاغها تدريجياً، باعتبار انّ الإسلام جاء لإحداث نقلة نوعية في مجتمعات الحجاز والجزيرة، لأن تعاليمه تختلف جذرياً عما كانوا عليه من جميع الأبعاد العقائدية، والسلوكية، والاجتماعية فكان لابد من التدرج لضمان الانصياع المتدرج لتعاليم الدين الجديد والتفاعل معها. لذلك أمكن أن نعتبر:

العامل الأول: في تدرج نزول القرآن هو ضرورة انسجامه مع تدرّج الرسالة الاسلامية باعتبار دوره الحيوي فيها.

وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «ليس أحد أرفق من الله تعالى، ومن

رفقه تبارك وتعالى أن ينقلهم من خصلة إلى خصلة، ولو حمل عليهم جملة واحدةً لهلكوا»[١].

العامل الثاني: يرتبط بشخص الرسول ﷺ ودعمه في مهمته وتحمله لمسؤولية ابلاغ الرسالة الإسلامية.

كما اشارت الآية الكريمة جواباً على تساؤل الكفار عن هذه النقطة بالذات ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[٢].

فإنّ الارتباط المحسوس والمستمر بالسماء عامل هام في تثبيت فؤاد الرسول ﷺ وتقوية عزائمه هو وأصحابه ازاء ما يواجهه من مؤامرات الأعداء والمواقف المحرجة الأخرى، خلال رحلته الرسالية وتحمله لهذه المسؤولية الثقيلة.

---

(١) نفحات الرحمن: ١ / ٨.

(٢) سورة الفرقان: ٣٢.

الخلاصة

١ ـ القرآن نزل خلال عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً، وأما ما ورد من أنه نزل في ليلة القدر فقد ذكرت لتوجيهه عدة وجوه أهمها خمسة..

أ) أن المقصود نزول ما يحتاج إليه كلّ عام في ليلة القدر منه.

ب) أن المقصود نزول معظمه في ليلة القدر.

ج) إنه نزل جملة واحدة في ليلة القدر الى بيت العزّة أو البيت المعمور.

د) أنه نزل بمعناه أو حقيقته البسيطة الجامعة في ليلة القدر.

هـ) إن بداية نزوله في ليلة القدر.

٢ ـ إن الحكمة من تدرج نزول القرآن..

أ) إنسجامه مع تدرج مراحل الدعوة والتشريع في الإسلام.

ب) تقوية عزائم النبي صلى الله عليه وآله والمسلمين.

القسم الرابع

«جمع القرآن وترتيبه وقراءته»

القسم الرابع: جمع القرآن وترتيبه وقراءته

١ ـ جمع القرآن:

مـــن الأبحاث الهامّة التي تبحث عادة في علوم القرآن قضية جمع القرآن، والعصر الذي تمّ فيه ذلك.

ونشير هنا إلى أن الجمع قد يطلق ويراد منه أحد خمسة معان:

الأول: الجمع بمعنى الحفظ (في الذاكرة)

وقـــد فسّر البعض الأحاديث الـــواردة في أنّ بعض الصحابة جمع القرآن في عهد رســـول الله بأنّهم قد حفظوه، مثل ما أخرجه النســـائي عن عبد الله بن عمـــر انّه قال: جمعتُ القـــرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبـــي ﷺ فقال: اقرأه في شهر...[1].

ولكن التعبير بـ «قرأت به» لايدل على أن الجمع بمعنى الحفظ في الذاكرة.

أخـــرج ابن أبي داوود عن محمد بن كعـــب القرظي قال: جمع القرآن على عهد رسول الله خمسة من الأنصار معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري[2].

ولا يبعـــد أن يكون هنـــاك عدد من الصحابة يحفظـــون القرآن، كما كان بعض العرب يحفظون كثيراً من القصائد الشعرية، بل إن اهتمامهم بالقرآن كان

---

(١) سنن النسائي، كتاب الصيام: ٧٦ ـ ٧٨.

(٢) مناهل العرفان: ١ / ٤٤٤.

اشدّ وآكد.

الثاني: جمع القرآن بمعنى كتابته

وقد دلّت النصوص والشواهد التاريخية على كتابة القرآن الكريم بمجموعه في عهد رسول الله ﷺ، وأنّه ﷺ كان يكلّف بعض الصحابة بكتابة القرآن حتى عُرفوا بكتّاب الوحي، ولا تميّز لبعض الآيات دون غيرها لتختص بالكتابة، كما أشارت مجموعة من النصوص إلى ذلك، مثل ما رواه الحاكم عن زيد بن ثابت، قال: كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع «قال الحاكم»: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين «وفيه الدليل الواضح انّ القرآن انّما جُمع على عهد رسول الله»[١] قال البيهقي: يشبه أن يكون انّ المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرّقة في سورها وجمعها فيه بإشارة النبي ﷺ[٢].

«الدرس ٣٨»

الثالث: الجمع بمعنى حفظه (مكتوباً) من الضياع

وقد اختلف الباحثون في ذلك على قولين:

القول الأول: أنّ هذا الجمع قد تمّ في عهد الخلفاء بعد الرسول ﷺ ـ وهو المعروف لدى علماء الجمهور على اختلاف بينهم في تحديد الخليفة الذي تمّ هذا الجمع في عهده ـ اعتماداً على عدد من النصوص التي رووها في مصادرهم..

منها ما رواه البخاري عن عبيد بن السبّاق «انّ زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: ارسل إليّ أبو بكر الصديق مقتَل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: انّ عمر أتاني فقال: انّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن،

---

(١) البيان: ٢٧٣ نقلاً عن المستدرك للحاكم: ٢ / ٦١١.

(٢) الاتقان: ١ / ٢٠٣.

وانّي أخشى إنّ استحرّ القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإنّي أرى أنّ تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد قال أبو بكر: «إنّك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه» فوالله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ ممّا أمرني به من جمع القرآن.

قلتُ: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو ـ والله ـ خير. لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

فتتبّعت القرآن أجمعه من العُسُب[1] واللِّخاف[2] وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ...﴾ حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثمّ عند عمر حياته، ثمّ عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه»[3].

القول الثاني: أنّ هذا الجمع قد تم في عهد النبي ﷺ وهو الذي يلتزم به شيعة آل البيت عليهم السلام ويمكن الاستشهاد على ذلك بعدّة شواهد منها..

الأول: مجموعة من النصوص التي تأتي لبعضها في «الجمع بالمعنى الرابع».

الثاني: أن من الثابت تأريخياً اتخاذ النبي ﷺ لعددٍ من الكتّاب لكتابة ما ينزل من القرآن، وقد عرفوا بـ«كُتّاب الوحي» مما يكشف عن اهتمام النبي ﷺ

(١) جمع عسيب: وهي الأطارف العريضة من جريد النخل، يُكشط الخوص ويكتب في طرفه العريض.

(٢) جمع لخفة: وهي الحجارة الرقاق والخزف.

(٣) الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٨، حديث ٤٩٨٦.

البالــغ بحفظ القرآن الكريم، وهو لا ينســجم مع فرضيــة عدم جمع المكتوب وحفظه عنده ليكون مرجعاً للمسلمين.

الثالث: أن النص القرآني كان متفقاً عليه بين المســلمين في زمانه ﷺ، ولم يكن اختلافهم فيه إلّا في إطار ضيّــق كاللهجة ونحوها، ممّا يؤكد كونه مكتوباً ومحفوظاً، بحيث يكون مرجعاً لهم، وإلّا لاتّسع اختلافهم فيه آنذاك، بسبب ما يعرضهم من النسيان المتعارف بين الناس، خصوصاً مع ملاحظة موقع القرآن الكريم لدى المسلمين، وتأكيد النبي ﷺ على مرجعيته وقراءته وحفظه والتدبر فيه.

الرابع: الجمع ضمن مصحف واحد

وقــد اختلــف الباحثون في ذلــك فيرى بعضهــم أنّه قد تــمّ في عصر الرسول ﷺ مستشــهدين بمجموعة من الشواهد، منها ان القرآن كان له حفظة ومدرّسون ممّا يكشف عن جمعه ضمن المصحف ، وكذلك حديث الثقلين الدال على كونه مجموعاً ضمن كتاب جامع.

ويــرى الفريق الآخر أن هذا الجمع قد تحقق بعد وفاته ﷺ مستشــهدين بمجموعة من النصوص المروية من الفريقين.

منها: النصوص الدالــة على أنّ أول من جمع القــرآن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، مثل ما رواه علي بن إبراهيم بســنده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ رســول الله ﷺ قال لعلي: يا عــلي، القرآن خلف فراشي في المصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التوراة، فانطلق عــلي فجمعه في ثوب أصفر، ثمّ ختم عليــه في بيته، وقال: لا ارتدي حتى أجمعه، وإن كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه..»[1].

وروى المتقي الهندي عن محمد بن سيرين قال: «لمّا توفي النبي ﷺ، أقسم

---

(١) تفسير القمي: ٧٤٥.

علي أن لا يرتدي بـــرداء إلاّ الجمعة، حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل»[١]، وقال ابن النديم: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن[٢].

وقال ابن شهرآشـــوب: «وفي أخبار أبي رافع انّ النبي ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي: يا علي هذا كتاب الله خذه إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى إلى منزله فلمّا قبض النبي ﷺ جلس علي فألّفه كما أنزل الله وكان به عالماً[٣].

وهذه الروايـــات ونحوها تدلّ أن الجمع بالمعنـــى الثالث قد تمّ في عهد النبي ﷺ، وأن دور مَن بعده إنما كان هو جمعه في مصحف واحد.

وليس هناك اثر عملي مهم يترتب على العصر الذي تمّ فيه هذا الجمع بعد أن اثبتنا انّ الجمع بالمعنى الثالث قد تمّ في عصر الرسول ﷺ.

الخامس: جمع القرآن بمعنى توحيد المصاحف

ويبدو من مجموعة من النصوص انّ توحيد المصاحف على قراءة واحدة قد تحقّق في عهد عثمان بن عفـــان بعد أن تعدّدت مصاحف الصحابة وتمايزت بعد وفـــاة النبي ﷺ، فقد روى البخاري بســـنده عن ابن شـــهاب انّ انس بن مالك حدّثـــه «انّ حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشـــام في فتـــح أرمينية وآذربايجان مع أهل العراق، فافزع حذيفـــة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننســـخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وســـعيد بن العـــاص وعبد الرحمن بن الحارث بن

---

(١) كنز العمال: ١٣ / ١٢٧. وروى نظيره ابن أبي شـــيبة في المصنّف: ٧ / ١٩٧، وكذلك أبو نعيم في حلية الأولياء، وغيره.

(٢) الفهرست: ٤٨.

(٣) المناقب: ٢ / ٤٠.

هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانّما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف ممّا نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[١].

والمقصود بهذه الآفاق كبريات الحواضر الإسلامية. قال ابن أبي داوود: كانت ستة حسب الأمصار المهمة ذوات المركزية الخاصة، مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن، وحبس السابعة ـ وكانت تسمى الأم أو الإمام ـ بالمدينة، وزاد اليعقوبي مصر والجزيرة[٢].

ولكن الملحوظ أن المسلمين لم يلتزموا بقرار توحيد القراءات، ولذلك تداولوا القراءات المختلفة على مرّ العصور وإلى عصرنا الحاضر.

وسيأتي في باب القراءات أن قراءة عاصم بن أبي النجود ـ برواية حفص ـ المعتمدة اليوم في جلّ العالم الإسلامي هي المطابقة للمصحف المذكور.

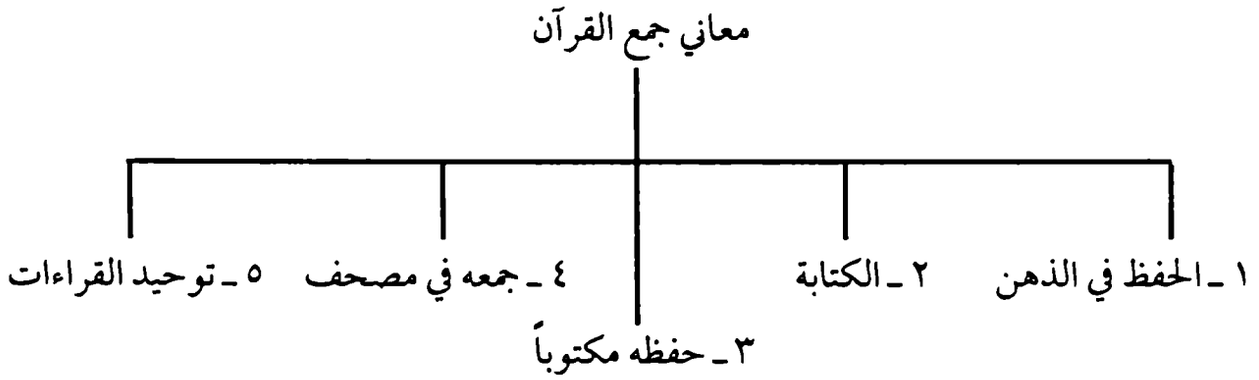

(١) الجامع الصحيح: ٣/ ٣٣٨، حديث ٤٩٨٧.
(٢) تلخيص التمهيد: ١/ ١٩٥.

«الدرس ٣٩»

٢ـ ترتيب القرآن:

مـــن البحوث التي أُثير حولها الجدل تحديد الفـــترة التي تمّ فيها الترتيب الحالي بين الآيات والســـور القرآنية، وانّه هل كان كذلك منذ زمن الرسول صلى الله عليه وآله أو أنّه أمر استحدث بعده صلى الله عليه وآله؟

ويفترض البحث في أمرين..

الأمر الأول: الترتيب بين الآيات القرآنية ضمن السورة الواحدة

الصحيـــح أنّ القرآن الكريم الموجود بين أيدينـــا يمتد في ترتيب آياته إلى عصر الرسول صلى الله عليه وآله. وتوجد على هذا عدّة شواهد..

الأول: انّ السورة القرآنية مهما اختلفت آياتها في المضامين وتاريخ النزول فهي تمثل وحدة جامعة للآيات التي تتضمنها وفق التسلسل الخاص فيما بينها.

فهي نظير كلمة المتكلم والرسالة والكتاب، فكما يكون التغيير في تسلسل مقاطـــع الكلمة أو الرســـالة أو في تسلســـل فصول الكتاب تلاعبـــاً به وخيانة لصاحبه، فكذلك التغيير في ترتيب آيات الســـورة الواحـــدة، فإنّه يعتبر تحريفاً وتلاعباً بالقرآن الكريم، لأنّ التسلسل الخاص بين الآيات دخيل في هيئة السور القرآنية، فالنصوص الواردة في فضل أية سورة لوحظ فيها الترتيب الخاص بين آياتها. وكذلك باقي أحكام السورة.

ولذلك لا يجوّز الفقهاء التغيير في آيات السورة الواحدة في الصلاة. فكل تغيير في ذلك يعتـــبر نوعاً من التحريف في القرآن. فتنفيـــه أدلة نفي التحريف

المتقدّمة، خصوصاً عندما نلاحظ أنّ هذا التغيير يصحبه عادة تغيّر السبك أو تغيّر المعنى واختلاف فهم مضامين الآيات.

الثاني: وجود العديد من النصوص الدالة على انّ الترتيب بين الآيات كان يتمّ بأمر من الرسول نفسه.

منها: ما أخرجه أحمد بن حنبل بإسناده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عن رسول الله ﷺ إذ شخَص ببصره ثمّ صوّبه، ثمّ قال: «أتاني جبرئيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة إلى آخرها»[١].

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام «وإنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول «بسم الله الرحمن الرحيم» ابتداءً للأخرى»[٢] مما يكشف عن تميّز السور في عصر الرسول ﷺ.

ومنها: الأحاديث الواردة في خواتيم بعض السور أو أوائلها، مثل ما رواه مسلم عن أبي الدرداء مرفوعاً: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال» وفي لفظ آخر: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف»[٣].

ونظيره ما رواه الكليني بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «ما من عبد يقرأ آخر الكهف إلاّ تيقّظ في الساعة التي يريد»[٤].

وكذلك ما ورد في آثار وفضل أوائل أو اواخر السور الأخرى، ممّا يعني ترتّب الآيات ضمن تسلسل محدّد منذ عهد الرسول وآل بيته (صلوات الله عليهم). وقد ادّعى عدد من الباحثين في علوم القرآن الإجماع على ذلك،

---

(١) الاتقان: ١ / ٢١٢.

(٢) تفسير العياشي ١/ ١٩، مستدرك الوسائل ٤/ ١٦٥.

(٣) الاتقان: ١ / ٢١٣.

(٤) أصول الكافي: ٢ / ٦٣٢.

منهم الزركشي في البرهان وأبو جعفر بن الزبير في مناسباته[١]، والسيوطي في الاتقان[٢].

الأمر الثاني: الترتيب بين السور

وقد اختلف العلماء والباحثون في ذلك، فمن يرى أنّ جمع القرآن ضمن مصحف واحد قد تمّ في عهد الخلفاء بعده ذهب إلى أن الترتيب الفعلي بين السور قد حدث آنذاك، بينما يرى آخرون ـ كابن الانباري والسيد المرتضى ـ أن الترتيب المذكور توقيفي قد تولاه النبي صلى الله عليه وآله.

وبما أنه لا تترتب على ذلك ثمرة مهمة لا موجب لإطالة الكلام فيه هنا.

«الدرس ٤٠»

٣ـ القراءات والقرّاء:

أ ـ القراءات وتعددها:

الملاحظ أنّ هناك قراءات عديدة للآيات القرآنية، والمشهور منها حالياً سبع قراءات منسوبة لسبعة من القرّاء. وقد تعدّدت الآراء حول القراءات المتعدّدة للقرآن الكريم، ومدى اعتبارها، والضوابط الدقيقة للقراءة المعتبرة.

وقد ادعى البعض تواتر القراءات السبع المشهورة، قال الزركشي: «والقراءات السبع متواترة عند الجمهور»[٣]، ونسب الزرقاني القول بتواتر القراءات العشر إلى «المحقّقين من الأصوليين والقرّاء كابن السبكي وابن

(١) الاتقان: ١ / ٢١١.
(٢) المصدر.
(٣) انظر: البرهان: ١ / ٣١٨.

الجزري والنويري...»[١].

ويجدر بنا أن نشير إلى تاريخ القراءات وأسباب تعدّدها، فنقول:

يرجع الاختلاف بين القراءات إلى عصر الصحابة عقيب وفاة الرسول صلى الله عليه وآله كما تشير إليه المصادر التاريخية، «حيث عمد جماعة من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله بعد وفاته إلى جمع القرآن في مصاحف، كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل والمقداد بن الأسود وأضرابهم، وربّما اختلفوا في ثبت النص أو في كيفية قراءته، ومن ثمّ اختلفت مصاحف الصحابة الأولى»[٢].

ويشير ابن أبي داوود إلى أنّ المصحف الذي جمع عثمان الناس عليه لم يخل من لحن، حيث ذكر انّ المصحف المذكور قد عرض على عثمان فقال: «قد احسنتم واجملتهم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها، ثمّ قال: أما لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا»[٣].

اذن فقضية اختلاف القراءات ليست وليدة العصور المتأخرة، وانّما تمتد إلى عصر الصحابة، بل تدل بعض النصوص ـ بغض النظر عن صحّتها ـ إلى تعدد القراءات في عصر الرسول صلى الله عليه وآله.

منها: ما روي عن أبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها فدخلنا جميعاً على رسول الله صلى الله عليه وآله، ودخل ثالث فقرأ كل واحد منّا غير قراءة صاحبه فجعل النبي صلى الله عليه وآله يحسّن الجميع...»[٤].

ومنها: ما عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أقرأني عبدالله بن مسعود وزيد وأُبي فاختلفت قراءتهم، بقراءة أيّهم آخذ؟ قال:

---

(١) مناهل العرفان: ١ / ٤٣٩.

(٢) تلخيص التمهيد: ١ / ٢١٣.

(٣) المصاحف لابن أبي داوود: ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) مسلم: ٢ / ٢٠٣، مسند أحمد: ٥ / ١٢٧.

فسكت رسول الله...[١].

ومنها: ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ... فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: إنّي سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقرئنيها.

فقال رسول الله ﷺ: أرسِلْه، اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ. فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أُنزلت، إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف. فاقرأوا ما تيسّر منه»[٢].

وهناك عدد آخر من النصوص بهذا المعنى رواها علماء الجمهور. وإن كنّا نتحفظ بالنسبة لمضمون بعضها المتضمن لاختلاف القرآن المُنزل.

ب ـ تدوين القراءات المشهورة:

اتّضح من خلال ما تقدّم انّ ظاهرة تعدد القراءات كانت معروفة منذ عصر الصحابة، وقد انتقلت إلى المسلمين

الذين تعلّموا القرآن منهم، وساهمت عدّة عوامل ـ سنشير إليها ـ في تعميق الاختلاف بين القراءات، وتكثيره، حتى صارت القراءة فنّاً كسائر الفنون.

وتجرّد ـ في فترة لاحقة ـ قوم لفنّ القراءة واعتنوا به حتى اشتهر فيه جماعة عُرفوا بالقرّاء، ولكل واحد منهم قراءة يتميّز بها.

وقد تصدّى المهتمون ببحوث القرآن الكريم إلى ضبط هذه القراءات وجمعها.

فذكر ابن الجزري أنّ أول من تصدى لتدوين القرّاء وقراءاتهم هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (ت: ٢٢٤) تلميذ الكسائي، وقال: «وجعلهم

---

(١) المستدرك: ٢ / ٣٢٣.

(٢) الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٩، حديث ٤٩٩٢.

فيما احسب خمسة وعشرين قارئاً، بما فيهم السبعة الذين اشتهروا فيما بعد».

وجـــاء بعده أحمد بن جبير بن محمد أبو جعفر الكوفي (ت: ٢٥٨) فجمع كتاباً في قراءات الخمسة من كل مصر واحداً.

ثمّ القاضي اسماعيل بن اسحاق ـ صاحب قالون ـ (ت: ٢٨٢) ألّف كتاباً جمع فيه قراءة عشرين قارئاً.

ثمّ ألّف أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠) كتاباً حافلاً سمّاه الجامع فيه نيّف وعشرون قراءة.

الى أن جـــاء ابن مجاهد أبو بكر أحمد بن موســـى (ت: ٣٢٤) فألّف كتاباً اقتصر فيه على قراءات السبعة فقط[١]. وبعده ألّف الآخرون على منواله.

وهكذا نلاحظ أنّ تعيين هؤلاء القرّاء الســـبعة وتمييزهم عن غيرهم كان مصدره ابن مجاهد في القرن الرابع الهجري. ولم يميّزهم الذين سبقوه في تدوين القراءات والقرّاء.

«الدرس ٤١»

ج ـ أهم عوامل تعدّد القراءات:

نستطيع أن نعتبر أهم العوامل التي أدّت إلى اختلاف القراءات ما يلي:

١ ـ عدم دقّة بعض الصحابة ومـــن أخذ عنهم في حفظ الآيات، ولذلك نجـــد أنّ بعض القراءات تختلف في الكلمات زيـــادةً ونقيصة، أو تتباين كلماتها، ولعلّ من ذلك ما روي عن يزيد النخعي قال: إنّي لفي المســـجد زمن الوليد بن عقبة... واختلفا في آية من ســـورة البقرة قرأ هذا «وأتمّوا الحج والعمرة للبيت» وقرأ هذا: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ﴾[٢].

---

(١) انظر: البيان: ١٧٨.

(٢) تلخيص التمهيد: ١ / ١٥٩.

٢ ـ بداءة الخط الذي كتبت به المصاحف.

حيث لم يكن الخط متطوّراً آنــذاك، ولم تكن له قواعد دقيقة، ويمكن أن نســجّل ـ في هذا المضمار ـ الملاحظات التالية ـ في الخط ـ التي قد تكون منشــأ لاختلاف القراءات:

أ) عدم التنقيط، ولعلَّ منشــأ ذلك قراءة الكســائي: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبّتوا)[١]. وقرأ الباقون (فَتَبَيَّنُــوا). ومنه قراءة ابن عامر وحفص (ويكفّر عنكم)[٢]. وقرأ الباقون:ة(نكفّر عنكم).

ب) تجريد الحروف عن الحركات ونحوها من العلامات ، فقد قرأ نافع قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُسْــأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[٣] بصيغة النهي، بينما قرأها الباقون بصيغة المضارع المجهول.

ج) إسقاط الألفات: فقد قرأ أبو جعفر والبصريّون: (وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة)[٤]، وقرأ الباقون (واعدنا).

٣ ـ اختلاف لغات العرب ولهجاتهم.

مثل: (نســتعين) قال الفرّاء: «هي مفتوحة في لغة قيس وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون»[٥].

٤ ـ تحكيم الرأي والاجتهاد.

ويبدو أنّ هذا من العوامل المهمّــة لاختلاف القراءات، روى أبو جعفر الطبري والحاكم النيسابوري ـ وصحّحه ـ عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى:

---

(١) انظر: سورة الحجرات: ٦.

(٢) انظر: سورة البقرة: ٢٧١.

(٣) انظر: سورة البقرة: ١١٩.

(٤) انظر: سورة البقرة: ٥١.

(٥) كتاب سيبويه: ٢ / ٢٥٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] هي من خطأ الكاتب، وإنّما هي: (حتى تستأذنوا وتسلّموا)[٢]. وقد تقدّمت مجموعة أخرى من النصوص. هذه هي أهم العوامل التي أدّت إلى اختلاف القراءات وربّما تكون هناك عوامل أخرى، تعرّضت لها المصادر المطوّلة.

وبعد أن عرفنا اختلاف القراءات وأهم عوامل هذا الاختلاف فلابدّ من تحديد ضوابط القراءة الصحيحة المعتبرة، وعدم الاعتماد على غيرها من القراءات غير الثابتة. وهذا ما سوف نشير إليه إن شاء الله تعالى.

أمّا ما هي الضابطة المعتمدة في اختيار القراءة الصحيحة فنقول: أشرنا آنفاً إلى أنّ كثيراً من علماء الجمهور اعتمدوا القراءات السبع المعروفة، وبعضهم اعتمد القراءات العشر ـ التي سنشير إلى أصحابها ـ وقد أشرنا وسنوضح عدم الخصوصية لهذه القراءات بالنسبة لغيرها.

أمّا أتباع أهل البيت عليهم السلام فيعتمدون كل قراءة كانت مألوفة في عصور الأئمة عليهم السلام في الصلاة وغيرها، كما نصّ على ذلك السيد الحكيم رحمه الله[٣]، وغيره من الفقهاء.

لأنّ عدم ردع الأئمة من آل البيت عليهم السلام عن أية قراءة مألوفة في عصورهم دليل على اعتبارها كلها عندهم عليهم السلام ، بل تضمّنت بعض النصوص الحث على القراءة المألوفة بين الناس.

وعلى كل حال ، لاشك في اعتبار النسخة المتداولة من القرآن الكريم التي هي قراءة عاصم بن أبي النجود الكوفي ـ برواية حفص ـ التي أخذها عن

---

(١) سورة النور : ٢٧ .

(٢) جامع البيان: ١٨ / ٨٧.

(٣) المستمسك: ٦ / ٢٤٥.

علي بن أبي طالب عليه السلام وعدد آخر من الصحابة، وقد حكى الذهبي عن حفص عن عاصم عن أبي عبد الرحمن قال «لم أخالف علياً في شيء من قراءته، وكنت أجمع حروف علي، فألقى بها زيداً في المواسم بالمدينة فما اختلفنا إلاّ في التابوت كان زيد يقرأ بالهاء وعلي بالتاء»[1].

وروي أنّ زيد لمّا قرأ (التابوه) قال علي عليه السلام اكتبه: (التابوت) فكتبه كذلك[2].

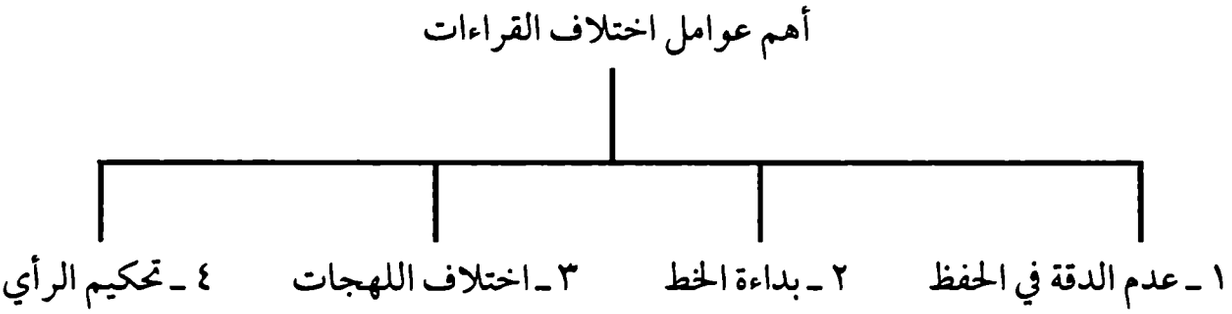

(١) سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٢٦.

(٢) تدوين القرآن: ٣٤٥.

«الدرس ٤٢»

د ـ القراءات السبع والأحرف السبعة:

قدّمنا أنّ هناك سبعة من القرّاء تُنسب لهم القراءات المعروفة بـ(القراءات السبع) حيث اشتهرت بهذه التسمية، وانّ كثيراً من علماء الجمهور قد اعتمد هذه القراءات وادّعى تواترها، وربط بعضهم بينها وبين ما ورد من أنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، مدّعياً انّ هذه القراءات السبع هي الأحرف السبعة التي تشير إليها هذه النصوص.

ونحن نبحث أوّلاً في نصوص الأحرف السبعة ومدى انطباقها على القراءات السبع، ثمّ نتحدّث عن مدى اعتبار هذه القراءات السبع.

فكرة نزول القرآن على سبعة أحرف:

وردت مجموعة من النصوص التي تضمّنت انّ القرآن قد نزل على سبعة أحرف، وقد اختلف العلماء والباحثون في فهم هذه النصوص وتفسير الأحرف السبعة.

وعندما نرجع إلى هذه النصوص نجدها مختلفة فيما بينها وغير متّفقة على مضمون واحد، فبعضها يفسّر الأحرف السبعة بأمر يرجع إلى معاني الآيات القرآنية بينما يبدو من نصوص أخرى انّ الأحرف السبعة ترجع إلى الفسحة في النطق بالآيات الكريمة وتعدد كيفيات قراءتها.

فمن القسم الأول مجموعة من النصوص المروية في المصادر الحديثية الشيعية والسنّية، منها..

١ ـ ما رواه أبو جعفر الصدوق بسند فيه محمد بن يحيى الصيرفي ـ وهو

مجهول ـ عن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه»[١].

٢ ـ ما رواه محمد بن الحسن الصفّار عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال: «تفسير القرآن على سبعة أحرف، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، ذلك تعرفه الأئمة»[٢].

٣ ـ ما رواه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النعماني مرسلًا عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كاف، وهي: أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل ومثل وقصص...»[٣].

ورغم انّ هذا النص لم يستعمل لفظ «أحرف» إلاّ أنّه يتفق مع بعض النصوص الآتية التي استعملت هذه اللفظ.

٤ ـ في تفسير الطبري عن أبي قلابة قال: «بلغني انّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل»[٤].

ونلاحظ انّ هذه النصوص ـ ونحوها ـ اجنبية تماماً عن موضوع تعدّد القراءات، لأنّها تتحدث عن المعاني والمواضيع التي يتناولها القرآن الكريم.

القسم الثاني من النصوص ـ المتحدّثة عن الأحرف السبعة ـ الذي يلوح منه تفسير الأحرف السبعة بالقراءات وتعدّد النطق بآيات القرآن الكريم. من ذلك..

١ ـ ما رواه الترمذي عن أبي بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لقي جبرئيل، فقال له: «انّي بُعثت إلى أمّة أُميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمّد، انّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف»[٥].

(١) الخصال، أبواب السبعة: ٢ / ٣٥٨.
(٢) بصائر الدرجات: ١٩٦.
(٣) بحار الأنوار: ٩٣ / ٤، ٩٧.
(٤) تفسير الطبري: ١ / ٢٣.
(٥) سنن الترمذي: ١ / ١٩٤ حديث ٢٩٤٤.

٢ ـ روى البخاري ومسلم عن ابن شهاب انّ عمر سمع هاشم بن حكيم يقرأ في صلاته على حروف لم يكن يعرفها، فأتى به إلى رسول الله ﷺ فقال: «كذلك أُنزلت، إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه»[١].

٣ ـ روى أبو داوود: أن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبي انّي أُقرئت القرآن فقيل لي: على حرف أو حرفين، فقال الملك الذي معي: قل على حرفين، قلت: على حرفين، فقيل لي على حرفين أو ثلاثة، فقال الملك الذي معي: قل على ثلاثة، قلت: على ثلاثة، حتى بلغ سبعة أحرف» ثمّ قال: «ليس منها إلاّ شاف كاف إن قلت سميعاً عليما، عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب»[٢].

٤ ـ أخرج الطبري بإسناده عن أبي هريرة انّه قال: «قال رسول الله ﷺ: «إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة»[٣].

ونلاحظ انّ هذه الروايات ـ ونحوها غيرها ـ تفسح المجال واسعاً لعدم التقيّد بصيغة محددة للنص القرآني، بل يذهب بعضها أكثر من ذلك حيث يسمح بالتغييرات الكيفية المؤثرة على المعنى أيضاً كما نلاحظه في الروايتين (٣ و٤) عن أُبي بن كعب وأبي هريرة.

وتواجه هذه الروايات مجموعة من الملاحظات تمنع من الأخذ بظاهرها، منها..

---

(١) انظر: الجامع الصحيح: ٣ / ٣٣٩ حديث ٤٩٩٢.

(٢) سنن أبي داوود: ٢ / ١٠٢.

(٣) البيان: ١٩٢.

«الدرس ٤٣»

أ) تناقضها فيما بينها، فبينما تسمح بعضها بكل تغيير في كلمات القرآن ـ شريطة عدم ختم الرحمة بالعذاب وبالعكس ـ نجد البعض الآخر منها يسمح إلى حدٍّ سبعة حروف فقط.

وقد حاول البعض رفض التحديد بالسبعة مدّعياً انّ «المقصود من السبعة هي الكثرة النسبية»[١].

ولكنه غير صحيح، لأنّ اتفاق النصوص المحدّدة على التحديد بالسبعة لا ينسجم مع إلغاء التحديد وكونه لمجرّد الكناية عن الكثرة.

ب) انّه يفتح باب التلاعب ويمنح الشرعية لتحريف القرآن الكريم، ولا يليق بأي مسلم الالتزام بذلك والقبول به، خصوصاً انّ هذه الأحرف السبعة لم تحدد ضابطتها، قال المحقّق السيد الخوئي رحمه الله: إن كان المراد من هذا التوجّه انّ النبي صلى الله عليه وآله قد جوّز تبديل كلمات القرآن الموجودة بكلمات أخرى تقاربها في المعنى ـ ويشهد لهذا بعض الروايات المتقدّمة ـ فهذا الاحتمال يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبدية والحجة على جميع البشر، ولا يشك عاقل في أنّ ذلك يقتضي هجر القرآن المُنَزل وعدم الاعتناء بشأنه، وهل يتوهم عاقل ترخيص النبي صلى الله عليه وآله أن يقرأ القارئ «يس والذكر العظيم إنّك لمن الأنبياء على طريق سوي، انزال الحميد الكريم لتخوّف قوماً ما خُوّف أسلافهم فهم ساهون». فلتقرّ عيون المجوّزين لذلك، سبحانك إن هذا إلاّ بهتان عظيم، وقد قال الله تعالى: ﴿**قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ**﴾[٢].

---

(١) انظر: تلخيص التمهيد: ١ / ٢٩٥.

(٢) البيان: ١٩٧ ـ ١٩٨.

ج) وجود مجموعة من النصوص ـ بعضها صحيح السند ـ تنفي ذلك، وتمنع من التلاعب بالقرآن الكريم، منها: صحيحة زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إنّ القرآن واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف يجيء من قِبل الرواة»[١].

ومنها ما رواه في الكافي بسند معتبر عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ الناس يقولون انّ القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: «كذبوا أعداء الله، ولكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد»[٢].

د) لم يعرف عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قد قرأ آية بوجهين أو أكثر لا عند تبليغها ولا بعد ذلك، وكذلك الأئمة من أهل بيته عليهم السلام، مع أنّه لو كان ذلك من القرآن لما تقيّدوا بصيغة واحدة.

ومن مجموع ما ذكرناه يتّضح انّ هذه النصوص لا تصلح لإثبات نزول القرآن على سبعة أحرف، بحيث يتخيّر القارئ في قراءته بصيغ وأشكال مختلفة.

هـ ـ القرّاء السبعة

أشرنا إلى أنّ كثيراً من علماء الجمهور قد ادّعى تواتر القراءات السبع المعروفة، ومن ثمّ فهي كلّها قراءات معتبرة، قال بدر الدين الزركشي «والقراءات السبع متواترة عند الجمهور، وقيل بل مشهورة...»[٣].

ونسب الزرقاني القول بتواتر القراءات العشر إلى «المحقّقين من الأصوليين والقرّاء كابن السبكي وابن الجزري والنويري...»[٤].

(١) أصول الكافي، كتاب فضل القرآن باب النوادر: ٢ / ٦٣٠.
(٢) المصدر.
(٣) البرهان: ١ / ٣١٨.
(٤) مناهل العرفان: ١ / ٤٣٩.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى عدم تواتر القراءات السبع المعروفة، كما يتضح من خلال مرور سريع على القرّاء السبعة وراويين من رواتهم حسب ما جاء في كتاب «السبعة» لابن مجاهد، وإلاّ فالرواة أكثر من ذلك، وهؤلاء هم ..

١ ـ عبدالله بن عامر اليحصبي، قارئ الشام (ت: ١١٨ هـ) وراوياه هما هشام بن عمّار وابن ذكوان، ولم يدركاه، لأنّ هشاماً ولد عام ١٥٣، ومات ٢٤٥، وابن ذكوان ولد عام ١٧٣ ومات ٢٤٢، ومن ثمّ لم يعرف السبب في اختيار ابن مجاهد هذين للرواية عن ابن عامر. علماً أنّه قد طعن عدد من العلماء في وثاقة هشام. وورد الطعن في ابن عامر أيضاً.

٢ ـ عبد الله بن كثير الداري، قارئ مكة (ت: ١٢٠ هـ) وراوياه هما أحمد بن محمد البزي، ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بقنبل، ولم يدركاه أيضاً، لأنّ الأول ولد سنة: ١٧٠ هـ وتوفي سنة: ٢٥٠هـ، والثاني ولد سنة ١٩٥هـ، وتوفي سنة: ٢٩١هـ.

وقد ورد الطعن فيهما، خصوصاً بالنسبة إلى البزي.

٣ ـ عاصم بن أبي النجود الأسدي، قارئ الكوفة (ت: ١٢٨ هـ).

وراوياه هما حفص بن سليمان (٩٠ ـ ١٨٠ هـ)، وشعبة أبو بكر بن عيّاش (٩٥ ـ ١٩٣ هـ).

٤ ـ أبو عمر بن العلاء المازني، واسمه زبان قارئ البصرة (ت: ١٥٤ هـ).

وراوياه حفص بن عمر الدوري (ت: ٢٤٦ هـ). وصالح بن زياد السوسي (ت: ٢٦١ هـ) ولم يدركاه، وإنّما رويا عن اليزيدي عنه.

وقد ورد الطعن في راوييه، فيما وثّقهما آخرون.

٥ ـ حمزة بن حبيب الزيات قارئ الكوفة أيضاً (ت: ١٥٦ هـ).

وراوياه هما خلف بن هشام البزاز (١٥٠ ـ ٢٢٩هـ). وخلاّد بن خالد

الشيباني (ت: ٢٢٠هـ).

رويا عنه بالواسطة. وقد طعن البعض بقراءة حمزة.

٦ ـ نافع بـــن عبدالرحمن الليثي، قارئ المدينة (ت: ١٦٩هـ) وراوياه هما عيســـى بن ميناء المعروف بقالون (١٢٠ ـ ٢٢٠هـ) وعثمان بن سعيد المعروف بورش (١١٠ ـ ١٩٧هـ) وورد الطعن في نافع وقالون، بينما مدحهما آخرون.

٧ ـ علي بن حمزة الكسائي، قارئ الكوفة أيضاً (ت: ١٨٩هـ) وراوياه هما الليث بن خالد البغدادي (ت: ٢٤٠هـ) وحفص بن عمر الدوري (ت: ٢٤٦هـ).

وهؤلاء هم القرّاء السبعة المعروفون مع اثنين من رواة كل واحد منهم، على ما ذكره ابن مجاهد الذي جمعهم. وقد زاد المتأخرون أسماء ثلاثة من القرّاء، وهم:

٨ ـ خلف بن هشـــام راوي حمزة، وقارئ بغداد (ت: ٢٢٩هـ) وراوياه هما: أبو يعقوب اســـحاق بن إبراهيـــم المروزي (ت: ٢٨٦هـ) وأبو الحســـن ادريس بن عبدالكريم (ت: ٢٩٢هـ).

٩ ـ يعقوب بن اسحاق الحضرمي قارئ البصرة (ت: ٢٠٥هـ).

وراويـــاه هما: محمد بن المتوكل اللؤلؤي المعروف برويس (ت: ٢٣٨هـ) وروح بن عبدالمؤمن الهذلي (ت: ٢٣٥هـ).

١٠ ـ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي، قارئ المدينة (ت: ١٣٠هـ).

وراوياه هما ابن وردان، عيسى الحذاء (ت: ١٦٠هـ) وابن جمّاز، سليمان بن مسلم الزهري (ت: ١٧٠هـ).

فهؤلاء هم القرّاء العشرة المعروفون بين أهل التراجم[1].

---

(١) اعتمدنا في ذكر اســـمائهم وخصوصياتهم على كتابي البيـــان: ١٤٠ ـ ١٦١، وتلخيص التمهيد: ٣٢٤ ـ ٣٢٦ فراجع.

«الدرس ٤٤»

ويتضح مـــن خلال مراجعة أحوال القرّاء المذكورين وقراءاتهم انّ شرط التواتر بالنســـبة لكل قراءة منها مفقود، حيث أنّ هـــذه القراءات نقلت إليهم وعنهم بطريق الآحاد، خاصة انّ بعـــض رواتها مطعون فيهم، ولذلك نجد انّ عدداً من العلماء طعن في بعض قراءات هؤلاء القرّاء[١].

ومع ذلك نرى بعض الســـذّج قد حكم باعتبار القراءات الســـبع اعتماداً على الروايات الدالّة على نزول القرآن على سبعة أحرف، زاعماً ـ من دون دليل ـ على أنّ الأحرف السبعة هي القراءات السبع المذكورة.

ولكن من خلال ما بيّنّا سابقاً تتضح المناقشة في هذا الادعاء حيث أوضحنا:

أولاً: عدم صحة التمسك بنصوص الأحرف السبعة.

ثانياً: انّ تمييز هذه القراءات السبع عن غيرها مصدره ابن مجاهد في القرن الرابع الهجري من دون أية ميزة لهم، فكيف تُحمل تلك النصوص ـ على فرض صحّتها ـ على هذه القراءات؟

وقد انتقد مجموعة من الباحثين ابن مجاهد على اختيار هذا العدد، قال أحمد بن عمار المهدوي: «لقد فعل مسبِّع هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كلَّ من قلَّ نظره انّ هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته اذا اقتصر ـ أي اقتصر على عدد معيّن ـ نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة...»[٢].

وقد برّره أبو الحسن علي بن محمد ـ شيخ أبي شامة ـ بأنّ ابن مجاهد اختار مـــن القراءات ما وافق خط المصحف... ورأى أن يكونوا ســـبعة تأســـيّاً بعدَّة

---

(١) انظر: البيان: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) الاتقان: ١ / ٣٢٣، طبعة ١٣٧٨.

المصاحف التي بعثها عثمان إلى الآفاق[١].

وعلى كل حالٍ فالمعتبر في القراءة أن تكون مشهورة معروفة، وتطبيق ذلك بوضح على قراءة عاصم بن أبي النجـــود برواية حفص، التي عليها المصاحف المعتمدة في جلَّ العالم الإسلامي. والله العالم.

(١) جمال القرّاء: ١١١.

الخلاصة

١ ـ جمع القرآن له خمسة معان..

أ) الحفظ في الذاكرة.

ب) الكتابة.

ج) جمعه مكتوباً وحفظه.

د) جمع المكتوب في كتاب واحد.

هـ) توحيد القراءات.

٢ ـ إن ترتيب آيات القرآن الكريم كان في عهد النبي ﷺ بينما ترتيب سوره حدث لاحقاً بعد وفاته ﷺ.

٣ ـ القراءة المعتبرة هي التي كانت منتشرة ومتداولة في عصور أهل البيت ولم يتم الردع عنها، والمسلّم منها قراءة حفص عن عاصم.

٤ ـ إن الاقتصار على القراء السبعة المعروفين كان من جانب ابن مجاهد (ت: ٣٢٤هـ)، ولا خصوصية شرعية لهم.

٥ ـ الأقرب أن مقصود بعض الروايات من نزول القرآن على سبعة أحرف هو ما يرجع إلى المعنى والمضمون لا القراءات السبع.

٦ ـ أهم عوامل اختلاف القراءت أربع..

أ) عدم الدقة في الحفظ.

ب) بداءة الخط الذي كتبت به المصاحف.

ج) اختلاف لهجات العرب.

د) تحكيم الرأي والاجتهاد.

الأسئلة

١ ـ اذكر المعاني الخمسة لجمع القرآن.

٢ ـ ما هي الشواهد على أن ترتيب الآيات الحالي يمتد إلى عصر الرسول؟

٣ ـ من الذي ميّز القرّاء السبعة المعروفين عن غيرهم وفي أى قرن كان ذلك؟

٤ ـ ماهي أهم عوامل اختلاف القراءات؟

القسم الخامس

«المكي والمدني»

القسم الخامس: المكي والمدني

من الأبحاث المرتبطة بعلوم القرآن والتي اهتمَّ بها المفسّرون والباحثون البحث عن الآيات المكيّة والمدنية وتمييز كل منهما عن الأخرى، ودراسة خصائص كل من القسمين.

معنى المكي والمدني:

وقبل أن ندخل في صلب الموضوع لابدّ أن نحدد المقصود من المكي والمدني، حيث ذكرت ثلاثة معان لهما.

أ: ان المقصود بالمكي ما نزل بمكة أو ضواحيها. وبالمدني ما نزل في المدينة أو ضواحيها.

ب) ان المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة، قيل: وعليه يحمل قول من قال: «انّ ما صدر في القرآن بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾فهو مكي، وما صدر فيه بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فهو مدني»[1].

ج) انّ المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها وإن كان نزوله بمكة.

ويترجح المعنى الثالث على المعنيين الآخرين من ناحيتين:

الأولى: ان المكي والمدني بالمعنى الثالث يشكل كل آيات القرآن ـ كما جرى عليه المفسّرون ـ بخلاف المعنيين الآخرين لهما، فالآيات النازلة في غير مكة والمدينة وضواحيهما لا تدخل تحت المكي والمدني بالمعنى الأول، كما ان

(١) مناهل العرفان: ١ / ١٩٦.

الآيــات التي لا تتضمن خطاباً مثل آيات تمجيد الله ســبحانه، وكذلك الآيات التــي لا تختص بأهل مكة والمدينة ـ وما أكثرهــا ـ لا تدخل تحت المكي والمدني بالمعنى الثاني، بل حتى الآيــات التي تخاطب أهل مكّة أو أهل المدينة لا تختص بهم، حيث «انّ القرآن حي لم يمت وأنّه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر...» كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام.

الثانية: ان تمييز الآيات على أســاس بقعة نزولهــا أو المخاطبين بها ليس بالأمر المهم بحيث تترتب على كل من القسمين خصائص تختلف عن خصائص القســم الآخر، بينما تمييز الآيات النازلة قبل الهجرة عن الآيات النازلة بعدها ـ وهو الأســاس المعتمد في المعنى الثالث للمكي والمــدني ـ ربّما تترتب عليه آثار هامّة، حيث يمكن استكشــاف خصائص لكل من القســمين تُميّزه عن القسم الآخر، باعتبار ان حدث الهجرة المائز بين القسمين ليس قضية هامشية عابرة في مسيرة الرسالة الإسلامية وإنّما هو حدث فاصل وحاسم فيها، إذ كان الإسلام قبلها مجرد تعاليم قيّمة جذبت حولها مجموعة من المؤمنين، بينما تحوّل بعد الهجرة إلى كيان متكامل قائم حيث تصدى لبناء دولة وقيادة المجتمع بكل مستلزماته، فمن الطبيعي أن تكون للآيــات النازلة بعد الهجرة خصائص تختلف عن تلك التي نزلت قبلها، فيســتحق ذلك الدراســة الدقيقة والمتأنية لمعرفة طبيعة النقلة الحاسمة للرسالة الإسلامية بعد الهجرة، وما وفّره الدين الجديد من مستلزمات لهذا التحوّل الحاسم فيزيدنا بصيرة بالإسلام. وبشموليّته.

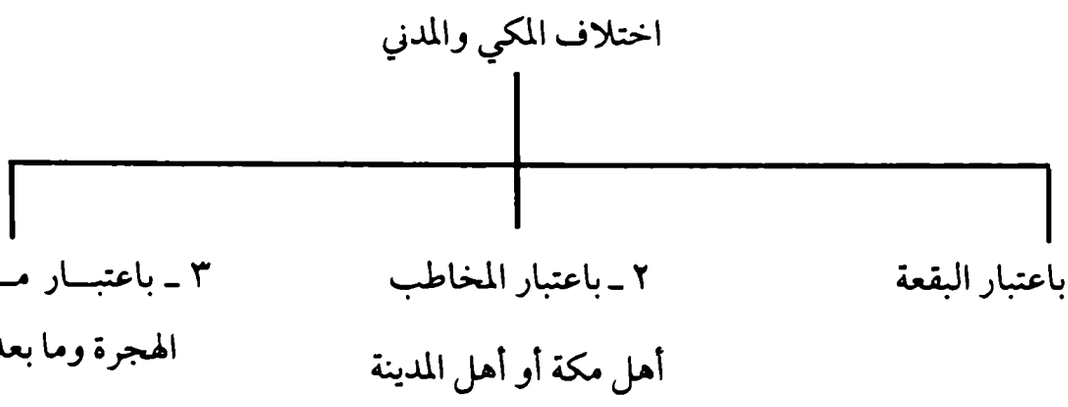

«الدرس ٤٥»

وقد ذكر الباحثون خصائص لكل من المكي والمدني نلخّصها فيما يلي:

١ـ خصائص القسم المكي

أ) قِصَر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي.

لكنّا نلاحظ انّ هذه ليست حالة مطردة حيث نجد أنّ مجموعة من السور والآيات الطوال مكية مثل الشعراء، الاعراف، الفرقان، الإسراء، يونس، يوسف، الأنعام، الشورى، الكهف، الأنبياء، المؤمنون، وغيرها.

كما انّ مجموعة من الآيات والسور القصار مدنية مثل النصر، البيّنة، الجمعة، التغابن، الصف، الرحمن ـ آياتها قصار ـ وغيرها.

نعم، أكثر السور القصار والسور ذوات الآيات القصار مكية، كما انّ نسبة السور الطوال المدنية أكثر من نسبة السور الطوال المكية.

ب) الدعوة إلى أصول الإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنّة والنار.

ونلاحظ أيضاً انّ كثيراً من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذه الأصول والمفاهيم آيات مدنية، نعم أكثر الآيات والسور المتضمنة لذلك آيات وسور مكية.

ج) الحث على مكارم الأخلاق والاستقامة في السلوك، وذمّ الممارسات والعادات المنبوذة كسفك الدماء ووأد البنات وغيرهما.

ونلاحظ أنّ هذه حالة غالبية أيضاً، ولا تختص بالسور المكية.

د) مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم.

هـ) الحديث عن الأنبياء والأمم السابقة.

ونلاحظ انّ هاتين الخاصتين لا تختص بهما السور المكية أيضاً، وانّما ذلك غالبي أيضاً.

و) مخاطبة كل الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وعدم الاقتصار على المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

وعند مراجعة دليل آيات القرآن الكريم نلاحظ ورود ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾تسع مرّات في أربع سورة مدنية ـ البقرة والنساء والحج والحجرات ـ.

كما انّ مخاطبة المؤمنين وردت في الآيات المكية ثلاث مرات ـ لكن بغير لفظة يا أيها الذين آمنوا ـ وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[3].

وممّا لاحظناه انّ لفظة «كَلاّ» رغم ورودها ثلاثاً وثلاثين مرة في القرآن فإنّها لم ترد في آية مدنية، لكنه لا يبدو فارقاً مهماً.

٢ـ خصائص القسم المدني

قيل: أهم ما يشيع في القسم المدني من خصائص عامة هي:

أ) طول السورة والآية المدنيتين.

ب) تفصيل البراهين والأدلة على المفاهيم الدينية. وأُسس العقيدة الإسلامية.

ج) مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلوفي دينهم.

---

(١) سورة إبراهيم: ٣١.

(٢) سورة الزمر: ١٠.

(٣) سورة العنكبوت: ٥٦.

د) التحدث عن المنافقين ومشاكلهم.

هـ) تفصيل أحكام الرسالة الإسلامية في الحدود والفرائض والجهاد والحقوق والقوانين المتنوّعة الأخرى.

ولكن الملاحظ أن بعض هذه الخصائص المدعاة غالبية وليست عامة.

وعلى كل حال، فاختلاف خصائص القسمين المكي والمدني يرجع إلى اختلاف طبيعة المرحلة والظروف التي كانت تحيط بالإسلام والمسلمين أثناء نزول كلٍّ من القسمين ـ كما سنوضحه في مناقشة الشبهات ـ.

هذا، وقد عدّ بعض الباحثين (٨٦) سورة مكية و (٢٨) سورة مدنية[1]، وإن كان هناك اختلاف جزئي في تصنيف بعض السور والآيات في كونها مكية أو مدنية.

«الدرس ٤٦»

٣ـ شبهات المستشرقين حول المكي والمدني

لقد درس بعض المستشرقين ظاهرة المكي والمدني وفكرة وجود خصائص لكل منهما، فحاولوا استخلاص ميزات وخصائص لكل من المكي والمدني، ومن ثَمّ استنتجوا من ذلك انّ القرآن خضع لظروف بشرية متأثرة بالمحيط والمجتمع، وبالتالي فهو غير مرتبط بالله تعالى المنـّزه عن التأثر بهذه المؤثرات.. فهو من تأليف (محمد) لا من وحي السماء.

هذه هي الفكرة التي تدور حولها شبهاتهم هنا، وقبل أن نتطرّق إلى هذه الشبهات ومناقشتها بشكل تفصيلي، لا بدّ أن ننبّه إلى نقطة هامّة.

وهي أنّا يجب أن نفرّق بين خضوع القرآن للظروف والحالة البشرية، وبين

(١) التمهيد في علوم القرآن، الشيخ محمد هادي معرفة، الطبعة الثالثة، ٢٠١١م، منشورات ذوي القربى، ايران ـ قم: ١/ ١٦٧.

انسجامه مع الواقع الموضوعي وطبيعة التدرج الموضوعي للرسالة الاسلامية.

ويتجلّى الفرق بينهما من خلال آثار وسمات كل من الحالتين، فمن آثار الحالة الأولى:

أ) التذبذب في المستوى الفني.

ب) المناقضة وعدم انسجام المفاهيم والمواقف والتشريعات.

ج) التطوّر التدريجي سواء بالنسبة للأسلوب أم بالنسبة للمضمون بسبب تراكم الخبرات أو نحوها.

د) انعكاس الحالات الإنسانية، مثل الانفعال والغضب والعاطفة ونحوها عليه وتأثره أسلوباً ومضموناً بها.

بينما نلاحظ أنّ آثار الحالة الثانية ـ أي الانسجام مع الواقع الموضوعي ـ تختلف تماماً عن طبيعة تلك الآثار، لأنّها ترجع إلى معايشة هذا الواقع واستيعابه، لتوجيهه وتطويره..

وعندما نرجع إلى القرآن الكريم لا نلمس أي مؤشر على خضوعه للحالة البشرية، ولا نجد فيه أي أثر من آثار هذا الخضوع، فليس فيه تذبذب في المستوى الفني أو مناقضة في المضمون، كما لا يخضع للتطوّر التدريجي ولا أمثال ذلك مما أشرنا إليه قبل قليل.

بل الملاحظ فيه انسجامه باسلوبه ومضمونه مع متطلّبات المراحل التي كانت تمرّ بها مسيرة الرسالة الإسلامية الطويلة والمعقّدة خلال حياة الرسول ﷺ، وهذا يزيد القرآن عظمة وروعة ـ على العكس ممّا رامه هؤلاء المستشرقون ـ، إذ يؤكّد ارتباطه بقوة عليا محيطة بالواقع الموضوعي وقادرة على إدارته بأزمانه وتعقيداته وظروفه المختلفة من دون أن تنفعل وتتأثر هي بالظروف والمؤثرات.

وقد التبس الأمر على هؤلاء المستشرقين ـ عن قصد أو من دون قصد ـ ولم

يميّزوا بين الحالتين وطبيعة آثارهما، فجاء حكمهم معكوساً بعيداً عن الصواب، بينما كان حرياً بهم أن يتأمّلوا في ظاهرة انسجام القرآن ـ رغم تنوّع مواضيعه ـ مع برهتين مختلفتين تماماً ـ قبل الهجرة وبعدها ـ وعدم تذبذب مستواه ولا تناقض مضمونه خلال هذه المسيرة الطويلة والمتشعبة، ويجعلوا هذا برهاناً على عدم كونه من تأليف البشر المتأثّر بمحيطه وظروفه وانفعالاته ومشاعره.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[2] [3].

وبعد الانتباه لهذه النقطة الهامّة، سنتناول تلك الشبهات ومناقشتها:

الشبهة الأولى

انّ القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدّة والعنف بل السباب أيضاً، وهذا يدلّ على تأثّر محمد بالبيئة التي كان يعيش فيها، لأنّها مطبوعة بالغلظة والجهل، ولذا يزول هذا الطابع عندما ينتقل محمد إلى مجتمع المدينة، الذي تأثّر فيه ـ بشكل أو بآخر ـ بحضارة أهل الكتاب وأساليبهم، وقد استشهد هؤلاء المستشرقون لتثبيت هذه الشبهة بمجموعة من السور المكية المطبوعة بطابع الوعيد والتهديد والتعنيف مثل سور «المسد» و«العصر» و«التكاثر» و«الفجر» وغيرها[4].

والجواب عن هذه الشبهة هو :

أولاً: إنّا نرفض تماماً اشتمال القرآن الكريم على السباب وكل مالا يليق،

---

(١) سورة محمد: ٢٤.

(٢) سورة النساء: ٨٢.

(٣) تقدّم في مبحث اعجاز القرآن ما يرتبط بهذا الموضوع.

(٤) انظر: (علوم القرآن) : ٨٢.

كما تشـــهد بذلك مراجعة الآيات القرآنية، رغم أنواع المآسي والتجاوزات التي مارسها أعداء النبي ﷺ ضدّه وضد أنصاره.

ثانياً: إنّ طابع الوعيد والإنذار لا يختص به القسم المكي، بل نجده كثيراً في القســـم المدني حســـب ما اقتضته الظروف، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـــنَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُـــولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيـــنَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَـــدِيدُ الْعِقَابِ * قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[2].

وقولـــه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِيـــنَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾[3].

وقولـــه تعـــالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَـــوْفَ نُصْلِيهِـــمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[4].

وهناك الكثير من الآيات المدنية المتضمّنة للوعيد والتهديد[5]. كما نلاحظ

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(٢) سورة آل عمران: ١٠ ـ ١٢.

(٣) سورة البقرة: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٤) سورة النساء: ٥٦.

(٥) انظر: تفصيل آيات القرآن الحكيم.

الكثير من الآيات المكية التي تفيض سماحة ولیناً مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2].

«الدرس ٤٧»

الشبهة الثانية

إنّ القسم المكي يمتاز بقصر السور والآيات، وعرض المضمون بشكل موجز، بخلاف القسم المدني حيث نلاحظ السور الطوال فيه، مثل سور البقرة، والنساء، وآل عمران، وغيرها.

ويعود هذا التفاوت إلى تأثره بالبيئة التي عاشها (محمد)، حيث كان المجتمع المكي أُمّياً لا يستوعب تفصيل المفاهيم، فجاءت الآيات والسور قصيرة موجزة، ثمّ لمّا عايش النبي ﷺ المجتمع المدني المتحضّر نسبياً تأثّر بهم فجاءت الآيات والسور طويلة بمضامين مفصّلة.

والجواب:

أولاً: انّا قد ذكرنا سابقاً أنّ قصر السور والآيات ليست خاصّةً بالقسم المكّي، بل نجد مثله في القسم المدني، كما انّ طوال السور والآيات لا يختصّ بالقسم المدني، بل هو كثير في القسم المكّي، فوجود كلا القسمين يؤكّد أنّ اختيار

(١) سورة فصّلت: ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) سورة الشورى: ٤٠.

نمط السورة أو الآية يتّبع متطلبات الموقف والظرف، وليس ناشئاً من محدودية في قدرات منزِّل القرآن الكريم.

وبهذا تفسَّر الكثرة النسبية للسور والآيات القصار في القسم المكّي والسور والآيات الطوال في القسم المدني، حيث انّ الدراسات اللغوية المتخصصة أكدت أنّ الإيجاز يعتبر مظهراً من مظاهر القدرة الفائقة على التعبير، وهو بالتالي من مظاهر الإعجاز القرآني[1].

وحيث نزل القرآن متحدّياً للعرب فكان قِصر الآيات والسور أقوى في الدلالة على الاعجاز البياني الذي يهزّ مشاعر المكيّين أكثر من غيره خصوصاً مع كثرة السور القصار وتنوّعها.

وربّما نضيف إلى ذلك ظروف المسلمين الخاصة آنذاك وتخفّيهم وتشتتهم بحيث يسهل عليهم الحفظ والتفاعل مع السور القصار، بينما اختلفت الظروف في المدينة حيث صاروا أمّةً، لهم كيانهم الخاص بهم.

وثانياً: لو افترضنا انّ لطبيعة المجتمعين المكي والمدني وثقافتيهما دوراً في هذا التفاوت النسبي في أسلوبي القسمين، فهذا لا يقلّل من قيمة القرآن ولا ينفي ارتباطه بالسماء وعدم خضوعه للطبيعة البشرية، لأنّه لا يعني سوى انسجام القرآن مع الواقع الموضوعي من حوله، فهو يتحدّث بلغة المحيط والمجتمع الذي ينزل بينهم.

كما كان اختيار اللغة العربية له باعتباره قد نزل بين العرب وعلى رسول عربي. كل ذلك كي ينفذ إلى أعماق نفوس أبناء هذا المجتمع والتأثير فيهم وإقامة الحجة عليهم، باعتبار أن أرضهم وبلادهم مهد القرآن، وقد نبّهنا سابقاً ـ قبل استعراض هذه الشبهات ـ على ضرورة التفريق بين خضوع القرآن للطبيعة البشرية وبين انسجامه مع الواقع والظروف والمجتمع المحيط به، والذي

---

(١) انظر: (علوم القرآن): ٥٥ ـ ٥٦.

يفترض أن ينطلق إلى الأمم الأُخرى من خلاله. وكما قلنا سابقاً يكون هذا الانسجام شاهداً إضافياً على انتسابه للسماء لا للبشر ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ﴾[1].

وقد ذكر علماء البلاغة انّ مميزات المتكلم البليغ مراعاته لمقتضى الحال، إذ لكل مقام مقال كما جاء في المثل المعروف، وهل هناك أولى من كلام الله الحكيم الخبير في مراعاة ذلك؟

ثالثاً: إنّ تفاعل الإنسان مع المجتمع والبيئة الجديدة لا يتم بسرعة بين ليلة وضحاها، خاصةً ما يرتبط بتطوّر قدراته الذاتية وتفاعله مع ثقافة المجتمع الجديد الذي يعيشه، ويكفينا لتأكيد هذه الحقيقة أن نلقي نظرةً على الجماعات المهاجرة إلى البلدان الأخرى والمعاناة التي يعانونها بسبب عدم قدرتهم على التفاعل مع مجتمعات هذه البلدان، حتى أنّ هذه المعاناة قد تمتد إلى أجيالهم اللاحقة.

بينما نلاحظ انّ نزول القرآن الكريم تلاحق بمجرد هجرة النبي ﷺ للمدينة المنوّرة ولم تمرّ فترة انقطاع طويلة ريثما يتفاعل (محمد) مع المجتمع الجديد، فهل يعقل مع هذا أن يكون هذا القرآن من (محمد) خاصةً إذا عرفنا أنّ أول سورة مدنية هي سورة البقرة ـ أكبر سورة في القرآن ـ وانّ السور الست الأولى النازلة في المدينة، هي البقرة، الأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، حيث تندرج فيها أكبر ثلاث سور في القرآن، وفيها القسم الكبير أو الأكبر من المفاهيم والتشريعات التفصيلية المتنوّعة فكيف استطاع (محمد) المكي المتأثر بالبيئة المكية الأُمية والساذجة ـ كما يزعمون ـ أن يغيّر خطابه بهذا المستوى من التباين خلال فترة وجيزة؟!

---

(١) سورة يونس: ٣٧.

الشبهة الثالثة:

انّ القسم المكي لم يتناول التشريع في مجالات العلاقات والشؤون المرتبطة بالمجتمع، ويرجع هذا إلى طبيعة بيئة مكة المتخلّفة، بينما نلاحظ اشتمال القسم المدني على ذلك بسبب تطور المجتمع المدني المتأثر بثقافة أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

والجواب عن هذه الشبهة يتضح من خلال ما تقدم، فإنّ عدم تناول القسم المكي للتشريع يعود إلى انعدام موضوعه آنذاك حيث كان المسلمون أقلية متناثرة مستضعفة، ولا توجد أرضية لتطبيق هذه التشريعات الإسلامية فكان بيانها ـ آنذاك ـ سابقاً لأوانه.

وأمّا ادعاء تأثّر المشرّع الإسلامي بثقافة أهل الكتاب فهو ادعاء غير صحيح تكذّبه الشواهد، حيث نجد:

أولاً: انّ ابتداء التشريع الإسلامي كان بمجرد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وقبل أن يمرّ زمن طويل يسمح بتفاعل الرسول ﷺ مع أهل الكتاب.

وثانياً: انّ التشريع الإسلامي يختلف اختلافاً جوهرياً مع التشريع المتداول لدى أهل الكتاب، وكانوا هم يدركون ذلك. ولذا لم يصدر منهم هذا الادعاء.

وهذه قضية هامّة حيث انّ ادعاء تأثّر النبي ﷺ بأهل الكتاب لم يصدر إلاّ من المتأخرين، ولو كان له حقيقة لادعاه أهل الكتاب المعاصرون له، والذين كانوا يحاورون النبي ﷺ والمسلمين ويجادلونهم حتى وصل الأمر بنصارى نجران إلى طلب المباهلة مع شخص النبي ﷺ.

«الدرس ٤٨»

الشبهة الرابعة:

انّ القسم المكي لم يتضمّن الأدلة والبراهين على أصول العقيدة وتعاليم الرسالة الإسلامية على خلاف القسم المدني، وهذا مؤشّر آخر على تأثر القسم المكي بالمجتمع المكي الساذج البسيط، وتأثّر القسم المدني بمجتمع المدينة الحضاري المتطوّر، وانّ القرآن الكريم اكتسب العمق في البرهنة والاستدلال من أهل الكتاب المتواجدين والمؤثرين في مجتمع المدينة.

ويتّضح الجواب عن هذه الشبهة من خلال ما تقدّم أيضاً، من رجوع ذلك إلى تفاوت متطلبات الموقف واختلاف طبيعة المجتمع الذي كان في المدينة عن المجتمع المكي من دون أن يعني ذلك تاثر القرآن وتطوّره تبعاً لتطور البيئة المحيطة به.

ونضيف على ذلك انّا عندما راجعنا المصحف الشريف لاحظنا كثيراً من الاستدلالات في القسم المكي ممّا يعني انهيار الشبهة من أساسها.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً

---

(١) سورة المؤمنون: ٩١.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٢.

لَّارْتَـابَ الْمُبْطِلُونَ ... أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقولـه تعالى: ﴿... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إن تدعوهم إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٣].

وهنـاك آيـات أخرى كثيرة جـداً في القسـم المكي تضمّنـت البرهنة والاستدلال.

---

(١) سورة العنكبوت: ٤٨ و ٥١.

(٢) سورة الجاثية: ٣ ـ ٥.

(٣) سورة فاطر: ١٣ ـ ١٤.

الخلاصة

ذُكرت للمكي والمدني ثلاث ضوابط..

أ) أن المكي ما نزل بمكة أو ضواحيها، والمدني ما نزل بالمدينة أو ضواحيها.

ب) أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

ج) أن المكي ما نزل قبل الهجرة للمدينة، والمدني ما نزل بعدها، وهو الصحيح.

د) ذكرت للمكي والمدني خصائص، وهي غالبية لا دائمية، ومنشؤ ذلك طبيعة الظرف الذي نزلت فيه الآيات من دون أن ينافي ذلك كون القرآن كتاباً إلهياً.

الأسئلة

١ ـ ماهو معنى المكي والمدني؟

٢ ـ ما هي أهم خصائص القسم المكي؟

٣ ـ ما هي أهم الخصائص للقسم المدني؟

٤ ـ مـــا هي أهم مميزات الخضوع للحالة البشرية عن الانســـجام مع الواقع الموضوعي؟

٥ ـ كيف تجيب عن الشـــبهة القائلة ان القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بطابع الشدة، بل السباب؟

٦ ـ كيف تجيب عن الشـــبهة القائلة ان القسم المكي يمتاز عن القسم المدني بقصر سوره وآياته مما يدّل على تأثر محمّدﷺ بالمحيط الذي هو فيه؟

القسم السادس

«القرآن والعلم»

القسم السادس: القرآن والعلم

إن أهمية هذا الموضوع أوجبت إدراجه ـ لدى بعض الباحثين ـ في مباحث علوم القرآن.

١ ـ موقف القرآن من العلم.

دعا القرآن في كثير من الآيات إلى التـــزود بالعلم وأثنى على العلماء وذمّ الجهل والجاهلين، وهذا لاشـــك فيه لمن يلقي نظرةً ـ ولو سطحية ـ على الآيات القرآنية.

لكن يبقى هناك تساؤل عن طبيعة العلم أو العلوم التي دعا إليها القرآن ومدح أصحابها وأثنى عليهم، فهل حث القرآن على كل العلوم، المادية وغيرها أو كان نظر القرآن إلى خصوص بعض العلوم دون البعض الآخر؟

فبينما نجد بعـــض المفسرين والباحثين يحاولون اثبـــات دعوة القرآن إلى تعلّـــم كل العلوم النافعة، نرى آخرين يصرّون على أن نظر القرآن إلى خصوص العلوم الإنسانية وما يرتبط بسعادة الإنسان في الدار الآخرة، مثل العقائد والفقه والتربية ونحوها...

ولأجـــل أن يتضح الموقف القرآني من العلوم نقول: انّ ملاحظة الآيات التي تتحدث عن العلم والجهل وما يحكي عنهما من المفردات تشهد انّها تصب في اتّجاه استقامة الإنسان وهدايته ووعيه لطبيعة الحياة الدنيا، فهي لا تعدو هذه الأمور و نحوها مما يرتبـــط ارتباطاً مباشراً بالعلوم والمعارف الدينية والتربوية، دون العلوم المادية ونحوها مما يحتاجها الإنســـان في حياتـــه اليومية. فمن هذه

الآيات قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١].

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

﴿... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً * وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[٣].

وغيرها كثير من الآيات.. حيث نلاحظ ان هذه الآيات القرآنية الكريمة بعيدة عن ارادة العلوم المادية وما يشبهها مما هو ضمن اهتمام الإنسان ومرتبط بجهده واحتياجاته، من دون حاجة ماسة لحثّه عليها، وأمّا تفسير العلم في هذه الآيات بما يشمل كل العلوم النافعة فهو تفسير متكلّف فيه.

«الدرس ٤٩»

نعم يكمن اهتمام القرآن بمختلف العلوم النافعة من خلال ما يلي:

أ) اهتمام القرآن بعزة الإسلام والمسلمين، فتدخل ضمن ذلك كل العلوم التي تساهم في تقدم المجتمع واستقراره ورخائه الاقتصادي وكل ما ينأى بالمسلمين عن الذل والدونية في مقابل الأُمم الاخرى.

ب) دعوة القرآن لإحياء الأرض، أو استثمارها ـ باعتبارها قد جُعلت وابيحت للإنسان ـ والذي قد يفهم منه الكناية عن الحث على استكشاف أسرار

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة النحل: ٢٧.

(٣) سورة طه: ١١٤ ـ ١١٥.

وخزائن هذا الكون الذي يتوقف على نموّ العلوم المادية وتطورها. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا...﴾[١].

ج) دعوة القرآن المسلمين للدفاع عن انفسهم وعن دينهم والاستعداد التام لمواجهة خطط الأعداء وكيدهم.. فإنه يستبطن الدعوة للتزود بكل العلوم المساهمة في الوصول إلى هذه الحالة بكل جوانبها العسكرية والاقتصادية وغيرهما.. ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[٢].

٢ ـ العلوم التي كان القرآن سبباً في نشأتها أو تطورها

هذه العلوم على صنفين.

الصنف الأول: هي العلوم التي تضمنها القرآن الكريم سواء تلك التي كان هو مصدرها الأساس أم التي ساهم القرآن الكريم في تطويرها، مثل مباحث التوحيد والنبوة والمعاد والفقه والتربية الإسلامية والأخلاق ونحوها.

الصنف الثاني: العلوم التي ساهم القرآن في تطوّرها واستمرارها من دون أن يتضمنها، مثل علوم النحو والبلاغة واللغة وفقه اللغة، حيث عكف المسلمون على دراسة اللغة العربية وأسرارها وأحكامها ليحافظوا على القرآن الكريم ويفهموا معانيه، فكان للقرآن الفضل في نشوء هذه العلوم وتطوّرها واهتمام المسلمين بها.

بالإضافة إلى دوره في حفظ اللغة العربية من الذوبان والتهجين.

٣ ـ العلوم الخاصة بالقرآن والباحثة عنه

وهي مجموعة علوم القرآن التي تُدرس تحت عنوان «علوم القرآن» مثل مباحث علم التفسير، ونزول الآيات، والوحي، وإعجاز القرآن، وغيرها من العلوم الباحثة عن القرآن الكريم نفسه، وخصائصه.

---

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) سورة الأنفال: ٦٠.

٤ ـ العلوم الضرورية لفهم القرآن الكريم

يحتاج الدارس للقرآن الكريم ـ بالإضافة لفهم اللغة العربية والإحاطة بها ـ إلى مجموعة من العلوم التي تساهم في فهم الكتاب العزيز، وهي ..

أ) علوم العربية المختلفة، مثل علم اللغة وفقه اللغة، وعلوم النحو والصرف والبلاغة.

ب) العلوم العقلية المختلفة مثل المنطق والعقائد وبعض البحوث الفلسفية وغيرها.

ج) مجموعة علوم القرآن مثل نزول الآيات وتاريخه ليمكنه تفسير آية بأخرى، وتمييز المدني من المكي مثلاً وأسباب النزول وشأن النزول[1] وغير ذلك.

د) التزود بالعلوم التي تتحدث عنها بعض الآيات مباشرة مثل الفقه والعقائد وقصص الأنبياء وبعض أحداث التاريخ الإسلامي وغيرها.

هـ) علما الدراية والرجال، لتمييز النصوص التفسيرية الصحيحة عن غيرها، وتقديم المتعارضات ونحو ذلك.

و) التخصص العلمي في المجالات العلمية التي يروم المفسّر أو تطبيق الآيات القرآنية عليها.

هذا إذا كان هدف المفسّر التفسير المحيط والجامع لكل القرآن، أمّا اذا اقتصر على جوانب معيّنة منه أو آيات أو سور خاصّة منه فقد لا يحتاج إلى بعض هذه العلوم المتقدمة. ويختلف ذلك بحسب طبيعة الجانب الذي يتناوله المفسّر

---

(١) الفرق بين سبب النزول وشأن النزول: أن سبب النزول هو الحدث أو الظرف الذي يكون سبباً ومنشأ لنزول آية أو مجموعة من الآيات. وشأن النزول: يعمّ سبب النزول والمورد الذي تتحدث عنه الآية أو الآيات، كما في قصص الأنبياء التي تتناول مجريات أحداث تأريخية أسبق زماناً من نزول الآية أو الآيات القرآنية المذكورة.

ومتطلباته.

ونضيف ـ إلى جانب التزودّ بالعلوم المتقدمة ـ شرطين رئيسيين يفترض توفرهما في المفسّر للقرآن الكريم وهما:

الأول: أن يعي المفسّر تعاليم الإسلام من مصادرها الأصلية ولا يبتعد عن الذهنية الاسلامية الأصيلة، اذ لا يمكن التفكيك بين فهم الإسلام وفهم كتابه. ومن هنا نعرف عاملاً رئيسياً في أخطاء المستشرقين وغيرهم البعيدين عن فهم روح الإسلام الأصيل عند دراستهم وتفسيرهم للقرآن الكريم.

الثاني: أن يكون المفسّر مسترشداً بالقرآن الكريم وتابعاً له من دون أن يجعل من نفسه متبوعاً وموجّها للنص القرآني، فيجتنب تفسيره على ضوء قناعته المسبقة وتوجهاته الذاتية البعيدة عن القرآن وباقيَ المصادر الإسلامية التي يفسّر بعضها البعض الآخر، ولذا نلاحظ أخطاء فظيعة وقع فيها أصحاب العقائد والنظريات المنحرفة والباطلة عندما صاروا يحمّلون القرآن أفكارهم الخاطئة محاولةً منهم في تفسير آياته بما ينسجم معها.

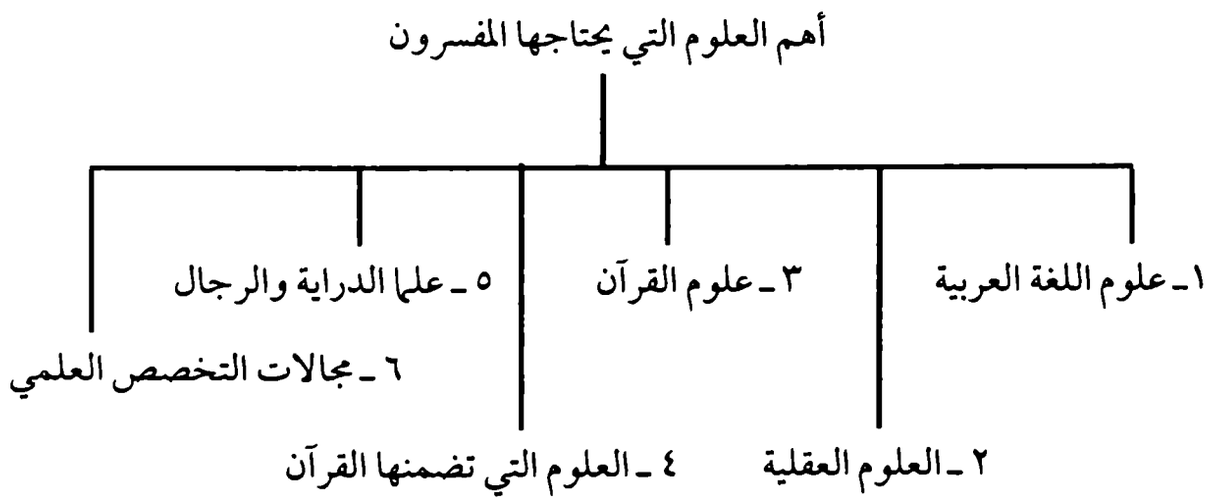

الخلاصة

١ ـ القرآن الكريم حث على اكتساب العلوم المختلفة من خلال عدّة آيات، لكن الظاهر أ، لفظة العلم الواردة في القرآن يراد منها العلوم المرتبطة بتهذيب النفوس ونحوها من العلوم «الإنسانية».

٢ ـ هناك مجموعة من العلوم الضرورة لفهم القرآن الكريم، كما ان القرآن نفسه ساهم في نشأة وتطور بعض العلوم.

القسم السابع

«التفسير والمفسرون»

«الدرس ٥٠»

القسم السابع: التفسير والمفسّرون

وفيه بحثان..

الفصل الأول: التفسير

١ ـ التفسير في اللغة والاصطلاح:

أ ـ التفسير في اللغة: الإيضاح والإبانة.

قال الفيروزآبادي: الفسر الابانة وكشف المغطى كالتفسير[١].

وقال ابن منظور: «الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل»[٢].

ب ـ التفسير في الاصطلاح:

وأمّا علم تفسير القرآن فقد عرّفه أبو حيان بأنه: «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها واحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك»[٣].

وقد اهتمّ الباحثون في علوم القرآن، وكذلك المفسّرون في التفريق بين التفسير والتأويل. ويفترض الرجوع إلى اللغة أولاً لمعرفة المعنى اللغوي للتأويل والمعنى الاصطلاحي لهم فيه، ثم بحث الفرق بينهما...

---

(١) القاموس المحيط: ٢ / ١١٠.

(٢) لسان العرب: ٦: ٣٦١.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ٣٢٤، تأليف مناع القطان.

فالتأويل في اللغــة مأخوذ من الأوْل وهو الرجــوع، قال في القاموس: آل إليــه أوْلاً ومآلاً رجع... ثم قال: وأوّل الــكلام تأويلاً وتأوّله تدبّره وقدّره وفسّره[١].

فجعلُ التأويلِ بمعنى التفسير كأنه باعتبار أن المؤوِّل ـ اي المفسِّر ـ يُرجع اللفظ إلى معناه.

امّــا في الاصطلاح فقد قيــل ان ما هو المقصود عند الســلف غير ما هو المقصــود عند المتأخرين، قال محمد حســين الذهبي: التأويل عند الســلف له معنيان:

احدهما: تفســير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أم خالفه فيكون التأويل والتفسير ـ على هذا ـ مترادفين، وهذا ما عناه مجاهد من قوله: ان العلماء يعلمون تأويلــه، يعني القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفســيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، وبقوله: اختلف أهل التأويل في هذه الآية» ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هــو نفس المراد بالكلام فإن كان الــكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلــوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الــشيء المخبر به.. فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا هو نفس طلوعها.

المعنــى الثالث : التأويل عند المتأخرين مــن المتفقهة والمتكلمة والمحدّثة والمتصوفــة... هو صرف اللفــظ عن المعنى الراجــح ـ أي الظاهر ـ إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٢].

والصحيح أن التأويل لا يشــترط فيه وجود الدليل أو القرينة على المعنى المرجوح دائماً، ولذلك يطلق التأويل على التفسير بالباطن مع أنّه خال عن الدليل

---

(١) القاموس: ٣ / ٣٣١.

(٢) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٧ ـ ١٨.

غالباً، اذن التأويل بهـذا المعنى يطلق على حمل اللفظ على غير المعنى الظاهر فيه ولو من دون دلالة على ذلك، نعـم ربما تكون هناك أدلة أو قرائن خفية يعرفها العارف بالتأويل، يكون هذا هو المعنى الثالث للتأويل.

المعنى الرابع: حكمـة ومغزى بعض الأفعال مما يخفى على الناس عامة، كما في قضية الخضر عليه السلام مع النبي موسى عليه السلام ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[1].

وأمّا التفسير فقد شاع استعماله في كلمات العلماء والمفسرين في معنيين..

١ ـ مطلق حمل اللفظ على المعنى، سواء كان ظاهراً فيه أم لم يكن، وسواء كانت هناك قرينة عليه أم لا. وبهذا المعنى يسمون حمل اللفظ على المعنى الباطن تفسيراً. فيقولون عنه: إنه تفسير بالباطن.

٢ ـ خصـوص حمل اللفظ على المعنى الظاهـر منه، ـ الذي قد يخفى على البعض ـ وإن كان سبب هذا الظهور التأمل والتمعّن في نفس الكلام أو القرينة المحيطة بالكلام. فيكون التفسـير ـ بهذا المعنـى ـ في مقابل (التأويل) الذي هو حمل اللفظ على غير المعنى الظاهر، وهو أخصّ من التفسير بالمعنى الأول.

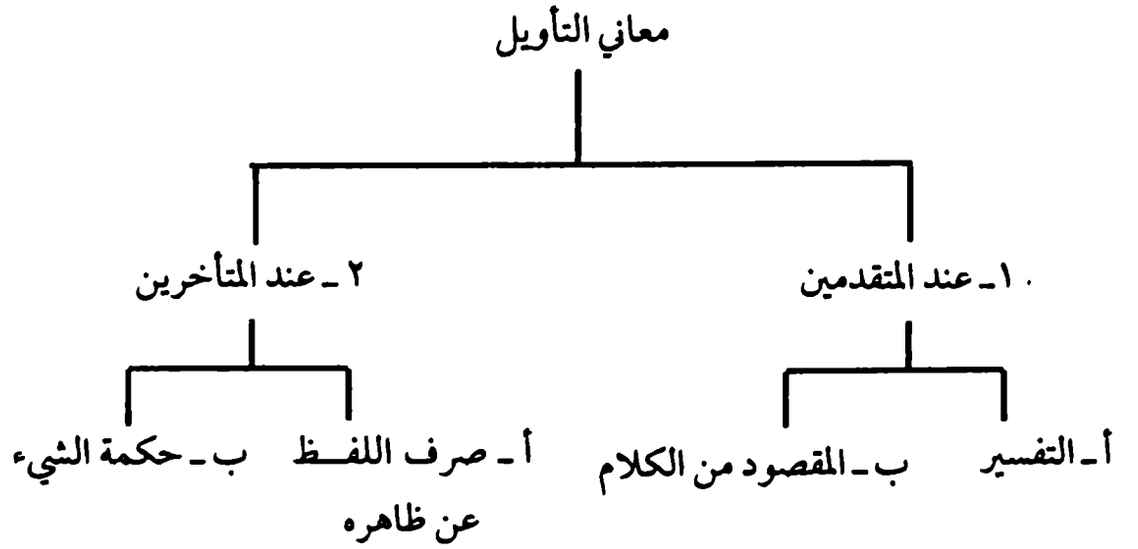

(١) سورة الكهف: ٨٢.

«الدرس ٥١»

٢ ـ الاتجاهات العامة في التفسير

اختلفت اتجاهات المفسّرين في تفاسيرهم من عدة اعتبارات، أهمها اثنان..

١ ـ طبيعة المصدر الذي يعتمدونه في التفسير..

٢ ـ المنهج الذي ينتهجونه في التفسير.

البحث الأول

أقسام التفسير بحسب المصدر المعتمد فيه

تختلف التفاسير بحسب طبيعة المصدر العام الذي تعتمده في تفسير آيات القرآن الكريم، ويمكن ان نلاحظ فيها خمسة أقسام:

القسم الأول: تفسير القرآن بالقرآن .

القسم الثاني: التفسير بالمأثور.

القسم الثالث: التفسير الإشاري.

القسم الرابع: التفسير بالرأي.

القسم الخامس: التفسير بالتدبر الجامع.

القسم الأول: تفسير القرآن بالقرآن

وقد نظّر له بعض المفسّرين، أبرزهم العلاّمة الطباطبائي، فقد قال: «ثانيهما: أن نفسّر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبّر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخّص المصاديق ونعرفها بالخواص التي تتضمنها الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ...﴾ الآية. وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ الآية.

وكيف يكون القرآن هدىً وبيّنةً وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه، وهو أشد الاحتياج![1].

وهذا الذي ذكره رحمه الله وإن كان جديراً بالملاحظة والاهتمام لكنّه لا يعني الاكتفاء بالقرآن في التفسير، فان الجمع بين الآيات الكريمة وإن كان يفتح افقاً واسعاً للمفسّر والباحث عادةً، لكنّه لا يكفي لتفسير كل الآيات القرآنية، خاصّة أن كثيراً من المواضع القرآنية لم يتكرر ذكرها في آيات اخرى حتى يمكن فهمها من خلال الجمع بين الآيات.

ومن راجع تفسير الميزان للعلاّمة الطباطبائي قدس سره يجد خروجه أو ـ على الأقل ـ عدم اقتصاره على هذا المنهج.

والذي نراه أنه ينبغي للمفسّر أن يستوعب ويحيط بكل ما يساهم في فهم الآيات القرآنية وتفسيرها، من الآيات القرآنية والنصوص التفسيريّة المعتبرة

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١ / ١١ .

ويعتمد العمق والتمعّن في دراسته للآيات الكريمة. كما سيأتي عند التعرض للقسم الخامس من أقسام التفسير.

القسم الثاني: التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور يراد منه تفسير القرآن اعتماداً على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله[1] أو الأئمة عليهم السلام ـ عند شيعة أهل البيت عليهم السلام ـ أو الصحابة ـ لدى الجمهور ـ ويعممه بعض مفسّريهم إلى المروي عن التابعين.

أ) التفسير بالمأثور لدى العامة والملاحظات فيه:

وتلاحظ فيه نقاط الضعف التالية:

١ ـ اعتمادهم على قول الصحابة والتابعين:

مع وضوح أن قول الصحابة فضلاً عن التابعين يفقد الحجية والاعتبار، فهم كسائر المسلمين يحتمل قولهم وفهمهم للخطأ، ولذلك اختلفت مواقفهم وآراؤهم، بما في ذلك تفسير القرآن فكيف يمكننا الاعتماد على آرائهم وتفاسيرهم؟

وقد تنبّه لذلك الدكتور صبحي الصالح حيث قال: بيد أن اطلاق بعضهم أن تفسير الصحابة له حكم المرفوع اطلاق غير جيّد، لأن الصحابة اجتهدوا في تفسير القرآن، واختلفوا في بعض المسائل والفروع، كما رأينا بعضهم يروي الإسرائيليات عن أهل الكتاب[2].

---

(١) جمع السيوطي كل الأحاديث المسندة ـ من طرق أهل السنة ـ إلى النبي صلى الله عليه وآله في التفسير، انظر: الاتقان ٤/ ٢٤٥ ـ ٢٩٨ وسوف تلاحظ قلتها.

(٢) علوم الحديث ومصطلحه: ٢٠٩، قد نسب ذلك إلى الدكتور أحمد محمد شاكر في كتابه الباعث الحثيث: ٥٠.

ويقوى الاشكال بالنسبة إلى التابعين فإنهم كثيراً مّا كانوا يعتمدون على اجتهادهم وفهمهم من دون الرجوع إلى الرواية عن النبي ﷺ. قال محمد حسين الذهبي: وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة[1].

وحكي عن أبي حنيفة قوله: ما جاء عن الرسول ﷺ فعلى العين والرأس، وما جاء عن الصحابي تخيّرنا منه، وأما ما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال»[2] وعُرف عنه انه يعتبر الحديث المروي عن التابعين ـ الذي يسمى الحديث المقطوع ـ ضعيفاً لا يحتجّ به[3].

«الدرس ٥٢»

٢ ـ انتشار الوضع :

يلاحظ أن التفسير بالمأثور تعرّض لمحنة الوضع والكذب من قبل الرواة على نطاق واسع، سواء في ذلك ما يروى كذباً عن رسول الله ﷺ أم عن غيره من الصحابة والتابعين، ولذا نرى كثرة الأساطير والخرافات في التفسير المذكور. وقد اعترف بهذا محمد حسين الذهبي وأحمد أمين حيث قال: «إن القصاص والوضّاع زادوا في هذا النوع من التفسير كثيراً، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس انه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾[4] قال القنطار ألف اوقية. وما أخرجه أحمد وابن ماجة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : القنطار اثنا

(١) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٠٠.
(٢) علوم الحديث ومصطلحه: ٢١٠.
(٣) انظر: المصدر نفسه.
(٤) سورة آل عمران: ١٤.

عشر ألف اوقية»[١].

ولذلك نجد أحمد بن حنبل ـ رغم ما عرف عنه من كثرة الروايات ـ يقول: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي»، قال أحمد أمين «وظاهر هذه الجملة أن الأحاديث التي وردت في التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر ـ كما قال بعضهم ـ أنه يريد الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ في التفسير»[٢].

رغم أن البعض حاول أن يحمل كلامه على ان الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة[٣].

ولم يختص الكذب والوضع على الأحاديث المنسوبة للنبي ﷺ بل نجده على نطاق واسع بالنسبة لأحاديث التفسير المنسوبة للصحابة، فهذا ابن عباس رغم العدد الهائل المروي عنه في التفسير فإنّ ابن الحكم يقول سمعت الشافعي يقول: لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلاّ شبيه بمائة حديث[٤].

ومما وضع على لسان ابن عباس روايات فضائل سور القرآن. فقد حكي عن المختصر للاصول: أنه قيل لأبي عصمة نوح بن أبي مريم من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة؟ فقال: رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن اسحاق فوضعتُ هذه الأحاديث حُسبةً».

ونظير ذلك ما روي عن أُبيّ بن كعب في فضائل سور القرآن «قال الصاغاني: وضعه رجل من عبادان»[٥].

---

(١) فجر الإسلام: ٤٢٥.

(٢) ضحى الإسلام: ٢ / ١٤١.

(٣) انظر: الاتقان: ٢ / ١٧٨، ومقدمة في أصول التفسير: ٩٥.

(٤) الاتقان: ٢ / ١٨٩.

(٥) انظر: تذكرة الموضوعات: ٨٢.

٣ ـ تغلغل الإسرائيليات

وهي الآراء التي تسربت من اليهود والنصارى فاعتمدها بعض المسلمين في تفسير القرآن الكريم، وانّما سمّيت بالاسرائيليات تغليباً لجانب التأثير اليهودي على جانب التأثير النصراني «فان الجانب اليهودي هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه، وذلك لكثرة أهله وظهور أمرهم وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه على كثير من بلاد العالم»[١].

مبدأ ظهور الإسرائيليات:

الملاحظ أن دخول الاسرائيليات في التفسير بدأ منذ عهد الصحابة كما اعترف به عدد من المفسرين والباحثين.

قال محمد حسين الذهبي: وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابي اذا مرّ على قصة من قصص القرآن يجد من

نفسه ميلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا إلى الإسلام وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية فألقوا إليهم من الأخبار والقصص الدينية[٢].

وقد أخذ هذا من ابن خلدون حيث أشار إليه في مقدمته[٣].

وقد ادعى محمد حسين الذهبي أنّهم لم يقبلوا كل شيء منهم، بل حتى ما أخذوه منهم لم يعتمدوا عليه، اعتماداً على ما رووه عن النبي ﷺ: لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم، وقولوا: (آمنا بالله وما انزل إلينا وما أُنزل إليكم) الآية[٤].

---

(١) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٤٥.

(٢) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٦٩.

(٣) انظر: مناهل العرفان: ٢ / ٢٩.

(٤) كذا بلفظ البخاري في الجامع الصحيح: ٤ / ٣٧٤. لكن لا توجد آية قرآنية بهذا اللفظ.

لكنه لم يدعم رأيه هذا بشـــواهد، بل الشواهد على خلافه حيث شحنت كتب التفاســـير بكثير من الروايات التفسيرية المنسوبة للصحابة المليئة بالأفكار الإسرائيليـــة، ولو كان الصحابة قد تحرّجوا من أخـــذ هذه الأفكار الاسرائيلية لظهر أثر هذا التوقف على مَن بعدهم فلم يعتمدوا على قبول الاسرائيليات على هذا النطاق الواسع، على أنّ مكانة كعب الأحبار وعبدالله بن سلام في روايات التفسير ظاهرة لكل من راجعها.

وقـــد بلغ تغلغل الأفكار الاسرائيلية في روايات الحديث حتى دُعم ذلك بأحاديث نسبوها للرسول ﷺ، مثل ما رواه البخاري عنه ﷺ «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني اسرائيل ولا حرج، من كذب عليّ فيلتبوّأ مقعده من النار»[1].

ويبدو من بعض النصوص المروية في مصادر الجمهور أن قضية الأخذ من أهل الكتاب بدرت من بعض الصحابة في زمن الرسول ﷺ مما أدى إلى غضب الرسول، فقد أخرج أحمد وابن أبي شـــيبة والبزار من حديث جابر بن عبدالله: «ان عمـــر بن الخطاب اتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب، فقال: «أمتهوّكون ـ اي أمتحيّرون ـ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفـــسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تســـألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حياً ما وسعه إلاّ أن يتبعني»[2].

ونلاحظ مدى تذمّر النبي وغضبه من مراجعة أهل الكتاب وســـؤالهم، كـــما انّ النص يوحي أن عمر و ربما غيره مـــن الصحابة أيضاً كانوا متحيّرين في الموقف بين ما يســـمعونه من النبي ﷺ وما يسمعونه من أهل الكتاب المناقض لذلك.

---

(١) الجامع الصحيح : ٤ / ١٤٥، طبع دار الفكر ، بيروت .

(٢) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٧٢ ـ ١٧٣.

«الدرس ٥٣»

ومن ذلك ما روي أنه أُتي للنبي ﷺ بكتاب في كنف فقال: «كفى بقوم حمقاً أو ضلالة أن يرغبوا عمّا جاءهم به نبيّهم إلى نبي غير نبيّهم أو كتاب غير كتابهم». فأنزل الله عزوجل ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ...﴾[1][2].

وقد رووا أن عبدالله بن عمرو بن العاص أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يحدّث منهما[3].

وهذا يكشف عن حالة سائدة ومقبولة بين الصحابة بحيث لم يتحرج عبدالله بن عمرو بن العاص من رواية هذا العدد الكبير من هذه الكتب اليهودية.

وعندما نراجع التابعين في تفاسيرهم نجد أن الطامة اكبر وأن الخرق يتسع كثيراً.

قال محمد حسين الذهبي: امّا التابعون فقد توسعوا في الأخذ عن أهل الكتاب فكثرت على عهدهم الروايات الاسرائيلية في التفسير... فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن هؤلاء مقاتل بن سليمان المتوفي سنة (١٥٠هـ) الذي نسبه ابو حاتم إلى انه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما في كتبهم، بل ونجد بعض المفسرين في هذا العصر ـ عصر التابعين ـ يصل بهم الأمر إلى أن يصلوا بين القرآن وما يتعلق بالاسلام في مستقبله، فيشرحوا القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل والتنبؤ بما يطويه

(١) سورة العنكبوت: ٥١.
(٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢ / ٥٠.
(٣) انظر: التفسير والمفسرون: ١ / ١٧٥.

الغيب، فهذا مقاتل بن سليمان...[١].

وقد قدّمنا رأي ابن خلدون حول انتشار الاسرائيليات، وأنه قد عدّ كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وامثالهم من التابعين أوائل من سرّب الاسرائيليات إلى تفسير القرآن.

ويبدو أن قوله «أمثالهم» يشمل مثل عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريح التابعي.

وقد طعن بعض الباحثين مثل أحمد امين[٢] ورشيد رضا في كعب الاحبار ووهب بن منبّه، قال رشيد رضا: ـ بعد أن اشار إلى طعن ابن تيمية فيهما ـ فكيف لو تبيّن لـه ـ ابن تيمية ـ ما تبيّن لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حوّمت حوله[٣].

٤ ـ حذف الإسناد أو ضعفه

ويعتبر هذا سبباً رئيسياً لضعف التفسير بالمأثور، حيث اختلطت النصوص الصحيحة مع غيرها من الموضوعات.

وقد حفلت كتب التفسير بالمأثور بروايات أشخاص مطعون فيهم، ومن شواهد ذلك انّ الضحاك الذي نقلت عنه اقوال ذكر انه رواها عن ابن عباس قد قال عنه نقّاد الرجال: انه لم يلق ابن عباس، وبذا تكون روايته غير مسلّحة، وقالوا: ان في جميع ما رواه نظراً.

وانّ السدّي الكبير الذي روي لـه كثير قالوا فيه: انه ضعيف وشتام (ورمي بالتشيع) وان كان بعضهم يقول عنه: انه مستقيم الحديث صادق.

---

(١) التفسير والمفسّرون: ١ / ١٧٦.

(٢) انظر: فجر الإسلام: ١٩٨.

(٣) تفسير المنار: ١ / ٩.

وان محمد بن السائب الكلبي ـ وإن رضيه بعضهم ـ فقد قال بعض آخر: إنه ليس بثقة، ولا يكتب حديثه، كما اتهمه بعضهم بالوضع.

قال محمد بن طاهر الهندي ـ بعد أن ذكر أن أشهر كتب التفسير كتابان: أحدهما للكلبي والآخر لمقاتل بن سليمان ـ: «وقد قال أحمد في تفسير الكلبي: من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه»[١].

أما مقاتل بن سليمان ـ الذي قالوا عنه: إن الناس عيال عليه في التفسير ـ فقد ذكروا أنه يروي عن مجاهد ولم يسمع منه شيئاً، ويروي عن الضحاك ولم يسمع منه شيئاً، لأن الضحاك قد مات قبل أن يولد مقاتل بأربع سنوات[٢].

ويحاول بعض الباحثين ادعاء أنّ انتشار حذف الأسانيد حدث في التفاسير المؤلفة بعد عصر التابعين بفترة طويلة حتى قال محمد حسين الذهبي «... لم يعرف عن الصحابة انهم كانوا يُسألون عن الاسناد، لما عُرِفوا به جميعاً من العدالة والأمانة...»

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب ، فكانوا لا يقبلون حديثاً إلاّ إذا جاء بسنده وثبت لهم عدالة رواته،... ثم جاء بعد عصر التابعين مَن جمَع التفسير ودوّن ما تجمّع لديه من ذلك، فالّفت تفاسير تجمع اقوال النبي ﷺ في التفسير وأقوال الصحابة والتابعين مع ذكر الأسانيد كتفسير سفيان بن عيينه ووكيع بن الجراح وغيرهما ممن تقدم ذكرهم، ثم جاء بعد هؤلاء اقوام الّفوا في التفسير فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال غير معزوّة لقائليها...[٣].

---

(١) تذكرة الموضوعات: ٨٢.

(٢) انظر: التعريف بالقرآن والحديث، تأليف محمد الزفزاف: ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) التفسير والمفسّرون: ١ / ٢٠٢.

«الدرس ٥٤»

ب) التفسير بالمأثور لدى الشيعة والملاحظات فيه:

وتلاحظ فيه النقاط التالية:

١ـ قلّة التفاسير الجامعة المستوعبة لكل الكتاب العزيز. فالملاحظ أن تفسير فرات الكوفي وتفسير علي ابن ابراهيم وتفسير العياشي غير مستوعبة للآيات القرآنية.

٢ـ فقدان النسخ الأصلية لبعض هذه التفاسير، مثل تفسير العياشي، حيث عمد بعض النساخ إلى حذف أسانيد الروايات، وقد انتشرت هذه النسخة وفقدت النسخة الأصلية المسندة، وبذلك فقد الكتاب كثيراً من قيمته العلمية. كما ان الجزء الثاني من هذا التفسير مفقود.

وكذلك التفسير الموجود المنسوب إلى علي بن ابراهيم القمي فإن كثيراً من الباحثين يشكوّن في مطابقته للنسخة الأصلية للتفسير.

٣ـ ضعف السند في الكثير من النصوص التفسيرية.

٤ـ عدم وصول بعض التفاسير بطريق معتبر، فمثلاً نجد أنّ الرواية المحفوظة لتفسير علي بن ابراهيم القمي تنحصر بالعباس بن محمد الذي لم يُترجم في الكتب الرجالية.

من أشهر التفاسير بالمأثور

وعلى كل حال فإن التفسير بالمأثور بمعنى الجمود على الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام ـ عند الشيعة ـ أو الصحابة والتابعين ـ عند الجمهور ـ يحدّد دور القرآن الكريم ويحصره في زوايا ضيّقة، فيفقد حيويّته وفاعليّته في حياة الأجيال المتعاقبة، خصوصاً عند الجمهور حيث لا تتجاوز الأحاديث النبوية في التفسير مائتين وخمسين حديثاً ـ مع ما في سند أكثرها من ضعف ومضمون بعضها من اضطراب وتهافت ـ .

ورغم وجود أحاديث مروية عن الأئمة عليهم السلام أكثر من هذا الرقم بكثير لدى الشيعة الإمامية بحكم طول الفترة الزمنية التي عاشها الأئمة عليهم السلام إلاّ ان الروايات المذكورة لا تفي بالكشف عن الدور الحقيقي للقرآن الكريم، وان التقيّد بموارد هذه النصوص يغيّب القرآن الكريم عن الواقع المعاصر ويحدّ من دوره وحيويته.

على أن كثيراً من الآيات لم ترد في تفسيرها نصوص من طُرق الجمهور ولا من طُرق شيعة أهل البيت عليهم السلام .

١ ـ تفسير فرات بن ابراهيم بن فرات الكوفي(ت: حوالي : ٣٠٧هـ).

٢ ـ تفسير العياشي. لمحمد بن مسعود بن محمد بن عياش التميمي (عاش في اواخر القرن الثالث).

٣ـ تفسير علي بن ابراهيم القمي (كان حياً عام : ٣٠٧هـ).

٤ ـ جامع البيان في تفسير القرآن. لمحمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ).

٥ ـ بحر العلوم. أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت: ٣٧٣ ـ ٣٧٥هـ).

٦ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ابو اسحاق أحمد بن ابراهيم

الثعلبي (ت: ٤٢٧هـ).

٧ ـ معالم التنزيل. أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ).

٨ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. أبو محمد بن عبدالحق بن غالب بن عطية (٤٨١ ـ ٥٤٦هـ).

٩ ـ تفسير القرآن العظيم. اسماعيل بن عمرو بن كثير (ت: ٧٧٤هـ).

١٠ ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن. أبو زيد عبدالرحمن بن محمد الثعالبي (ت: ٨٧٦هـ).

١١ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور. جلال الدين بن أبي بكر بن محمد السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ).

القسم الثالث: التفسير الإشاري

وقد عرّفه الزرقاني بأنه تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوّف، ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضاً[١].

وقد تعرّض الذهبي إلى نمط آخر من التفسير سماه التفسير الصوفي النظري، لكن قال: «ولم نسمع بأن أحداً ألف في التفسير الصوفي النظري كتاباً خاصاً يتبع القرآن آية آية، كما أُلّف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشاري، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربي وكتاب الفتوحات المكية له وكتاب الفصوص له ايضاً، كما يوجد بعض من ذلك في كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب»[٢].

ونحن سوف نتحدّث بإيجاز عن هذا التفسير، وعن التفسير بالباطن الذي يشترك معه في الخط العام، فنقول: قد دأب على هذا التفسير فريقان هما:

---

(١) مناهل العرفان: ٢ / ٨٦، علماً ان هذا الظهور انّما هو بحسب زعمهم.

(٢) التفسير والمفسّرون: ٣ / ١٧.

أ) المتصوفة وأهـل (العرفان) حيث ذكروا في تفاسـيرهم معاني غريبة للقرآن الكريم، حيث اعتبروا الآيات القرآنية رموزاً مشيرة إلى هذه المعاني الخفية.

ب) بعض المفسّرين الآخرين الذين يعتمدون نصوصاً على اسـاس أنها تبيّن بواطن القرآن.

وبـما ان هذه المعاني المذكورة في هذا النوع من التفسـير بعيدة عن ظهور الألفاظ القرآنية ودلالاتها العرفية فلذلك لا يمكن الاعتماد عليها إلاّ اذا توفرت مجموعة من الشروط، منها..

١ ـ أن تكون منسوبة إلى الراسخين في العلم كالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.

٢ ـ أن تكون أسانيدها صحيحة ومعتمدة.

٣ ـ أن تكون دلالتها واضحة لا لبس فيها.

فباجتماع هذه الشروط يمكن الاعتماد على هذه التفاسير، ومن دون ذلك لا يمكن الوثوق بها.

ومـن الضروري أن نشـير هنا إلى أنّ ورود هـذه النصوص ـ حتى على فرض الوثوق بها ـ في التفسير الاشاري قد يكون من باب مجرد التطبيق من دون حصر المعـاني القرآنية بها فلا يمنع من الأخذ بظهـورات الآيات القرآنية وفق قواعد الفهم العام، لأنّها هي التي اشار إليها القرآن الكريم نفسه حيث دعا إلى التدبّر والتمعّن فيه، وكذلـك النصوص الكثيرة الأخرى الواردة في الحث على التأمل والتدبّر فيه، وانه (لا يخلق عن كثرة رد) وانه (لا يشبع منه العلماء) وغير ذلك... فإن هذه الآيات والنصوص لا تشـير إلى تلك المعاني الرمزية الاشارية وإنما تشير إلى الظهورات القرآنية المستنبطة من جانب العلماء المؤهلين العارفين بمصادر الثقافة الإسلامية الأصيلة.

ونشير هنا إلى بعض التفاسير الاشارية المعروفة..

١ ـ تفسير النيسابوري، هذا التفسير لا يقتصر على التفسير الاشاري، وانّما يتعرّض إليه بعد أن يفسّر الآيات القرآنية على ظاهر معانيها، ويذكر المعنى الاشاري بعنوان التأويل.

قال مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾.

... التأويل: ذبح البقرة اشارة إلى ذبح النفس البهيمية فانّ في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهو الجهاد الأكبر: موتوا قبل أن تموتوا...

اقتلوني يا ثقاتي *** إنّ في قتلي حياتي

وحياتي في حياتي *** وحياتي في حياتي

٢ـ تفسير التستري: تأليف أبي محمد سهل بن عبدالله التستري (ت: ٢٨٣ هـ).

فذكر مثلاً في تفسير البسملة:

الباء بهاء الله عزّوجل، والسين سناء الله عزّوجل، والميم مجد الله عزّوجل، والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الاسماء كلها... إلخ.

٣ ـ تفسير ابن عربي، تأليف محيي الدين بن عربي، الحاتمي الصوفي الفقيه المحدث، عبدالله محمد بن علي... (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ)[1].

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[2].

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ اي سخّرنا لسليمان العقل العملي، والمتمكن

---

(١) يرى الشيخ محمد عبده أن هذا التفسير ليس لابن عربي، وانما هو لعبدالرزاق القاشاني (ت: ٧٣٠هـ) وقد وافقه محمد حسين الذهبي. انظر: التفسير والمفسّرون: ٣ / ٦٦ ـ ٦٧.

(٢) سورة الأنبياء: ٨١.

عـلى عرش النفس في المصـدر، ريح الهوى ﴿عَاصِفَـةً﴾ في هبوطها ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ مطيعة له ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ارض البدن المتدرب بالطاعة والأدب ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بتمييز الأخلاق والملكات الفاضلة والأعمال الصالحة.

٤ ـ تفسـير روح المعاني، تأليف شـهاب الدين محمد الآلوسي البغدادي مفتي بغداد. (ت: ١٢٧٠ هـ).

حيث يذكر فيه مثل هذه «الإشارات» المزعومة.

«الدرس ٥٥»

القسم الرابع: التفسير بالرأي

والمقصود منه هنا أن يعتمد الإنسـان في تفسير الآيات القرآنية على رأيه المجرّد من خلال قناعاته الشـخصية المسبقة فيوجه أو يؤوّل الآيات القرآنية بما ينسجم معها.

وهو غير «التفسير الاعتباطي»[1] الذي يسلكه بعض المفسّرين على طريقة القصاصين، لجذب العامة وخديعتهم.

فالتفسـير الذي يعتمد على قناعات الإنسـان وآرائه المسبقة هو التفسير بالرأي المنهـي عنه في النصوص الكثيرة، ونلاحظ أن كثيراً من المفسّرين وقعوا في هذا المأزق حيث أقحموا قناعاتهم المسـبقة في تفسير الآيات، وحمّلوا الآيات

(١) ومن المؤسـف ان هذا (التفسـير) ـ الذي يمكن اعتباره نوعاً من التقـوّل والافتراء ـ كان له أصحابه الذين خدعوا الناس وأوهموهم، ومنهم مَن أخذ مساحة واسعة في الكتب التفسيرية أيضاً، فقد روي عن مالك بن أنس «أنه بلغه أن مقاتلاً جاءه إنسان فقال: إن إنساناً جاءني فسألني عن لون كلب أصحاب الكهف، فلم أدرِ ما أقول، فقال له مقاتل: ألا قلتَ له أبقع، فلو قلتَه لم تجد أحداً يردّ عليك» (تهذيب التهذيب) ١٠ / ٣٨٢).

ويسـلك هذا المنهج أصحاب الضـلالات والبدع لأجل التأثير عـلى أتباعهم واللبس عليهم. ونحن نعرض عن هذا النمط، لأنه ليس تفسيراً في الحقيقة بل هو مجرد أكاذيب وافتراءات.

الكريمة آراءهم الخاصة وتوجّهاتهم. فالمعتزلي يفسّر الآية بما ينسجم مع منهجه الاعتزالي، والأشعري كذلك، والفيلسوف يجرّ الآيات إلى دعم آرائه الفلسفية، والعرفاء والمتصوّفة حوّلوا القرآن إلى رموز واشارات وفق أذواقهم وهكذا... حتى ان المنبهرين بالتطور الهائل للعلوم المادية جعلوا من القرآن كتاب فهرسة وإشارة للنظريات العلمية المختلفة... ففقدت تفاسيرهم روعة القرآن وحيويّته ودوره الفاعل في هداية الناس وإرشادهم لمقتضيات الفطرة السليمة والمُثل العليا في الأخلاق والسلوك ورسم الخطوط التوجيهية العامة للبشرية مجتمعات وافراداً.

القسم الخامس: التفسير بالتدبر الجامع

والمقصود منه تفسير القرآن بالاعتماد على التدبّر فيه، واستنطاق الآية الكريمة وملاحظة الآيات الأخرى المرتبطة بها، مع الرجوع للنصوص الواردة في المقام.

ويتطلب هذا النحو من التفسير:

أ: مستوى علمياً رفيعاً في العلوم المختلفة المرتبطة بالمواضيع التي يتناولها القرآن الكريم، بالإضافة إلى دقّة المفسّر ووعيه الاجتماعي العام.

ب) أصالة وعمق الثقافة الإسلامية للمفسِّر في مختلف الجوانب العقائدية والاجتماعية وغيرها، وإحاطته بالمصادر الاسلامية الأصيلة المتمثلة بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأئمة المعصومين عليهم السلام، لأنّ القرآن الكريم وأهل البيت ـ كما جاء في حديث الثقلين المعروف ـ هما الثقلان اللذان خلفهما الرسول الكريم للأمة الاسلامية وانهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض.

ج) الإحاطة والمراجعة الشاملة والدقيقة لكل ما يمكن أن يساهم في تفسير الآية، وعدم التسرع في التفسير، إلاّ بعد التثبت والوضوح التام، ومع عدمه فيُطرح الرأي كمجرد احتمال قابل للنقاش والدراسة من دون نسبته للقرآن.

وهذا النمط من التفسير هو الذي ينسجم مع النصوص الكثيرة التي

حثت على الرجوع للقرآن الكريم واستنطاقه، وانه لا يخلق على مرّ العصور والأيام... ففي كلام للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «وكتاب الله بين اظهركم ناطق لا يعيا لسانه وبيت لا تهدم اركانه وعزّ لا تهزم اعوانه»[١].

وفي كلام آخر له عليه السلام أيضاً: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفا مصابيحه وسراجاً لا يخبو توقّده... فهو معدن الايمان وبحبوحته ـ أي وسطه ـ وبحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون ـ أي المستقون ـ ومناهل لا يغيضها الواردون... جعله الله رياً لعطش العلماء وربيعاً لقلوب الفقهاء... إلخ»[٢].

وهناك نصوص كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام تشير إلى ذلك، هذا بالاضافة إلى العديد من الآيات القرآنية الداعية للتدبر والتأمل في القرآن الكريم.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾[٣].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٤].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٥].

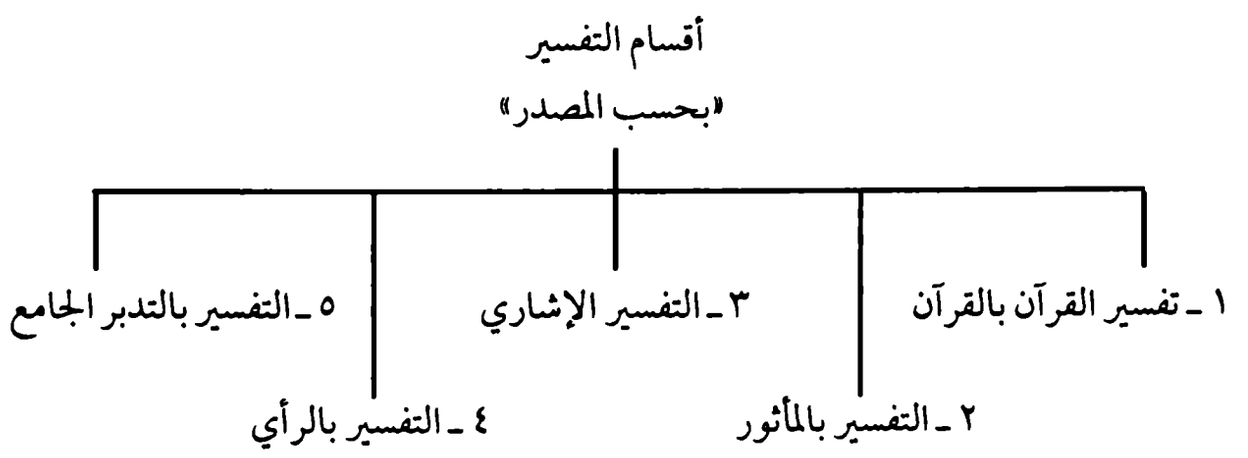

(١) تصنيف نهج البلاغة: ٢٠٩.
(٢) تصنيف نهج البلاغة: ٢١٢.
(٣) سورة النساء: ٨٢.
(٤) سورة ص: ٢٩.
(٥) سورة محمّد: ٢٤.

الخلاصة

١ ـ التفسير له معنيان..

أ) مطلق كشف المراد من الكلام.

ب) خصوص حمل اللفظ على المعنى الظاهر منه.

٢ ـ التأويل ذكروا له أربعة معانٍ..

أ) أنه تفسير مراد المتكلم.

ب) أنه نفس المقصود من الكلام، وهذان المعنيان ذكرهما القدماء.

ج) صرف اللفظ عن ظاهره.

د) الحكمة من الشيء ومغزاه.

وهذان المعنيان ذكرهما المتأخرون.

٣ ـ أقسام التفسير بحسب المصدر المعتمد خمسة..

أ) تفسير القرآن بالرأي.

ب) التفسير بالمأثور.

ج) التفسير الإشاري.

د) التفسير بالرأي.

هـ) التفسير بالتدبر الجامع.

٤ ـ أوضحنا أنه لا يمكن الاكتفاء بتفسير القرآن بالقرآن، وإن تفسير المأثور فيه عدة ملاحظات يفترض الانتباه إليها من جانب المفسرين.

وإن التفسير الإشاري لا يعتمد عليه وكذلك التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه أيضاً، فيتعين التفسير بالتدبر الجامع، والذي يستفاد فيه من بعض المصادر التفسيرية السابقة مثل القرآن الكريم نفسه والمأثور المعتبر.

«الدرس ٥٦»

البحث الثاني: مناهج التفسير

عندما نراجع كتب التفسير نجدها تسير على وفق التسلسل الذي جُمع عليه القرآن الكريم، فهي جميعاً تبدأ بسورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس. ويمكن ان نسمي هذا المنهج بالتفسير الترتيبي ويسميه البعض التفسير التجزيئي.

«وفي تأريخ متأخر من تأريخ علم التفسير أخذت تنمو بوادر منهج جديد في التفسير أو البحث القرآني يقوم على اساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية من خلال عرضها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم، فحين نريد ان نعرف رأي القرآن الكريم في الألوهية، يستعرض هذا المنهج الجديد الآيات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي جميع المواضيع القرآنية سواء في ذلك ما يتعلق بأصل وجود الإله أو بصفاته وحدوده ومن خلال هذا العرض العام والمقارنة بين الآيات وحدودها يستكشف النظرية القرآنية في الإله»[1].

ونظير هذا الموقف يتخذه في كل المفاهيم والنظريات أو بعض الظواهر القرآنية، ويسمى هذا بالتفسير الموضوعي.

ولأجل أن نكون على بصيرة كافية في فهم التفسير الموضوعي نشير إلى المعاني الثلاثة للموضوعية التي ذكرها الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمه الله الذي اهتم كثيراً بالتفسير الموضوعي ودعا اليه بقوّة. فقد ذكر رحمه الله ان الموضوعية تستعمل هنا في ثلاثة معان:

---

(١) علوم القرآن / للسيد محمد باقر الحكيم : ٣٤٤ .

١ ـ الموضوعيــة في مقابــل الذاتية «والموضوعية بهــذا المعنى عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث»[١].

٢ ـ الموضوعيــة بمعنى أن يبدأ الباحث من (الموضوع) الذي هو الواقع، ويعود إلى القرآن الكريم لمعرفة ما يطرحه القرآن تجاه هذا الواقع، فيركّز المفسّر نظره على موضوع من المواضيع ويستوعب ما أثارته أبحاث الإنسان وما قدّمه الفكر الإنساني من حلول وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني... ويبدأ معه حواراً، فالمفسّر يسأل والقرآن يجيب، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح[٢].

وقد يسمى هذا بالمنهج التوحيدي باعتبار أنه يوحد بين التجربة البشرية والقرآن الكريــم، لا بمعنى أنه يحمّل التجربة البشرية على القرآن بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق واحد لكي يستخرج ـ نتيجة هذا السياق ـ المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية»[٣].

٣ ـ الموضوعية بمعنى ما ينســب إلى الموضوع الذي يختاره المفسّر ليجمع الآيات التي تشــترك في التعــرض لذلك الموضوع فيفسّرها ويحاول اســتنتاج نظرية قرآنية فيما يخص ذلك الموضوع «ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجاً توحيدياً أيضاً باعتبار انه يوحّد بين هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد»[٤].

وعندما نرجع إلى هذه المعاني الثلاثة للموضوعية يتضح أن المعنى الأول خارج عن البحث، لأنها حالة مفروضــة أو مطلوبة من كل باحث ولا تختص بمنهج دون منهج.

وقد اعتمد الشيخ السبحاني المنهج الموضوعي بالمعنى الثالث من خلال

---

(١) المدرسة القرآنية، المحاضرة الثانية: ٢٩.

(٢) المصدر.

(٣) انظر: المصدر: ٢٨.

(٤) المصدر السابق.

عدة دراسات قرآنية له[١].

بينما تبنى الشهيد الصدر رحمه الله منهج التفسير الموضوعي ـ الموضوعية بالمعنى الثاني ـ اعتماداً على ثلاثة مرجحات رئيسية ذكرها لهذا المنهج على منهج التفسير الترتيبي ـ المعهود بين المفسرين ـ .

ونوكل ملاحظة هذه المرجحات، وما يمكن أن يثار حولها من مناقشات إلى فرصة أخرى ودراسة أعمق.

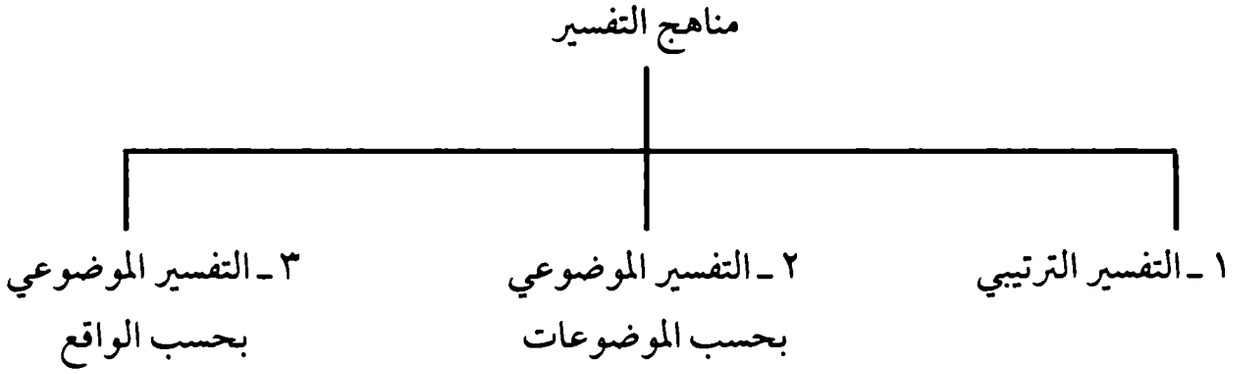

(١) طبعت في عشر أجزاء تحت عنوان مفاهيم القرآن، جزء منها في صفات الله تعالى وجزء منها في أهل البيت عليهم السلام وجزء منها في المؤمنين وغيرها.

الفصل الثاني: المفسّرون

١ ـ طبقات المفسّرين

قبل التعرض لطبقات المفسرين يمكننا اعتبار القرآن الكريم نفسه والرسول العظيم نفسه من المفسرين للقرآن، إذ وردت آيات عديدة تصلح أن تكون مفسِّرة لآيات قرآنية أخرى، لذلك انطلقت فكرة تفسير القرآن بالقرآن.

وكذلك الرسول ﷺ حيث دلّت نصوص وروايات كثيرة انه كان يفسّر ما يحتاج إلى التفسير من الآيات النازلة عليه، أو يبيّن المصاديق البارزة لمعاني بعض الآيات، مثل ما ورد عنه ﷺ متواتراً انه كان يشير إلى بيت علي وفاطمة ويصرّح بأنّهم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهَّرهم تطهيراً. وكذلك في تفسير آية التصدّق عندما تصدق الإمام عليه السلام بخاتمه، وكذلك آيات التصدق في سورة الإنسان وغير ذلك.

ولا غرابة في ذلك، لأنّ الذي ينزّل القرآن عليه هداية للناس من الطبيعي أن يتصدى لتفسيره وبيان معانيه، وربما تكون في بعض الآيات الكريمة إشارة إلى ذلك ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ولكن السؤال الذي يطرح هنا عن حدود التفسير الذي تصدّى له الرسول ﷺ فهل شمل القرآن كله تفسيراً شاملاً لكل جوانب آياته أو اقتصر على بعض الآيات وبما يتطلبه الظرف والموقف؟

ويوجد اتجاهان في الإجابة على هذا السؤال، حيث يرى بعض الباحثين أن النبي ﷺ لم يفسّر إلاّ بعض الآيات حسب ما اقتضته الظروف ويستشهدون

(١) سورة النحل: ٤٤.

على ذلك بأمرين..

أولهما: قلّة ما ورد عن الصحابة من التفسير بالمأثور، لذلك نجد الصحابة يحتارون في تفسير الآيات القرآنية مما يكشف عن قلّة ما تلقّوه من الرسول ﷺ في التفسير.

ثانيهما: بعض الروايات الدالة على ذلك، منها ما أخرجه البزار عن عائشة من انّ رسول الله ما كان يفسّر إلاّ آياً بعدد[1].

بالاضافة إلى شواهد أُخرى يستشهد بها أنصار هذا الرأي.

بينما يرى الفريق الآخر أن النبي ﷺ قد قام بعملية تفسير شاملة للقرآن.

«الدرس ٥٧»

ويمكن الاستشهاد لهذا الفريق بدليلين:

أحدهما: بعض الآيات الكريمة التي نسبت هذا الدور للرسول الكريم ﷺ مثل قوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

ثانيهما: طبيعة دور القرآن ومكانته بين المسلمين، فمن الواضح ان القرآن الكريم ليس مجرد كتاب نُزّل ليتبرّك به المسلمون أو يحفظوا ألفاظه ليقرؤوها في طقوس معينة، بل هو الكتاب الذي أُنزل لإخراجهم من الظلمات إلى النور، فهو

---

(١) التفسير والمفسّرون: ١ / ٥١.

(٢) سورة البقرة: ١٥١.

(٣) سورة النحل: ٤٤.

إمامهم وهاديهم إلى سواء السبيل، ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[١] وان الآيات القرآنية كانت تنزل لتوجيه المسلمين بالاتجاه الذي ترسمه، وتحدد المواقف في المناسبات التي تنزل فيها، فلا معنى لفرض جهل المسلمين بمعاني وتفسير الآيات القرآنية المتتالية مع شعورهم بضرورة اتّباع النهج المرسوم فيه والالتزام بمحتوياته وتعاليمه، وبما ان الرسول صلى الله عليه وآله هو العارف بتفسيره فلابدّ أن يكون قد بيّنه لأصحابه على نطاق واسع شامل.

وأما قلة المأثور عن الصحابة من التفسير بالمأثور فقد يرجع إلى انعدام التدوين ـ ولو بسبب منعه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله ـ من ناحية، وانشغال الصحابة بالحروب وابتعادهم عن الجوّ العلمي من ناحية ثانية.

ونحن أمام هذين الاتجاهين المتباينين في تحديد دور الرسول صلى الله عليه وآله في تفسير القرآن الكريم ـ يمكن أن نخلص إلى نتيجة تلتقي جزئياً مع كلا الاتجاهين، ولتوضيح ذلك نشير إلى عدّة نقاط جديرة بالملاحظة وهي..

أ) ان القرآن الكريم دعا المسلمين إلى التدبّر في آياته ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢].

ب) انّ الناس ـ بمن فيهم الصحابة ـ يختلفون في قدراتهم الذهنية ومستوياتهم الثقافية والعلمية.

ج) ما ورد أن للقرآن الكريم ظهراً وبطناً، وكذا ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله في بيان عمق القرآن الكريم مثل قوله صلى الله عليه وآله: «ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه»[٣].

---

(١) سورة الاسراء: ٩.

(٢) سورة ص: ٢٩.

(٣) الدارمي: ٢ / ٤٣٥، كتاب فضائل القرآن، انظر: أيضاً صحيح الترمذي: ١١ / ٣٠، والبحار: ٩ / ٧، عن تفسير العياشي.

د) ان القرآن الكريم حمّل النبي ﷺ مسألة بيانه للناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

بعد ملاحظة هذه النقاط يمكننا أن نخلص إلى أن مستوىً عادياً من الفهم لجلّ الآيات القرآنية كان منتشراً بين الصحابة أو كثير منهم، يستند بعضه إلى بيان من الرسول ﷺ، وبعضه إلى الفهم الذاتي باعتبارهم أهل اللغة وضمن الوسط الذي نزل فيه القرآن الكريم.

أما الفهم الدقيق لمعانيه العميقة ـ كما ورد في الحديث عنه ﷺ: «ظاهره انيق وباطنه عميق» ـ فلم يبيّنه الرسول ﷺ على نطاق واسع وشامل، لعدم استيعاب المجتمع آنذاك لها، وعدم توفر الظرف المحيط به ـ خاصة مع ملاحظة ضعف المستوى الثقافي وانشغال المسلمين بالحروب والتحديات الأخرى ـ ولذا ورد أنه لا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة رد، ولا تنقضي عجائبه.

نعم، هناك كثير من النصوص والشواهد الدالة على أنه ﷺ قد خصَّ علياً عليه السلام بهذا الفهم المتميّز، وان كانت آلية هذا التعليم غير معروفة، فهل كان بشكل تفصيلي أو باعطائه مفاتيح الفهم الدقيق للآيات؟ هناك روايات مُختلفة المضمون، ليس هذا محل بحثها.

---

(١) سورة النحل: ٤٤.

أ ـ طبقات المفسرين لدى العامة

الطبقة الأولى من المفسرين: الصحابة

قال السيوطي في الإتقان: «اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبدالله بن الزبير، أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزرة جداً»(١).

أما الإمام علي عليه السلام فهو غني عن التعريف حتى عند غير شيعته، وقد رووا عنه قوله: «والله ما نزلت آية إلاّ وعلمت فيمَ أُنزلت وأين أُنزلت، انّ ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»(٢).

وأما ابن عباس فهو تلميذ الإمام علي فلا غرابة في ضلوعه في التفسير. وقد حكي عنه قوله: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب»(٣).

إلاّ ان الروايات المروية في مصادر الجمهور عن ابن عباس وعن الإمام علي عليه السلام حيث كانت مرسلة أو ضعيفة الاسناد فلا يمكن الاعتماد عليها، وقد حكي عن الشافعي قوله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلاّ شبيه بمائة حديث»(٤).

فإذا كان ما وصل عن الإمام علي وتلميذه ابن عباس ـ على كثرة ما يروى عنهما ـ بهذه الدرجة من الضعف وعدم الاعتماد، فكيف بباقي الصحابة، لذلك

(١) الاتقان: ٢ / ١٨٧. دار ومكتبة الهلال.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٤٢/ ٣٩٨، وسائل الشيعة ١/ ٦١.
(٣) مناهل العرفان: ٢ / ٢١.
(٤) الاتقان: ٤ / ٢٣٩.

لا يمكن الاعتماد على ما يروى عن الصحابة إلاّ القليل جدّاً الذي وصل بطريق معتبر السالم من الاضطراب، والخالي من شواهد الوضع.

وقد أشرنا إلى ذلك عند التعرض للتفسير بالمأثور ونقاط الضعف فيه.

«الدرس ٥٨»

الطبقة الثانية من المفسّرين: التابعون

وقد قسّموهم إلى ثلاث طبقات، طبقة أهل مكة، وطبقة أهل المدينة، وطبقة أهل العراق.

١ ـ طبقة أهل مكة

واشهرهم مجاهد (ت: ١٠٠ ـ ١٠٣ هـ) قيل: فقد كان أوثق من روى عن ابن عباس، ولذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من اقطاب العلم وائمة الدين[1].

وسعيد بن جبير (قتله الحجاج، عام: ٩٤هـ) وعكرمة مولى ابن عباس (ت: ١٠٥ هـ) وطاووس بن كيسان اليماني (ت: ١٠٦ هـ) وعطاء بن أبي رباح (ت: ١١٤ هـ).

٢ ـ طبقة أهل المدينة

ومنهم أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي (ت: ٩٠هـ)، روى عن أبي بن كعب. وعطية بن سعيد العوفي (ت: ١١١ هـ). ومحمد بن كعب القرظي (ت: ١١٧ هـ) كان من بني قريظة، و زيد بن أسلم (ت: ١٣٦ هـ) قيل أخذ عنه مالك بن أنس.

---

(١) مناهل العرفان: ٢ / ٢٢.

٣ ـ طبقة أهل العراق

منهم .. مسروق بن الأجدع كان بالكوفة (قيل توفي سنة ٦٣هـ). والحسن البصري (قيل: توفي: ١١٠هـ) وقتادة بن دعامة (ت: ١١٧هـ) كان بالبصرة وعطاء بن أبي مسلم الخراساني (ت: ١٣٣هـ) ومُرّة الهمذاني الكوفي.

وقد اختلفوا في طريقتهم في التفسير، قال السيوطي: وغالب أقوالهم تلقّوها عن الصحابة[١].

بينما خالف البعض في ذلك، قال الزرقاني: يلاحظ على ما روي عن التابعين اعتبارات مهمّة تثير الطعن فيه وتوجه النقد إليه:

منها: انّهم لم يشاهدوا عهد النبوة ولم يتشرفوا بأنوار الرسول، فيغلب على الظن أنّ ما يروى عنهم في تفسير القرآن، إنّما هو من قبيل الرأي فليس له قوّة المرفوع ـ أي المسند ـ إلى النبي ﷺ.

ومنها: انّه يندر فيه الإسناد الصحيح.

ومنها: اشتماله على إسرائيليات[٢].

وقد تقدّم البحث عن مدى القيمة العلمية لما يُروى من التفسير عن الصحابة والتابعين عند الحديث عن التفسير بالمأثور.

الطبقة الثالثة من المفسرين

وهم تلاميذ الطبقة الثانية، مثل ربيع بن أنس وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وأبي صالح الكلبي ـ النسّابة والمفسر في القرن الثاني ـ وأمثالهم.

---

(١) الإتقان: ٤ / ٢٤٢.

(٢) مناهل العرفان: ٢ / ٢٥.

وكانت طريقتهم في التفسير إمّا نسبة تفسير الآيات إلى الرسول ﷺ أو الصحابة أو يذكرون معنى الآية من دون نسبته إلى أحد.

ونلاحظ أنّ المفسرين المتأخرين يعاملون هذه الأقوال معاملة الروايات النبوية، ويعتبرونها روايات موقوفة[١].

ويطلق على الطبقتين الثانية والثالثة من المفسّرين مصطلح قدماء المفسرين[٢].

الطبقة الرابعة من المفسرين

وهم أول طبقة من المفسّرين الذين ألّفوا في التفسير.

مثل شعبة بن الحجاج البصري ـ ينتمي للطبقة الثانية من التابعين (ت: : سنة ١٦٠هـ) وسفيان بن عيينة المكّي ـ من الطبقة الثانية من التابعين (ت: : سنة ١٩٧هـ) ووكيع بن الجراح الكوفي (ت: ١٩٧هـ).

وعبد بن حميد ـ ينتمي للطبقة الثانية من التابعين عاش في القرن الثاني ـ .

ومن هذه الطبقة ابن جرير الطبري، وهو محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التفسير المعروف ـ المتوفى سنة ٣١٠هـ.

وطريقة هؤلاء في التفسير انّهم يوردون أقوال الصحابة والتابعين بصيغة روايات مسندة إليهم، ويتجنّبون الاستقلالية في التفسير، إلاّ انّ ابن جرير في تفسيره قد يرجح بين الآراء المختلفة.

وهذه الطبقة هي أولى طبقات المتأخرين من المفسرين[٣].

---

(١) الرواية الموقوفة: هي الرواية التي لم يذكر فيها اسم المروي عنه، فالمتأخرون من مفسري الجمهور يعتبرون أقوال هؤلاء منسوبة للنبي ﷺ أو الصحابة ، وان لم يصرّحوا انفسهم بذلك.

(٢) انظر: كتاب (قرآن در اسلام) : ٧٦ .

(٣) انظر: كتاب (قرآن در إسلام): ٧٧.

الطبقة الخامسة من المفسرين

قيل: وهم الذين حذفو أسانيد الروايات، واكتفوا بنسبة الآراء للأشخاص من دون إسناد، وقد اعتبر السيوطي وغيره ان الالتباس بين الصحيح وغيره قد بدأ من هؤلاء بسبب حذف الأسانيد، ولذا تعرّضت رواياتهم للطعن والتجريح.

لكن الصحيح ـ كما قدّمنا ـ ان الاضطراب والدس والخرافات والإسرائيليات قد بدأت قبل هذه الطبقة، حيث نجد أن الروايات المسندة التي ذُكرت قبلهم مشتملة على هذه التناقضات والإسرائيليات والقصص الخرافية وغيرها.

وقد حكي[1] عن أحمد بن حنبل ـ الذي هو قبل هذه الطبقة ـ قوله: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي».

وأشار ابن خلدون إلى أن العرب حيث لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وانّما غلبت عليهم البداوة والأمّية، فإذا رغبوا في معرفة ما ترغب فيه النفوس البشرية من أسباب التكوين وبدء الخليقة وأسرار الوجود كانوا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم... وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبّه وعبدالله بن سلام فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وتُلقيّت بالقبول، لما كان لهم من المكانة السامية، ولكن الراسخين في العلم قد تحرّوا الصحة وزيّفوا ما لم يتوافر أدلة على صحته[2].

وهذا يؤكد أن اختلاط السقيم بالصحيح قد بدأ منذ عهد الصحابة.

---

(١) مناهل العرفان: ٢ / ٢٨.

(٢) انظر: مناهل العرفان: ٢ / ٢٩.

«الدرس ٥٩»

الطبقة السادسة من المفسّرين ومن بعدهم

وهم المفسّرون الذين ظهروا بعد نضج العلوم المختلفة أو انتشارها بين المسلمين، وتخصّص الكثير منهم فيها، فركّز كلُّ عالم متخصّص في فنّه على مجال اختصاصه في تفسيره.

فالنحوي ركّز على أبحاث علم النحو مثل الزجاج (ت: ٣١٠هـ) وأبي الحسن الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) وأبي حيان التوحيدي ـ اندلسي نحوي وقارئ ومفسّر (ت: ٧٤٥هـ).

وعالم البلاغة ركّز على ابحاث الفصاحة والبلاغة مثل الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) في الكشاف.

والمتكلم توسّع في أبحاث علم الكلام مثل فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ) في تفسيره الكبير.

والعارف ضمّن تفسيره مباحث العرفان مثل محيى الدين بن عربي ـ (ت: ٦٣٨هـ).

والأخباري اقتصر على الأخبار مثل أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت: ٤٢٦ ـ ٤٢٧هـ).

والفقيه اهتمّ بالأبحاث الفقهية مثل محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت: ٦٦٨هـ).

وجمع بعض المفسرين في تفسيره بين علوم مختلفة مثل نظام الدين حسن القمي النيسابوري (ت: ٧٢٨هـ) في تفسيره المسمّى تفسير النيسابوري.

والشيخ إسماعيل حقّي (ت: ١١٣٧هـ) في تفسيره روح البيان. وشهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت: ١٢٧٠هـ) في تفسيره روح المعاني.

ب- طبقات المفسرين لدى الشيعة:

يختلف الاتجاه التفسيري عند الشيعة عن المنحى الذي عليه التفسير لدى الجمهور، إذ انّ شيعة أهل البيت عليهم السلام لا يرون موضوعية لأقوال الصحابة والتابعين ما دامت غير مسندة للرسول صلى الله عليه وآله، وبالمقابل يعتمدون آراء ائمة أهل البيت عليهم السلام وتفاسيرهم، باعتبارهم الحجة وأحد الثقلين اللذين خلفهما النبي صلى الله عليه وآله في أُمته.

وعلى هذا الأساس يمكن أن نرتب طبقاتهم كما يلي..

الطبقة الأولى

الذين رووا روايات التفسير عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام فأوْدعوها في أصولهم التي ألّفوها مشتتة ومتفرقة مثل أبي حمزة الثمالي، و زرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم الثقفي، ومعروف بن خربوذ، وجرير، وفرات بن إبراهيم الكوفي.

وقد ألّف أبو حمزة الثمالي ثابت بن دينار كتاباً في التفسير، وذكر السيد الطباطبائي انّ طريقة أبي حمزة في التفسير هو النقل عمّن يروي عن المعصوم لا النقل مباشرة، ولذا عدّه من الطبقة الثانية[1]، وكذلك فرات الكوفي.

---

(١) لكن مراجعة النصوص التفسيرية عنه التي جمعت وطبعت أخيراً تؤكد روايته عن المعصوم عليه السلام مباشرة. انظر: كتاب (تفسير القرآن الكريم لأبي حمزة ثابت بن دينار الثمالي) أعاد جمعه وتأليفه عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين.

الطبقة الثانية

وهم الذين لم يرووا عن المعصومين مباشرة، بل كانت رواياتهم عمّن روى عن المعصومين عليهم السلام مثل محمد بن مسعود الكوفي العياشي صاحب تفسير العياشي ـ عاش في النصف الثاني من القرن الثالث قيل توفي: ٣٢٠ ـ ومن المؤسف ان أحد تلاميذه حذف أسانيد روايات استاذه إلى المعصومين عليهم السلام لأجل الاختصار، وانتشرت هذه النسخة وتداولتها الأيدي حتى فقدت النسخة الأصلية المسندة، وبذلك فقد هذا الكتاب الكثير من قيمته العلمية.

ومن هذه الطبقة علي بن إبراهيم القمي ـ من مشايخ الحديث عاش إلى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع، وهو صاحب تفسير علي بن إبراهيم ـ وقد كان دأب هذه الطبقة بشكل عام إسناد الروايات للمعصومين عليهم السلام. وتجنّب إبداء الرأي في التفسير[1].

ومنهم محمد بن إبراهيم النعماني من أعيان علماء الإمامية ومن تلامذة الكليني ـ عاش في أوائل القرن الرابع، وقيل انّه توفي في سنة ٣٦٠ ـ.

هذا، وقد برز منذ القرن الأول الهجري الكثير من المفسّرين الشيعة، وحفظت المكتبة العربية والإسلامية مساهمات تفسيرية قيّمة لمجموعة منهم، نشير إلى بعضهم فيما يلي:

القرن الأول

ميثم التمّار (استشهد ٦٠هـ).

سعيد بن جبير (قتله الحجاج ٦٤هـ).

عبدالله بن عباس (ت: ٦٨هـ).

جابر بن عبدالله الأنصاري (ت: ٧٤هـ).

---

(١) انظر: كتاب (قرآن در إسلام): ٨٣.

القرن الثاني

طاووس بن كيسان اليماني (ت: ١٠٦هـ).

عطية بن سعيد العوفي (ت: ١١١هـ).

زيد بن علي (الشهيد ١٢١ أو ١٢٢هـ).

أبو محمد إسماعيل بن عبدالرحمن السدي الكبير (ت: ١٢٧هـ).

جابر بن يزيد الجعفي (ت: ١٢٨هـ).

أبان بن تغلب البكري (ت: ١٤٦هـ).

الفضيل بن يسار البصري (ت: ١٤٧هـ).

هشام بن سالم الجواليقي (الذي كان حياً إلى عام ١٤٨هـ).

سليمان بن مهران الأعمش (ت: ١٤٨هـ).

ثابت بن دينار المعروف بأبي حمزة الثمالي (ت: ١٤٨ أو ١٥٠هـ).

محمد بن فرات (ت: حوالي ١٥٠هـ).

محمد بن خالد البرقي (ت: حوالي ١٨٣هـ).

القرن الثالث

يونس بن عبدالرحمن الأسدي (ت: ٢٠٨هـ).

يحيى بن زياد المعروف بالفرّاء (ت: ٢٠٨هـ).

محمد بن أبي عمير من أصحاب الإمام الكاظم (ت: حوالي ٢١٧هـ).

الحسن بن علي بن فضال (ت: ٢٢٤هـ).

محمد بن عيسى بن عبيد المعروف باليقطيني (ت: ٢٢٤هـ).

الحسن بن محبوب (ت: حوالي ٢٢٤هـ).

علي بن مهزيار الأهوازي صاحب الإمام الجواد (ت: بعد ٢٢٩هـ).

أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري (ت: حوالي ٢٣٠هـ).

الفضل بن شاذان النيشابوري (ت: ٢٦٠هـ).

أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت: ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ).

سعيد بن عبدالله الأشعري (ت: ٢٩٩ ـ ٣٠١هـ).

القرن الرابع

فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي (ت: حوالي ٣٠٧هـ).

علي بن إبراهيم القمي (كان حياً عام : ٣٠٧هـ).

محمد بن مسعود المعروف بالعياشي (ت: ٣٢٠هـ).

علي بن بابويه (ت: ٣٢٩هـ).

محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد (ت: ٣٤٣هـ).

محمد بن إبراهيم بن جعفر المعروف بالنعماني (ت: ٣٦٠هـ).

محمد بن علي بن حسين بن موسى بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت: ٣٨١هـ).

أحمد بن فارس صاحب جامع التأويل في التفسير (ت: ٣٩٥هـ).

القرن الخامس

الشريف الرضي محمد بن الحسين (٣٥٩ ـ ٤٠٦هـ).

الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٨ ـ ٤١٣هـ).

الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ).

أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي (ت: ٤٤٩هـ).

أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد المعروف بالنجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٩هـ).

أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي المعروف بالشيخ الطوسي (٣٥٨ ـ

٤٦٠هـ) صاحب تفسير التبيان.

القرن السادس

الفضل بن الحســـن بن الفضل المعروف بالطبرسي صاحب مجمع البيان (٤٦٨ ـ ٥٤٨هـ).

سيد ضياء الدين بن الرضا الراوندي (ت: ٥٤٩هـ).

قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله بن حسن الراوندي (ت: ٥٧٣هـ).

محمد بن منصور بن أحمد بن أدريس (٥٤٣ ـ ٥٩٨هـ).

«الدرس ٦٠»

استعراض خاطف لبعض التفاسير المعاصرة

١ ـ التفسير الكاشف

تأليف محمد جواد مغنية (المتوفى ١٣٩٩ هـ) وهو سبعة أجزاء.

وقد كتب التفسير بلغة حديثة ميّسرة خالية من الغموض ـ كما دأب المؤلف في باقي كتبه أيضاً ـ ويتضمن الإشارة إلى بعض الأبحاث اللغوية والاعرابية أحياناً، ثم يدخل إلى تفسير الآيات مباشرة، ويتطرق أحياناً إلى المعاني والأبحاث التي يستوحيها من الآية فيبحثها ضمن عناوين مستقلة، ورغم بعض الملاحظات حول بعض الآراء الواردة فيه إلاّ انّه مفيد و جيّد وقد لخّص الشيخ مغنية اتجاهه في تفسيره ضمن نقاط:

١ ـ «نظرت إلى القرآن على انّه في حقيقته وطبيعته كتاب دين وهداية واصلاح وتشريع يهدف قبل كل شيء إلى أن يحيا الناس جميعاً حياة تقوم على أسس سليمة يسودها الأمن والعدل ويغمرها الخصب والرفاهية... ولا يعني هذا اني اغفلت الجهات النافعة التي تعرّض لها المفسّرون الكبار... بخاصة المشكلات الفلسفية مثل الجبر والاختيار والهدى والضلال، والإمامة، وعصمة الأنبياء والشفاعة والاحباط، ومرتكب الكبيرة وحساب القبر... وما إلى ذلك[1].

نظرت إلى الإسرائيليات التي جاءت في بعض التفاسير على انّها خرافة وأساطير... وايضاً تجاهلت ما جاء من الروايات في أسباب التنزيل إلاّ قليلاً

(١) التفسير الكاشف: ١ / ١٣ ـ ١٤.

منها... وأيضاً لم أشغل نفسي والقارئ بذكر العلاقة والمناسبة بين الآيات واتصال بعضها ببعض»[١].

٢ ـ اعتمدت ـ قبل كل شيء ـ في تفسير الآية وبيان المراد منها على حديث ثبت في سنّة الرسول ﷺ... فإذا لم يكن حديث من السنّة اعتمدت ظاهر الآية وسياقها... وإذا وردت آية ثانية في معنى الأولى وكان أبين وأوضح ذكرتهما معاً لغاية التوضيح، لأنّ مصدر القرآن واحد... وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع حكم العقل وبداهته أوّلت اللفظ بما يتفق مع العقل... وإذا تعارض ظاهر اللفظ مع إجماع المسلمين في كل عصر ومصر على مسألة فقهية حملت الظاهر على الإجماع...»[٢].

٢ ـ الميزان في تفسير القرآن

تأليف: السيد محمد حسين الطباطبائي (المتوفى ١٤٠٢هـ) وهو تفسير كبير يقع في عشرين جزءاً.

يمتاز هذا التفسير بالعمق والأبحاث الدقيقة ويأتي في مقدمة التفاسير الحديثة، وقد أشار المؤلف في مقدمة تفسيره إلى منهجه وأهم ما يرتكز عليه تفسيره، وذلك:

١ ـ المعارف المتعلقة بأسماء الله سبحانه وصفاته.

٢ ـ المعارف المتعلقة بأفعاله تعالى.

٣ ـ المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الإنسان كالحُجُب.

واللوح والقلم والعرش والكرسي والبيت المعمور والسماء والأرض... إلخ.

٤ ـ المعارف المتعلقة بالإنسان قبل الدنيا.

---

(١) المصدر: ١٤ ـ ١٥.

(٢) المصدر السابق: ١٥ ـ ١٦.

٥ ـ المعارف المتعلقة بالإنسان في الدنيا كمعرفة تأريخ نوعه ومعرفة نفسه ومعرفة أصول اجتماعه ومعرفة النبوة و... إلخ.

٦ ـ المعارف المتعلقة بالإنسان بعد الدنيا، وهو البرزخ والمعاد.

٧ ـ المعارف المتعلقة بالأخلاق الإنسانية، ومن هذا الباب ما يتعلق بمقامات الأولياء في صراط العبودية من الإسلام والإيمان والإحسان... ثم وضعنا في ذيل البيانات متفرقات من أبحاث روائية نورد فيها ما تيسّر لنا إيراده من الروايات المنقولة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين... ثم وضعنا أبحاثاً مختلفة فلسفية وعلمية وتاريخية واجتماعية وأخلاقية... إلخ[1].

ويلاحظ القارئ للميزان ثلاث نقاط هامة..

أ) انّ المؤلف لا يتعامل ـ بشكل عام ـ مع النصوص الواردة في بيان معاني الآيات على انّها روايات تفسيرية تحدد المعنى القرآني، بل يحملها على بيان مصاديق بارزة لمعاني الآيات فحسب، لأنّ القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر ـ كما جاء في الحديث ـ وهذا ما يسميه المؤلف بالجري والانطباق.

ب) النظرة الشاملة إلى القرآن الكريم بكل آياته وسوره، ومحاولة إرجاع وربط بعضه ببعض، وهذا ما يسميه المؤلف بتفسير القرآن بالقرآن.

ج) اهتمام المؤلف بمعالجة شبهات أعداء الإسلام والمنحرفين، فيذكر البراهين والأدلة المبطلة لها.

هذا، ورغم عمق وأهمية الجهد المبذول في هذا التفسير من مؤلفه المعروف بدقّته وغزارة علمه إلاّ انّ الملاحظ تأثر المفسّر بقناعاته الفلسفية واتجاهه العرفاني، فتلوّن تفسيره بذلك، حتى انّ من الصعب فهم كثير من أبحاثه لمن لم يكن عنده اطلاع واسع بمدرسة صدر الدين الشيرازي الفلسفية ـ المعروفة بالحكمة المتعالية ـ والتي ينتمي إليها السيد الطباطبائي.

---

(١) الميزان: ١ / ١٣ - ١٤.

تبقى ملاحظة أخيرة حول ضعف الأسلوب والتواء التعبير الذي كتب به التفسير المذكور، لأنّ اللغة العربية هي اللغة الثانية للمفسّر، وليست لغة الأم بالنسبة إليه.

٣ ـ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

تأليف لجنة بإشراف الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

وهو من التفاسير الجيدة النافعة للشباب المثقف، وقد كتب بلغة واضحة وميسّرة، واشير في مقدمته إلى خصائصه ومزاياه والمنهجية التي اتبعها المؤلفون فيه، من خلال النقاط التالية:

١ ـ لما كان القرآن «كتاب حياة» فانّا لم نركز ـ في التفسير ـ على المسائل الأدبية والعرفانية، بل بدلاً من ذلك عالجنا المسائل الحياتية المادية والمعنوية وخاصة المسائل الاجتماعية، وسعينا إلى اشباعها بحثاً وتحليلاً، وخاصة ما يرتبط من قريب بحياة الفرد والمجتمع.

٢ ـ في ذيل كل آية تناولنا تحت عنوان (وقفات) المسائل المطروحة في الآية بشكل مستقل كالربا والرق وحقوق المرأة وفلسفة الحج و...

٣ ـ عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القليلة، وأعطينا الأهمية لمعاني الكلمات وأسباب النزول ما له تأثير في الفهم الدقيق لمعنى الآية.

٤ ـ عرضنا التساؤلات والشبهات والاعتراضات المطروحة باختصار، مثل شبهة الآكل والمأكول والمعراج وتعدد الزوجات... كي لا تبقى أية علامة استفهام عند مطالعة تفسير الآيات.

٥ ـ أعرضنا عن استعمال المصطلحات المعقدة التي تجعل الكتاب خاصاً بفئة خاصة من القرّاء[1].

---

(١) الأمثل: ١ / ١٢ ـ ١٣.

ورغم أهميـــة الجهد المبذول في هذا التفســـير والعـــرض الجيد الواضح لمواضيعه، إلاّ انّه وبسبب كونه ترجمة لتفسير (نمونة) ـ المكتوب باللغة الفارسية ـ لم يخل من ضعـــف في لغته التي كتب بها، خاصة مـــن خلال تسرّب كثير من المفردات غير الفصيحة فيه.

الأسئلة

١ ـ ما هي العلوم التي يحتاجها الدارس المتخصص لفهم القرآن الكريم؟

٢ ـ اذكر المعاني الأربعة للتأويل.

٣ ـ اذكر الملاحظات الأربع على منهج التفسير بالمأثور لدى الجمهور.

٤ ـ اذكر الملاحظات الأربع على منهج التفسير بالمأثور لدى الشيعة.

٥ ـ اذكر ثلاثة من أشهر التفاسير بالمأثور الشيعية وثلاثة من أشهر التفاسير بالمأثور لدى العامة.

٦ ـ ما هي الاتجاهات الرئيسية في التفسير؟

٧ ـ ما هي المناهج الرئيسية في التفسير؟

٨ ـ ما هو دور الرسول ﷺ في عملية تفسير القرآن؟

الى هنا تنتهي ـ بعون الله ـ بحوث «علوم القرآن» المعدة أساسـًا كدروس منهجية للدارسـين لهذا العلم. آملاً أن يتقبل الله تعالى هذا الجهد اليسير بقبول حسن وأن ينفع به المهتمين بالشؤون القرآنية، خاصة طلبة العلوم الإسلامية في الحوزات العلمية والمعاهد والجامعات «وفقهم الله تعالى».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

رياض الحكيم

١٤١٥هـ

فهرست المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي.
٣. أُسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن أبي الكرم بن الاثير.
٤. الإسلام في قفص الاتهام، شوقي أبو خليل.
٥. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني.
٦. أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني.
٧. الاعتقادات، الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه.
٨. إعجاز القرآن، مصطفى الرافعي.
٩. اعيان الشيعة ، السيد محسن الأمين العاملي
١٠. الأنوار النعمانية،السيد نعمة الله الجزائري.
١١. أوائل المقالات في المذاهب، الشيخ محمد بن محمد النعمان المفيد.
١٢. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي.
١٣. بداية المجتهد، محمد بن أحمد بن رشد القرطبي.
١٤. البرهان، بدر الدين الزركشي.
١٥. البرهان، ميرزا مهدي البروجردي.
١٦. بصائر الدرجات، محمد بن الحسن الصفّار.
١٧. تاريخ الطبري، ابن جرير الطبري.
١٨. تاريخ القرآن، أبو عبدالله الزنجاني.
١٩. تاريخ دمشـــق، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن

عساكر.
٢٠. تاريخ وعلوم قرآن، علي حجتي كرماني.
٢١. التبيان في تفسير القرآن،الشيخ الطوسي محمد بن الحسن.
٢٢. تدوين القرآن، الشيخ علي الكوراني.
٢٣. تذكرة الموضوعات، أحمد بن طاهر الهندي.
٢٤. تصحيح اعتقاد الإمامية، الشيخ محمد بن محمد النعمان المفيد.
٢٥. تصنيف نهج البلاغة، لبيب بيضون.
٢٦. التعريف بالقرآن والحديث، محمد الزفزاف.
٢٧. تفسير ابن الأثير، ابن الأثير.
٢٨. تفسير الطبري، ابن جرير الطبري.
٢٩. تفسير العيّاشي، محمد بن مسعود بن عيّاش.
٣٠. تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي.
٣١. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي.
٣٢. تفسير المنار، رشيد رضا.
٣٣. التفسير والمفسِّرون، محمد حسين الذهبي.
٣٤. تفصيل آيات القرآن الحكيم، ترتيب جول لابوم.
٣٥. تلخيص التمهيد، الشيخ محمد هادي معرفة.
٣٦. التمهيد في علوم القرآن، الشيخ محمد هادي معرفة.
٣٧. تهذيب الأصول، الشيخ جعفر السبحاني.
٣٨. تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني.
٣٩. تهذيب الكمال، أبو الحجاج يوسف المزي.
٤٠. جامع البيان، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
٤١. الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري.

٤٢. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد ربّه.
٤٣. جمال القرّاء، أبو الحسن علي بن محمد السخاوي.
٤٤. حياة محمد، محمد حسين هيكل.
٤٥. الخصال، الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه.
٤٦. الدر المنثور، جلال الدين السيوطي.
٤٧. در آمدى بر وحيانيت ألفاظ قرآن: دكتر محمد باقر عامرى نيا.
٤٨. دراسات قرآنية، الدكتور محمد حسين علي الصغير.
٤٩. الذريعة إلى تصانيف الشيعة، آغا بزرگ الطهراني.
٥٠. روضة الكافي، محمد بن يعقوب الكليني.
٥١. سنن أبي داوود، أبو داوود السجستاني.
٥٢. سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي.
٥٣. سنن الدارمي، أبو محمد عبدالله الدارمي.
٥٤. سنن النسائي، أحمد بن شعيب النسائي.
٥٥. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي.
٥٦. السيرة الحلبية، علي برهان الدين الحلبي.
٥٧. شرح الأصول الخمسة، السرخسي.
٥٨. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني.
٥٩. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري.
٦٠. الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي.
٦١. صيانة القرآن من التحريف، الشيخ محمد هادي معرفة.
٦٢. ضحى الإسلام، أحمد أمين.
٦٣. الطبقات الكبرى، ابن سعد.
٦٤. طبقات مفسرين شيعة، عقيقي بخشايشي.

٦٥. علوم الحديث ومصطلحه، الدكتور صبحي الصالح.
٦٦. علوم القرآن عند المفسّرين، مركز الثقافة والمعارف القرآنية.
٦٧. علوم القرآن، محمد باقر الحكيم.
٦٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه.
٦٩. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.
٧٠. فجر الإسلام، أحمد أمين.
٧١. الفصل في الملل والنحل، ابن حزم الأندلسي.
٧٢. الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري.
٧٣. الفهرست، ابن النديم.
٧٤. في العقد الاجتماعي، جان جاك روسو، ترجمة ذوقان قرقوط.
٧٥. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.
٧٦. قرآن در اسلام، السيد محمد حسين الطباطبائي.
٧٧. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي.
٧٨. الكتاب، سيبويه.
٧٩. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله الزمخشري.
٨٠. كليّات في علم الرجال، الشيخ جعفر السبحاني.
٨١. لسان العرب، ابن منظور.
٨٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان.
٨٣. متشابهات القرآن ومختلفه، محمد بن علي بن شهرآشوب.
٨٤. مجمع البيان في تفسير القرآن، محمد بن الفضيل الطبرسي.
٨٥. المحلّى، ابن حزم الأندلسي.
٨٦. المختصر النافع، أبو القاسم نجم الدين المعروف بالمحقق الحلي.
٨٧. المدرسة القرآنية، السيد محمد باقر الصدر.

٨٨. مذاهب التفسير الإسلامي، اجنتس جولدزيهر.
٨٩. مستدرك الحاكم، الحاكم النيسابوري.
٩٠. مستمسك العروة الوثقى، السيد محسن الحكيم.
٩١. مسند أحمد، أحمد بن حنبل.
٩٢. المصاحف، ابن أبي داوود السجستاني.
٩٣. مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار: محمد عبد الكريم الشهرستاني.
٩٤. مفردات غريب القرآن، الراغب الأصبهاني.
٩٥. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي.
٩٦. مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية.
٩٧. المناقب، محمد بن علي بن شهرآشوب.
٩٨. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزرقاني.
٩٩. منتخب كنز العمال، المتقي الهندي.
١٠٠. الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي.
١٠١. نكت الانتصار، أبو بكر الباقلاني.
١٠٢. النهاية، ابن الأثير.
١٠٣. الوافي، ملا محسن الفيض الكاشاني.
١٠٤. وسائل الشيعة، محمد بن الحسن الحر العاملي.